

أوراق وورد



تأليف
مصطفى صادق الرافعي

سأئله
ورسائله

قدم له
محمد سعيد العريان

عرض ودراسة
عادل عبد المنعم أبو العباس



المكتبة البنسنية

للتشر والتوزيع والتصدير

نافذتك على الفكر العربي
والعالمي من خلال ما تقدمه
لك من روائع الفكر العالمي
والكتب العلمية والأدبية
والطبية وسواد التراث
واللغات الحية. شعارتنا:
قدم الجديد..

بسعير رخيص

يشرف عليها ويديرها

مهندس

مصطفى عاشور

٧١ شارع محمد فريد - الزفة - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٦٧٧٩٨٢ - ٢٦٧٧٩٨٢ فاكس: ٢٦٧٨٠٤٢١

Web site: www.lbinsina-eg.com

E-mail: info@lbinsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو
تسجيل أو اقتباس أي جزء من
الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة
ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن
كتابي سابق من الناشر.

مصطفى صادق الرافي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد

ابن أحمد، ١٨٨١ - ١٩٣٧

أوراق الورد: رسائلها ورسائله/ تأليف: مصطفى صادق الرافي،

قدم له: محمد سعيد العريان؛ عرض ودراسة: عادل عبد المنعم

أبو العباس.

١- القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠١٦.

٢٤٠ ص، ٢٠ سم

تدمك ٩ ١٦٢ ٤٤٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الرسائل العربية العاطفية.

١- سعيد العريان، محمد سعيد العريان، ١٩٠٥ - ١٩٦٤ (مقدم)

ب- أبو العباس، عادل عبد المنعم (دارس)

ج- العنوان: ٨١٦،٥

رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٤١٧٥

الترقيم الدولي: 9-162-447-977-978

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم

الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالمملكة العربية السعودية من

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ - هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ - ٤٣٥١٩٦٦ - ٤٣٥٩٠٦٦

فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٥٥٠٦٧١٩٦٧

E-mail: alsnay99@hotmail.com

مطابع العصور الحديثة - القاهرة

تليفون: ٤٤٨٩٠٠١٣ فاكس: ٤٤٨٩٠٥٩٩

تقديم

نحمدُ اللهَ على نعمةِ التوفيقِ، ونُصَلِّي ونُسَلِّمُ على أشرفِ مُرسلٍ
لهدايةِ الناسِ إلى أفْوَجِ طريقِ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وبعد،

فَمَعْرُوفَةٌ هِيَ قِصَّةُ الحُبِّ العميقِ الذي حَمَلَهُ قلبُ الرافعي الأديب
للصحفِيَّةِ الأديبَةِ "مى زيادة"، والنهائِيَّةُ التى آلتَ إليها هذه المحبَّة من
اعتذار "مى" عن الارتباط بـ "مصطفى الرافعي"، رغمَ الرسائلِ المتبادلة
بينَهُمَا.

ويعرُفُ الأدباءُ كذلك موقفَ الأديبِ الكبيرِ "عباس محمود العقاد" من
صرفِ "مى" عن "الرافعي"، بل وتغييرِ مواعيدِ صالونها الأدبي حتى لا
يتمكن الرافعي من الحضور، وما دار فى هذا الموضوع من معارك فكرية
دامت واستمرت بين الأديبين العملاقين حتى بعدَ رحيلِ "الرافعي" عن
دينا الناسِ!!!

وكتابُ "أوراق الورد" مجموعة من الرسائلِ المتبادلة، وهو طائفة من
الخواطرِ فى فلسفَةِ الحُبِّ والجمالِ، أنشأها "الرافعي" ليصفَ بعضَ أحواله
فى بعضِ سِنَى عُمرِهِ، وهى تضم- ما يزعمه المؤلف- رسائِلَهَا ورسائِلَهُ.



وتقديم كلمة "رسائلها" توحى بأنّها هي الباردة بالكتابة، وأنه المجيب، لكنك حينما تتصفح الكتاب لا تغتُر إلا على رسالتين مَشُوبَتَيْنِ إليها، وضع للأولى عنوان: "البلاغَةُ تتنهَّد"، وللثانية: "الحيبَات والمصائب"، زد على ذلك فصولاً متنوعةً من بعض رسائلها، كتبها بأسلوبه، فجاءت مُبهمة، وكأنّها لم تُنشرًا.

فهى إذن- كما يرى بعض الباحثين- مراسله وهمية، وإن قال المؤلف إنه تلقى منها رسائل كثيرة لم تَأذن بنشرها، فاحتال هو لذلك ونقلها إلى لغته.

لكن فاتحة الكتاب تكشف أن الأمر لا يعدو التوهم فى أكثره، وأن الهجرَ قد بدّل من حبيته مظهرَ الجلال والوقار، وأخصّعها لخياله خضوعًا لا يضرّها، وإذا بينهما حُبٌّ "باعترابٍ عَقْلِيٍّ" وفقّ تعبير ابن سينا.

سَبَبُ التَّسْمِيَةِ

ومقدمة الأوراق تشرح سبب تسمية الكتاب وهو أن ملهمته كانت تحمل وردة ظلت تشمها وتداعبها إلى أن قالت له: "ما أرى الحب إلا كورق الورد فى حياته ورقته وعطره وجماله، ولا أوراق الوردة إلا مثله فى انتشارها على أصابع من يمسه إذا جاوز فى مسها حدا بعينه من الرفق". ثم أنها دنت منه وعلقت الوردة على عروته فقال لها: "وضعتها (..) لكن على معاني فى القلب كأشواكها" فاستضحكت وقالت: "فإذا كتبت يومًا معاني الأشواك فسمها "أوراق الورد"، وكذلك سماها".



فقد أراد الكاتب، إذن أن يتكلم على الأشواك بما توحيه من ألم وحرز، فاستعمل عبارة أوراق الورد وهي توحى غير ذلك تمامًا، ربما من باب العلاقة الضدية في الكناية، أو الاستعارة التهكمية وفاق مصطلح الخطيب القزويني.

أما المقدمة الثانية التي سماها الرافعي "صدر من التاريخ" وأشرنا إليها في ما مضى، فبحث جيد في تاريخ رسائل الحب عند العرب حاول الرافعي أن يبرهن فيه على خلو الأدب العربي من مثل هذا الفن، وعلى أن رسائله هي الأولى في هذا الميدان، لكن في ذلك نظرًا.

بعد المقدمتين تأتي الرسائل، ولا تصح هذه التسمية على كل فصول الكتاب كما سوف نرى، فبعض فصوله تأملات، وبعضها حوار، وبعضها مناجاة. وهي واحد وخمسون فصلاً: تسعة من الشعر الموزون، وثلاث مقدمات لبعض الفصول من الشعر الموزون أيضًا، وما تبقى من الكتاب فمن النثر والشعر المنثور.

القصيدة الموزونة الأولى (ما نفع رقة روعي) رسالة شعرية منه إليها، وأما القصيدة الثانية (قال القمر) فهي مناجاة للقمر لا رسالة، والقصيدة الثالثة (مني السلام) رسالة شعرية منه إليها، والقصيدة الرابعة (كتاب الرضا) وصف لرسالتها ومناجاة هذه الرسالة، والقصيدة الخامسة (كذب مصور) رسالة شعرية قصيرة، والقصيدة السادسة (متى يا حبيب القلب) مناجاة لنسيم الفجر لا رسالة، والقصيدة السابعة (في الأحلام) وصف لحلم، والقصيدة الثامنة (يا قلبي) وصف لقلب العاشق، والقصيدة التاسعة



والأخيرة «يوم النوى» وصف للعاشق والعشق. فليس في هذه القصائد التسع ما يصح اعتباره رسائل إلا ثلاثاً. وتبدو جميعاً وكأنها أقحمت في الكتاب للتذكير بأن الرافعي يستطيع أن يكتب الموزون والمنثور، وبأنه لا يريد أن يصدر ديواناً مستقلاً للنوع الأول.

أما القطع المنثورة فبعضها يبدأ بأبيات من الموزون ثم يستكمل بالمنثور، وبعضها الآخر منثور على الإطلاق؛ وليست كلها رسائل، بل إن منها تسعاً يمكن أن نعتبرها مقالات هي التي تحمل عنوانات: ألم الحب، هدية شتم، صلاة في المحراب الأخضر، شجرات الشتاء، رسالة الطيف، فلسفة المرض، الهجر، وهم الجمال، والسلام عليها، وثلاثاً هي أشبه بالمذكرات والخطرات وتحمل عنوانات: قالت وقلت، النجوى، قلت وقالت، وواحدة قصيدة مترجمة كما يدعى المؤلف.

وقد ذهب الأستاذ الكبير "محمد عبد الفنى حسن" إلى أن الرسائل فى "أوراق الورد" حقيقية، ويرد على الذين يزعمون أنها وهمية، وذلك فى كتابه عن "مى" بعد ذكره لبعض الرسائل قائلاً: "لعلّ فى هذه الرسالة أبلغ ردّ على من ينكرون تبادل الحب بين "مى" و"الرافعى".

ماذا يمكن أن تقول امرأة فى التصريح بالحب أكثر من هذا؟

قد يكون ذلك، وقد تكون مهارة الرافعى فى التعبير عنها هى التى جعلت البعض يروج هذا الرأى الذى دفعه بأن يقول بوهمية الرسائل.

ومهما يكن من أمر هذه الرسائل، فإنها قد أثرت فى الأدب العربى الحديث، ودفعت عددًا من الأدباء على تقليد "الرافعى" وتأليف كتب

فى هذا الموضوع، ومن أولئك" محمد صادق عنبر" الذى كتب رسائل على لسان "المجنون"، "وليلى"، وكذلك الدكتور "زكى مبارك" الذى كتب "رسائل مجنون شعاد"، "وخليل الحشالى" الذى أخرج "رسائل قلب".

ولن أطيلَ أكثر من ذلك، وسأدعُ الحديث لتلميذ الرافعى الأديب العالم " محمد سعيد العريان" الذى عرّف نفسية صديقه وأستاذه فَعَبَّرَ عن المراد، وقد خلا تصديره هذا من الطبقات التى صدرت، فأثبتناها للأمانة العلمية أولاً، وليكون لطبعتنا ثِقَلًا ومكانتها.

سائلا الله التوفيق لنشر الأدب الراقى لكبار أدباء أمتنا لنواجه به الأدب الرخيص أو كما يسميه الدكتور "محمد ذهنى" "رحمه الله: "اللاأدب".
والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير

عادل عبد المنعم أبو العباس



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم تلميذ الرافعي وكاتب سيرته..

محمد سعيد العريان



كانت قصة حب...

ثم انتهت كما ينتهي كل حب بين اثنين تكون الفلسفة والكبرياء بعض عناصر وجوده، وافتراق الحبيبان على غير ميعاد، وفي نفس كل منهما حديث بهم أن يفيض به...⁽¹⁾

وفعل الفراق بالرافعي ما فعل، فأنشأ كتابيه "رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر" يصف فيهما من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبتة، فلما استفرغ ما كان في نفسه من خواطر الحب المتكبر، ونفس عن غيظه بما ذكر من معاني البغض والهجر والقطيعة ليخدد بذلك نفسه عما تجد من آلام الفراق ويثأر لكبريائه- هدأت تأثرته بعد عنفوان، وفاءت إليه نفسه، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه، فعاد إلى حالة بين الغضب والرضا، وبين الحب والسلوان، فاستراح إلى اليأس لولا أثاره من الحنين تنزع به إلى الماضي. وبقية من الشوق واللهفة على ما كان، وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلىء من بعد بالشعر والحكمة والبيان. ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذهبها، والذكرى تغشاه في

(1) انظر قصة الرافعي العاشق من كتابنا حياة الرافعي.





خلوته وتداعبه فى أحلامه، والأمانى التى بعثرتها الكبرياء بدداً فى أودية النسيان تتخايل له فى شكول وألوان، وخواطره من وراء ذلك تعمل، ونفسه الشاعرة تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرؤى والأحلام، حتى اجتمع له ما اجتمع من الخواطر فى "أوراق الورد".

"أوراق الورد" هو طائفة من الخواطر المنثورة فى فلسفة الجمال والحب أنشأه الرافعى ليصف حالة من حالاته ويثبت تاريخاً من تاريخه فى فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد. ويقول الرافعى إنه جمع فى أوراق الورد رسائلها ورسائله أما رسائله فنعم، ولكن على باب المجاز. وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب؟

إلا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتاجاً من حديثها وحديثه. بل، إن فى أوراق الورد طائفة من رسائله إليها، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد^(١) بل هى من الرسائل التى كان يناجيه بها فى خلوته ويتحدث بها إلى نفسه، أو يبعث بها إلى خيالها فى غفوة المنى، ويترسل بها إلى طيفها جلوة الأحلام، إلا رسالتين أو ثلاثاً مما فى أوراق الورد... فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها، بعث بها إليها فى كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق!

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحى حبيبته (فلانة). وليست كل رسائله فى الكتاب إليها، فهناك (فلانة) أخرى: هنالك صاحبة "حديث القمر" تلك التى عرفها فى ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة، وهنا هذه... هما اثنتان لا واحدة: تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتهما

(١) اقرأ ص ١٠٤ من كتابنا "حياة الرافعى": ورسائلها فى المراسلة.



السعيدة. معانى الحب التى تملأ النفس بأفراح الحياة، وهذه يستوحىها معانى الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب التى أشرق فى خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم!

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبتة فلانة، كان قلبه فى أثنائها خالصةً لها، ولكن فكره كان يدور على معانى الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك، فلما اجتمع له ما أراد، ضم أوراق الورد إلى أشواكه وأخرجها كتابًا للفن أولاً ثم لها من بعد.

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذى كان يعشقها، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكر وعقل الأديب وحيلة الفنان.

بلى، إنه كان يحبها حبًا لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها، فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعًا، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحى إليه من هنا ومن هنالك ومما يستجد على خواطره من بعد معانى الحب والبغض والود والقطيعة.

هو كتاب يصور نفسه وخواطره فى الحب، ثم يصور فنه وبيانه فى لغة الحب، ثم لا يصور شيئًا من بعد مما كان بينه وبين صاحبتة على وجهه وحقيقته إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة فى البحث والاستقراء.

فأيا رسالة فيها اللهفة والحنين، وفيها التذلل والاستعطاف وفيها تصنع الغضب ودعوى الكبرياء، وفيها المنى الحاملة تتوالت بين السطور فى خفة الفراشة الطائرة وفيها ما فيها من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت. فهى فصل يؤدي أدائه فى قصة هذا الحب العجيب.

وأياً رسالة تصف ما كان فى خلوة نفس إلى نفس، وتقص فى لغة الماضى حديث قلب إلى قلب، وتكشف عن سر الابتسامة ومعنى النظرة، وتحدث عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون، فهى ذكرى من الماضى البعيد كان حياً فى الدم فصار حديثاً فى الفكر، ثم استتبع شىء شيئاً.

وما قرأت من قول مزوق، وبيان منمق، ومعنى يلد معنى، وفكرة تستجر فكرة وعبارة تتوكل على عبارة، فهو من أداء الفن وولادة الفكر. ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة، أو حادثة وذكرى، أو فن من الفن. ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الألوان الثلاثة فى قرن؛ ففيها قلب ينبض، وذكرى تعود، وبيان مرصع.

فإذا عرف القارئ هذه الألوان الثلاثة وميز بعضها من بعض عرف الكتاب وعرف صاحبه، وخرج منه بشىء.

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة فى الأدب، يتحدث المؤلف فيها عن تاريخ رسائل الحب فى العربية، بأسلوب هو أسلوبه وإحاطة هى إحاطته وسعة اطلاع لا تعرف لغيره، وهذه المقدمة وحدها هى باب طريف من أبواب الأدب العربى، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذى نهجه الرافعى العالم المؤرخ فى كتابه "تاريخ آداب العرب" فكان به من أول من كتب فى تاريخ الأدب وآخر من كتب...

وتأتى بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل، وفيها سبب تسمية الكتاب، ثم يمضى فى هذه المقدمة يتحدث عن حبه، وآلامه فى الحب ورأيه فى الحب، وشىء مما كان بينه وبين صاحبتة، ثم يتحدث عن نهجه فى هذه الرسائل؛ وما أراد بها، وما أوحاها إليه: ثم تأتى بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل: فيها حنين العاشق

المهجور، وفيها منية المتمنى، وفيها ذكريات السالى، وفيها فن الأدب
وشعر الشاعر، وفيها من رسائلها ومن حديثها...

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب فى رسائل لم يجد شيئاً، ومن
أراده رسائل وجوابها فى معنى خاص لم يجد شيئاً، ومن أرادته تسلية
وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً، ومن أرادته نموذجاً من الرسائل يحتديه فى
رسائله من يحب لم يجد شيئاً، ومن أرادته (قصة قلب) ينبض بمعانيه
على حاله فى الرضى والغضب، ويتحدث بأمانه على حاله فى الحب
والسلوان- وجد كل شىء.

وهو فى الفن فن وحده، ليس له فى بيانه ومعانيه ضرب مما أنشأ
الكتاب وأنشد الشعراء فى معانى الحب، على أنه- بأسلوبه العنيف وبيانه
العالى وفكرته السامية فى الحب- لا يعرف قراءه فى العربية. وكم قارئ
استهواه عنوانه وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة، فما هو إلا أن يمشى
فيه صفحات قليلة حتى تسلمه يميناه إلى يسراه إلى الزاوية المهجورة
من مكتبته، وهيئات أن يعود إليه.. وكم قارئ كان لا يعرف الرافعى
الشاعر الثائر العنيف فى حبه وبغضه وكبريائه، فلما قرأ أوراق الورد عرفه
فاستخلصه لنفسه، فما يعرفه فى الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد.

ليت شعرى أفى العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من
أوراق الورد أو يجمع معانيها فى قصيدة؟.. أين يكون هذا الشاعر وأين
قراؤه يوم يكون؟

أرأيت إلى المنجم الذى يمتد فى الأرض ويتغلغل بعروق الذهب؟.. إنه
كنز، ولكن من ذا يصبر على المعاناة فى استخراجه والبلوغ إلا أن يكون
صاحب أيد وقوة؟.. إنه كنز يطلبه الجميع، ولكنك لن تجد فى الجميع

من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض- إلا الرجل الواحد المحظوظ الذي يكون معه الصبر!

إن أوراق الورد منجم من المعاني الذهبية، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثنى كنز في العربية في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة في الشعر والبيان.

وكان الرافعي رحمه الله، يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج في أدب الإنشاء. ويباهى ويفتخر، وما أحسبه تعزى عن صاحبته بقليل إذ تعزى بما لقي من النجاح والتوفيق في إنشاء أوراق الورد.

وكما تجد الأم سلوتها في ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذي طواه الموت- وجد الرافعي العزاء في أطفال معانيه عن مطلقته العنيدة. لقد فارقها ولكنه احتواها في كتاب!

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلف بين يديها بضعة منه؛ ولكنها تجد العزاء عنه بشيء منه وإن قلبها ليخفق بذكره في عيني هذا الحبيب الصغير. وكذلك لم ينس الرافعي ولكنه وجد السلوى.

لقد أفلتت من يده ولكنها خلفت ذكرها معه، ذكرى حية ناطقة تتمثل معاني وكلمات في كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب!

يرحمه الله! لقد مات ولكن قلبه مازال حيا ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه في قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله يرحمه الله!

محمد سعيد العريان



صدر من التاريخ

هذا الديوان من الرسائل تكملة على كتابين خرجا من قبل، وهما: "رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر" فجملة أرائنا فى فلسفة الجمال والحب وأوصافهما هى فى هذه الكتب الثلاثة.

ورسائل "أوراق الورد" هذه تطارحها شاعر فيلسوف روحانى وشاعرة فيلسوفة روحانية، كلاهما يحب صاحبه كما يقول الفيلسوف ابن سينا^(١) باعتبار عقلى^(١)، وسيرى القارئ فلسفة حبهما فى بعض ما يأتى، كما رأى من ذلك فى الكتابين الآخرين وقد جرت الرسائل بينهما على أغراضها فى أحوال مختلفة يكتب إليها بما عنده منها وما عند نفسه من نفسه، وما يكون من الوجود المحصور بينهما فى حدود الحب. وكأن تلك الكتب الثلاثة هى ما استوجبته الحياة من عمل قلب ذلك الشاعر فى تدوين حادثة واحدة من حوادثه، فلو أن بيانا أكثر من أن يكون بيانا لما علمته إلا هذا الأثر من خالصة السريرة فى ذلك الشاعر الخالص للحب والموقوف الضلوع على الهوى!

وأما بعد فإننا لا نعرف فى تاريخ الأدب العربى كله رسالة كتبت من هذا الطراز، على كثرة كتاب العربية وكتبها، وعلى ما أبدعوا فى فنون

(١) لابن سينا رسالة فى العشق على طريقته الفلسفية التعليمية، أوردها بهاء الدين العاهلى فى كتابه "الكشكول"، وفيها معان حسنة، ولكنها لا تعد من الأدب، وهو يرى أن حب الصورة المليحة باعتبار عقلى هو الوسيلة إلى الرفعة والزيادة فى الخيرية، قال. ولذلك لا يكاد أحد من أهل الفطنة والحكماء يوجد خاليا عن شغل قلبه بصورة حسنة إنسانية. قلنا: وهذه فلسفة ولكن تنقصها الفلسفة.

الترسل، وعلى أن هذه العربية من أوسع لغات الدنيا فيما خصت به المرأة، وما أوقعته على صفاتها، وما أفاضته على العاطفة إليها، وما حفلت به من ألفاظ معانيها، حتى لو أمكن أن ترسل لغات الأمم ألفاظها تستبق في المعاني النسائية، لما كان السبق إلا للألفاظ العربية ولا أوفى على الغاية إلا المعجم العربي وحده!

وفى تاريخ أدبنا ممن اشتهروا بالعشق من نكاثر بهم فى هذا الباب، ومن أشهرهم مجنون بنى عامر^(١) وصاحبته ليلي، وقيس بن ذريح ولبنى، وتوبة وليلى الأخيلية، وكثير وعزة، وجميل وبثينة، والمؤمل والذلفاء، ومرقش وأسماء، وعروة وعفراء، وعمرو بن عجلان وهند، والمهذب ولذة، وذو الرمة ومية، وقابوس ومنية، والمخبل السعدى والميلاء، ووضاح اليمن وأم البنين، وبشر وهند وابن أبى ربيعة والثريا (وثريات كثيرة...) والأحوص وسلامة ونصيب وزينب، وأبو العتاهية وعتبة، وابن الأحنف وفوز، وأبو الشيص وأمامة، وابن زيدون وولادة وكثيرون وكثيرات...

اشتهر من شعراء الغزل خاصة كثيرون منهم ابن أدينة، ابن الدمينية، وابن الطثرية، وابن ميادة، وابن مطير وابن أبى ربيعة وابن ذريح والعرجى، والمجنون، وقيس بن الحطيم وسويد بن أبى كاهل، وكثير الذى قالوا فيه: لو رقى المجنون بشعره لأفاق، وجميل، ونصيب، ووضاح وعباس بن الأحنف والخليع، والوأواء، وابن الخياط، وابن زيدون، ومن لا يحصى فى المشرق والمغرب والأندلس^(٢).

واشتهر من الشاعرات المتطرفات الجميلات الموقوفات على الحب:

(١) يظنه بعضهم شخصاً خرافياً، ولستنا من هذا الرأى، وإنما حملوا عليه فى الرواية.

(٢) استوفينا هذا الباب فى الجزء الثالث من كتابنا "تاريخ آداب العرب" وإنما نلم هنا ببعض الأسماء إرسالاً على طريق ما نحن فيه، لا على طريق التأريخ.

الذلقاء، وعنان جارية الناطقى، ويقولون إنها أشعر الناس، وجنان صاحبة
أبى نواس، وفضل الشاعرة جارية الخليفة المتوكل. وكانت أفصح أهل
زمانها وكانت تهاجى خنساء الشاعرة جارية هشام المكفوف، وعشقت
الكاظم البليغ سعيد بن حميد، وللمتوكل بنان ومحبوبة أيضاً، وهما
شاعرتان، وفى الأندلس نزهون الغرناطية، وولادة، وحمدة الملقبة
بخنساء المغرب، وكثيرات غيرهن استوفينا أسماءهن فى تاريخ آداب
العرب.

وحفل تاريخ الأدب بالقيان الظريفات الغزلات، ولا تكاد أسماؤهن
تحصى، وهن سر الغزل الحى البديع الذى انفردت به تلك العصور ولم
يظفر الأدب العربى بمثله من بعدها إلى اليوم^(١).

وجاء فى آدابنا العربية من المؤلفات المعجبة التى أفردت للحب
ومعانيه وأهله وأخبارهم ونوادهم وأشعارهم كتب مجردة منها كتاب
الزهرة الذى ألفه الإمام محمد بن داود الظاهرى فقيه أهل العراق^(٢) وقد
جعل كتابه فى مائة باب وهو القائل: ما انفككت من هوى منذ دخلت
الكتاب! ثم الظرف والظرفاء، وكتب مؤلفه الكثيرة فى هذه المعانى^(٣)

(١) وأسماؤهن وحدها غزل، ومن هذه الأسماء حكم الهوى، وقلوب، وصدق، ومهج، وخشف، وبدعة
ومشتهى، وكنوز، ونشوان، وترشف، وملاعب. الخ. وكان فيهن أديبات محسنات، ولهن بلاغة
هى صورة أخرى من جمالهن كفرحة جارية ابن الجهم الشاعر المشهور: سألتها ذات ليلة: كم
بيننا وبين الصبح، فقالت: عناق مشتاق وقال لها مرة: نجعل مجلسنا الليلة فى القمر؟ فقالت
ما أولعك بالجمع بين الضرائر!

(٢) توفى سنة ٢٩٥، ومن كتابه جزء فى دار الكتب المصرية، وكان يعيش على الطريقة التى أشار إليها
ابن سينا، والتى هى حقيقة الحب، ولا تنس أنه كان فقيه أهل العراق!

(٣) هو أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء، من أدباء القرن الثالث وستأنى الإشارة إليه
بعد، وكتبه فى هذه المعانى مسماة فى الظرف والظرفاء.

ثم مصارع العشاق الذى وضعه أبو بكر البغدادي السراج المتوفى سنة ٥٠٩هـ وجعله اثنين وعشرين جزءًا، وهو أصل لكل ما وضع بعده من الكتب: كأسواق العشاق، وديوان الصبابة وتزيين الأسواق، ومنازل الأحباب، وغيرها: ومع كل ما رأيت فقد انفرد الشعر وحده بالنسب والغزل وأوصاف الجمال، ونيسر لنا كتاب واحد فى رسائل الحب ولا نعرف أحدًا من البلغاء كتب فيها. ولعل هذا راجع إلى أن تلك الطريقة استقل بها الشعر فى الصدر الأول فقلد الباقون وأخذوا فى مدرجتهم من بعد.

وكان هذا الباب عندهم مما يرون للشعر به اختصاصًا، فهو سبيله دون الكتابة والخطابة، لمكان الوزن فى الشعر، فتجئ الرساله الغزلية لحنا غنائيًا من طبيعتها، ثم لأنه قد تقرر عندهم أنه يحسن فى الشعر من فنون الكذب والمبالغة ما لا يطرد فى النثر، حتى إن أكثر الرذائل - كالهجاء ووصف الخمر والمجون - كان ظرفها الشعر. وهى سائغة وفى غيره منكورة ولا يأتى منها فى المنثور إلا قليل.

وقد نصوا على أن للشعر مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرسائل بل هو يفضلهما.

قال أبو هلال العسكري فى كتاب "الصناعتين" وهو يعد هذه المواضع: "ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له وصف وجده به وحنينه إليه وشهرته فى حبه وبكاه من أجله لا استهجن منه ذلك وتنقص به فيه، ولو قال فى ذلك شعرًا كان حسنًا".

وقد توفى العسكري سنة ٣٩٥ للهجرة. وعلى كثرة ما حشد فى كتابه من فنون النثر وطرائفه لم يأت برسالة واحدة بين حبيبين، إلا ما أورده



فى باب (ما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامثاله، قال: وينبغى أن يكون الدعاء على حسب ما توجهه الحال بينك وبين من تكتب إليه: وقد كتب بعضهم إلى حبيبة له: عصمنا الله وإياك مما يكره. قال: فكتبت إليه: يا غليظ الطبع! لو استجيبت لك دعوتك لم نلتق أبدًا!..

ولا ريب عندنا أن هذه الكتابة مصنوعة للتمثيل بها فى هذا الموضوع، كالذى كانوا يصنعونه من الشعر إذا احتاجوا إلى الشاهد والمثل، على ما بيناه فى باب الرواية من تاريخ آداب العرب.

ثم هم يخضون الشعر بالغزل والتشبيب والنسيب؛ لأن الشعر أيسر عملاً وأخف مؤنة فى هذا الباب؛ إذ يعين بقوافيه على الإبداع فى المعانى فإن القافية كثيراً ما تخرع المعنى وتلهمه الشاعر، ثم الشعر يصحبه الوزن واللحن فيعين بنسقه أيضاً كما يعين بقوافيه، ثم تجيء ألفاظه مقدودة مفصلة فتكون حيلة ثالثة، ثم هو يكتفى منه بالبيتين والأبيات اليسيرة فيجىء كل ذلك على أتمه وأحسنه ويقوم به، بخلاف الكتابة: فلا يجدى فيها السطران والأسطر القليلة فى رسالة تصف الحب، وما ستر هناك يفضح هنا، وما أعان فى الشعر يخذل فى النثر، والشعر إجمال والكتابة تفصيل وأنت فاعمد إلى بيتين من روائع الغزل كقول ابن الطثرية:

بنفسى من لو مر برد بنانه على كبدى، كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل شىء وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائله؛

فاجعل هذين البيتين رسالة إلى حبيبة، فانهما يجزئان ويؤديان الرسالة، وينقلان إليها عن نفسك معانى الاحتراق والعشق والصبابة، ويتكلمان عندها كثيراً ويعلقان بذهنها ويدوران فى قلبها دورة الدم. ثم

اعمد إليها فاجعل المعنى المنظوم فى سطرين وحاول منهما رسالة كتلك، فإن السطرين لا يتزحزان ولا يمشيان إلا كما يتوكأ الأعرج على أعرج مثله...!

وهذا إلى أن الكتابة فى معانى الحب لا تحتل الصدور والفصول وصناعة الألفاظ والترادف بالكثير منها على القليل من المعانى، ويسمج فيها خاصة ما نراه يحسن فى غيرها من فنون الكتابة: كالتوسع بالنقل والرواية، وتشقيق الكلام بما يلابس كل معنى، والطغيان فى العبارة بذلك وما إليه. وكل شىء فهو يصلح مادة للكتابة إلا فى هذا الفن من رسائل الحب، فإن مادته القلب والروح وفلسفة العاطفة وترادف وحى الجمال بالمعانى الكثيرة على الشعور الواحد، لا وحى اللغة بالألفاظ الكثيرة على المعنى الواحد، ولا يتخلص إلى فنونه ومعانيه إلا من ثمة. فكأن هذا الباب هو ناحية ليس فى طبيعة كتابة المتقدمين ومن الناحية الأخرى ليس فى طبيعة الاجتماع يومئذ، لأسباب لا محل لبسطها فى هذا الإيجاز.

ولقد كتب شيخنا وأديبنا الكبير "الجاحظ" رسالة فى العشق والنساء، وهى مجموعة رسائله، فكان والله كالذى يلبس ملكة الجمال فى هذا العصر مرقعة قذرة. واجتلب من هنا وهناك لمعانيه، وشق لها المداخل والمخارج على طريقته، واتسع بذلك فى العبارة، فجاءت أبرد رسائله وأسقطها، وكان هذا الإمام فيها كالذى يتحسس بيده مجلدًا ضخماً من الكتب، ثم يذهب يستوحى من جلده أو صاف ملبس جسم الحبيبة.. التى كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينه، أو كأنها خرطت من ياقوتة.

وساق ابن قتيبة فى كتابه "عيون الأخبار" رسالة منية إلى صاحبها



قابوس- وهما من أعلام العشق والأدب- ثم جواب قابوس عليها ثم رسالة أخرى منه^(١) فكتبت منية إلى حبيبها:

" من سن سنة فليرض بأن يحكم عليه بها؛ ومن سأل مسألة فليرض من العطية بقدر بذله، لكل عمل ثواب، ولكل فعل جزاء، ومن بدأ بالظلم كان أظلم، ومن انتصر فقد أنصف، والعفو أقرب إلى العقل، وغير مسيء من أعتب، مع المخض تبدو الزبدة، عند تناهى البلاء يكون الفرج، كل ذي قرح يشتهي دواء قرحه، كل مطمع منتظر، كل آت قريب؛ الموت أروح من الهوى، اليأس أول سبب الراحة، السحر أنفذ من الشعر^(٢)، دواء كل محب حبيبته، مع اليوم غد، كما تدين تدان، استشف الله لما بك. واسأله المدافعة عنك^(٣)."

وأجابها قابوس:

" من الكرام تكون الرحمة، ومن اللئام- تكون القسوة، من كرم أصله لأن قلبه ورَّق وجهه، ومن عاقب بالذنوب ترك الفضل، ومن ترك الفضل أخطأ الحظ، ومن لم يغفر لم يغفر له، أولى الناس بالرحمة من احتاج إليها فحرمها، لكل كرب فرج، ولكل عمل ثواب ملكت فأسجى، قدرت فاعفى، ويل للشجى من الخلى الخ الخ."

فانظر ويحك ما هذا الكلام المتقطع المبتذل المطروق المنتزع كله من الأمثال والحكم، وكأن العشق فى الحافظة.. ولم يورده ابن قتيبة إلا فى باب النساء والعشق.. ثم ما عسى كان يقول هذان الحبيبان لو أن منية

(١) الجزء الرابع من عيون الأخبار صفحة ١٣٦ طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) نصاب: الشعر أنفذ من السحر، كما هو ظاهر.



هذه قامت على منبر مسجد الكوفة.. وصعد قابوس المنبر في مسجد البصرة، وأراد أن يخاطب الناس لإقامة صلاة الجمعة؟

على أن بلغاء الكتاب في كل عصر تناولوا في ترسلهم فن (الإخوانيات) وأجروا فيه رسائل المودة والشوق والصدقة والاستعطاف والعتاب والاعتذار والاستزارة لمجالس اللذات والأنس وهذه كلها من أمس المعاني بالحب وأقربها شبهًا به، وقد أجاد بعضهم في ذلك إجادة بالغة، وأنت تجد رسائلهم منثورة في كتب الأدب^(١) ومن أبدعها قول سعيد بن حميد، حبيب فضل الشاعرة. "إني صادقت معك جوهر نفسي، فإنا غير محمود على الانقياد لك بغير زمام لأن النفس يقود بعضها بعضًا"^(٢).

غير أنهم يشترطون في هذا الفن من الرسائل الإيجاز والاختصار؛ وألا يتجاوزوا به نكتة المعنى، ليحجى قصدا قريبًا ولعل ذلك للعلة التي أومأنا

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة، والظرف والظرفاء، والصناعتين والعقد الفريد لابن عبد ربه، وصبح الأعشى، وبيتمة الدهر، والمنظوم والمنثور لابن طيفور، وغيرها وقد يكتب في هذه المعاني القيان كالرقة التي أملتها جميلة المغنية في استزارة عبد الله بن جعفر ونقلها صاحب الأغاني في ترجمتها في الجزء السابع وجميلة هذه من أبلغ النساء وأظرفهن، وكانت سيدة أهل زمنها في الغناء وكانت تتواضع للأحوص وتعجب به وتفنى بشعره.

(٢) روى صاحب الأغاني عن ابن أبي المدور، قال: كنت عند سعيد بن حميد وكان قد ابتدأ ما بينه وبين فضل الشاعرة يتشعب، وقد بلغه ميلها إلى بنان وهو بين المصدق والمكذب بذلك، فأقبل على صديق لي فقال: أصبحت والله من أمر فضل في غرور، أخادع نفسي بتكذيب العيان، وأمنيتها ما قد حيل دونه، والله إن إرسالي إليها بعد ما قد لاح من تغيرها لذل، وإن عدولى عنها وفي أمرها شبهة لعجز، وإن تصبري عنها لمن دواعي التلف، ثم أشد آياتًا من الشعر.

فهذه كانت طريقتهم في الحب، يتحدثون به ولا يكتبون فيه، ويتراسلون به إما في الألسنة وإما في رقاع تقوم مقامها في التحدث والتأدية والإبلاغ وفي كتب الأدب أشياء من هذه وتلك. ولقد كانت كلمات سعيد في تلك الحال تصلح مادة رسالة بليغة في صاحبه الشاعرة الجميلة لولا ما بيننا وكانت رسائل فضل شعرًا تنظمه، وفي رأينا أنه لو كان ابتدأ فن الرسائل الغرامية كاتب لابتدأه سعيد هذا.

إليها من قبل، إذا كان هذا على حدود الحب، فإذا تبسط فهو الحب بعينه، والكثير في الحب لا يكثر ولا يمل، أما في الصداقة فإلى حد وحسب.

وانظر ما كتب بعضهم في قطيعة صديق إذ كتب إليه:

"لم يدع انقباضك عن الوفاء وانجذابك مع سوء الرأي في ملاحظة الهجر والاستمرار على الغدر- محركا من القلب عليك ولا خاطراً يومي إلى حسن الظن بك، هيهات! انقضت مدة الانخداع لك حين أخلفت عدة الأمانى فيك وما وجدنا سائراً من تأنيب النصحاء في الميل إليك، والتوفر عليك، إلا الإقرار بطاعة الهوى والاعتراف بسوء الاختيار".

فهذه الرسالة لو أنها صرفت إلى حبيبة، وامتد بها النفس على هذا الأسلوب وبمثل هذا التصرف لتكون صفحتين أو تبليغ صفحات، لرجفت أركانها الوثيقة، وخرجت إلى الاستكراه والتكلف، وجاءت عيوبها من محاسنها، وهلك من طولها أولها إلى آخرها.

ولذلك نحونا في "أوراق الورد" أسلوباً خاصاً، تدور به المعانى الحية في ألفاظها بألين مس وألطفه على وضع مستحکم كما يمس الدم الحى عروقه التى يدور فيها.

ولم نقف على اسم كتاب أفرد الرسائل الحب، ولو أنهم كتبوا فيها لجمعت كغيرها وأفردت بالتدوين، بيد أن للقيان الأدبيات المتظرفات ضرباً من رسائل الحب يكتبنها بالذهب والمسك والزعفران فى بديع الحرير الصينى وضروب الديباج، ويجعلن ظروفها طرائف المناديل؛ ويتخذن لها الزناير الحريرية تربطها، ويطيبنها بالمسك والذرائر^(١)، ولا

(١) جمع ذريرة. ضرب من الطيب مما كانوا يصنعونه.

يكتبن فيها إلا "نتف الألفاظ المهلكة... وملح المكاتبه، وطرائف المعاتبه، وجميل المطالبه، وشكيل المداعبه. وقد جمع أبو الطيب الوشاء من أدباء القرن الثالث كتابًا من هذه الرسائل سماه (فرح المهج) والذي يؤخذ من كلامه أن أكثر ما يكتب في ذلك هو الشعر والمثل وأبيات العتاب والسلام ونحوها، مما هو محفوظ مأثور، فليست هذه من رسائل الحب وإنما هي من وسائله.

وأبعد في الاستحالة من كل ما مر أن يكون في الأدب العربي ديوان من الرسائل الغرامية لكاتب واحد، فلقد كان مثل ذلك في الشعر كالندرة والفتنة، حتى قال الجاحظ: "لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلامًا وخاطرًا ما قدر أن يكون شعره في مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف، وما نعلم شاعرًا لزم فنًا واحدًا ولزومه فأحسن فيه وأكثر.

ولأدبيات الجوارى رفاع في مكاتبه عشاقهن، بيد أنها لا تذهب إلا مذهبًا واحدًا في الكلام، فهي في القلم كما هي في اللسان، وليس الكتاب إلا رسولاً لا رسالة، وقد نقل صاحب الأغاني في ترجمه "عريب" الحساء الفاتنة المغنية الشاعرة الكاتبة البليغة المتعشقة التي تكاد تشبه الأديبة الفرنسية الشهيرة المتسمية (جورج ساند) في عشقها واستكلاها... نقل أنها عشقت صديقًا لمولاهما يقال له حاتم بن عدى قال: فمد عينه إليها "فكاتبها فأجابته" وقال أيضًا: إنها لما صارت في دار المأمون، احتالت حتى أوصلت محمد بن حامد وكانت قد عشقته "وكاتبته". ونقل عن بعضهم قال: وسمعت من يحكى أن بلاغتها في كتبها ذكرت لبعض

الكتاب، قال: فما يمنعها من ذلك وهى بنت جعفر بن يحيى؟^(١) ثم روى صاحب الأغاني من مجونها وإفحاشها، فلو أن لها رسائل حب لاستطرف منها هو أو غيره. ولكنها كما قدمنا، رقاع فى مثل الكلام الذى يتراجعه كل صاحبين إذا تحدثا أو تشاكيا أو تواعدا وليست من الرسائل المصنوعة المجودة القائمة فى فيها على شاعرية الجمال وتفلسف الحب وغزل الروح وخصائص المعانى.

وتبذل بعض أدباء المتأخرين فكتبوا فى الرسائل الغرامية يخاطبون فيها بكاف الخطاب المفتوحة. كقول الأديب الشهير ابن سناء الملك من رسالة: "وأنا والله فى أمرك مغلوب، والسبب أنى أنا المحب وأنت المحبوب، ولا أتجد عليك فأغرك وأخون حبك، ولا أتصنع عليك فأغشك وأغم قلبك... اعمل ما شئت فأنا الصابر، وافعل كيف شئت فأنا الشاكر، وقل فلى سمع يعشق قولك، والتفت تر آمالى ترفرف حولك، وافعل فأنت المعذور، واستظل فما أنا المضرور بل المسرور، وارجع إلى الواد الذى بيننا فكل ذنب لك مغفور".

وهذا كما ترى، كلام غث سمج، وحب قد يكسسه فى الطريق الكناسون.

(١) لا ريب عندنا أن هذه العبارة مما يتكذبون به لغرض من أغراضهم فى الرواية ولذلك قال فى سندنا: وسمعت ممن يحكى... ويروون أن عريب زارت صاحبها محمد بن حامد مرة ففعل يعاتبها ويقول: فعلت كذا، وفعلت كذا فقالت يا عاجز، خذ فيما نحن فيه... فإذا كان غد، فأكتب إلى بعتابك فى طومار (فوخ ورق) حتى أكتب إليك فى ثلاثة، ودع الفضول، فقد قال الشاعر:

دعي الذنوب إذا التقينا تعالى لا أعد ولا تعدى!

وهذا إن لم يكن حدث فهو تهويل من صناعة الأخبار علي طريقتهم فى سوق الحكاية وتنزيل معانيها وتديبير نسقها. وإن كان قد حدث فهو تهويل من عريب وتبسط، وكانت طويلة اللسان مهذارة كأنها تقول لصاحبها: إن كان قدر لسناك طومارا فلسانى ثلاثة...!



ولبديع الزمان رسالة مشهورة، إلى بعض من عزل عن ولاية حسنة" أثبتتها في ديوان رسائله. ولابن الأثير في كتابه "المثل السائر" رقعة قال إنها من عاشق لمعشوق، وعدها فيما عد من معانيه المبتدعة. وكل ذلك عندنا لا قيمة له.

ومن المضحكات رسالة كتبها علاء الدين المغربي سماها النيرين. قال: وهي من المحب الكئيب إلى حبيب الحبيب^(١)... وقد أوردها ابن أبي حجلة من أدباء القرن الثامن في كتابه الذي سماه (حاطب ليل).

فأنت ترى أن الأدب العربي قد انطوى على مجموعة من هذا الفن بقيت في الغيب إلى عهدنا هذا، ونرجو من الله أن تكون كتبنا الثلاثة قد أظهرتها واستعلنت بها وأن تقول العربية إذا تواصلوا كتب هذا الباب في بيان اللغات الأخرى: "هاؤم اقرؤا كتابيه".

والحمد لله بما يبلغ رضاه؟

مصطفى صادق الرافعي



(١) عشق هو حبيباً... وعشق الحبيب حبيباً في مثل سنه وجماله فاتصل النير بالنير، فهذا سبب تسمية الرسالة بالنيرين.

المقدمة

هذا كتاب " أوراق الورد ". فحدثني من حدث^(١) في سبب هذه التسمية قال: كانت معها ذات يوم وردة لا أدري أيتها تستنشى الأخرى^(٢) فجعلت لها ساعة من حفاوتها تلمسها مرة صدرها ومرة شفيتها، والوردة بين ذلك كأنما تنمو في شعاع وندي، إذا رأيتهما وقد تفتحت وتهدلت حتى لحسبت أنها قد حالت أوراقها شفاهاً ظمأى.



ثم تأملتُها شيئاً، ثم نحت إلى بصرها^(٣) وقالت: ما أرى هذا الحب إلا كورق الورد في حياته ورقته وعطره وجماله، ولا أوراق الورد إلا مثله في انتشارها على أصابع من يمسه إذا جاوز في مسها حدًا بعينه من الرفق، ثم في تفتريها على إلحاح من يتناولها إذا تابع إلحاحه عليها ولو بالتنهّد، ثم في بناء عقدها على أن تتحلل أو تذوى إن لم يمسكها مع بنائها الرفيق حذر من أن تكون في يده...^(٤) لأنها على يده فن لا وردة.

(١) نسبت رسائل الأحران إلى صديق على طريقة الرواية، فظنها البعض حقيقة لذلك الصديق وما هي له.

(٢) أي صرفت إليه بصرها.

(٣) تستنشق رائحتها وطيبها.

(٤) يعلم القارئ من «رسائل الأحران» أن الحبيبة شاعرة روحانية تسمو هي وصاحبها بالحب فوق المادة، ولا يريدان إلا وحي النفس الجميلة للنفس الجميلة.



ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها فقال لها:
وضعتها رقيقة نادية فى صدرى ولكن على معان فى القلب كأشواكها...
فاستضحكت وقالت: فإذا كتبت يوماً معانى الأشواك فسمها "أوراق
الورد" وكذلك سماها!

عمر الورد فصل من السنة؛ أما الشوك فعمره ما بقيت الشجرة وما بقى
حطبها، ولذلك ينسى الحبيب ويذهب الحب ويبقى بعدهما القلب العاشق
وليس بينه وبين آلامه إلا كما ذر الضياء بين أول الفجر وآخره الليل فى
مرأى من النور والظلمة يخيل إليك من غبشه^(١) أن الليل ظلام مكفوف
وراء حائط من البلور: فالآلام دائماً بمنزلة من القلب المحب والأشواق
منه أبداً على أسباب؛ ومن أحب مرة فما اهتدى إلى حبيب ينتهى منه
إذا سلاه، وإنما ابتدأ فى جمال هذا الحبيب أشواق الحياة التى لا تنتهى،
وعرف من الحب طريقاً بين الحس والغيب آخره دائماً أول غيره كطريق
السماء لعينك؛ كل مسافة أنت مقدرها فيه تراها قد نيطت بمسافة
أخرى^(٢) إلى ما لا ينتهى ولا ينقطع إذ ليس ذلك اتصالاً بين المسافات
المكونة للأبعاد أكثر مما هو اتصال بين النواميس المكونة للأبدية.

وإلقاء الحب الصحيح فى قلب من خاطره الهوى، معناه إيحاء الفن
إلى صاحب ذلك القلب يفهم به الصورة الشعرية الجميلة التى يلبس منها
الحبيب جماله، فيرى كيف يجيء كل شىء من حبيبه كأنه فى وزن من

(١) الغبش: آخر ظلمة الليل، فيكون بياض الفجر على حدها.
(٢) أى اتصلت بمسافة، إذ هو فضاء ممتد لا تقيم فيه الحدود.

الأوزان، حتى لكأن هذا الشكل المحبوب إن هو إلا لحن موسيقى خلق
إنسانًا يجاوب بعضه بعضه...

... وبذلك يخرج من فهم جمال الحبيب إلى فهم جمال الطبيعة ويدرك
بروحه ما حول كل شيء من الجو الخيالي البديع المحيط به إحاطة الوزن
الشعري بالكلمة والنغمة الموسيقية بالصوت. ومن ذلك ينبثق في نفسه
نور إلهي خالق يفيض على كل جمال في الأرض والسماوات ما يجعل هذا
الجمال من إدراكه أو حسه بسبب قريب، فتشتمل نفسه العاشقة على
آفاق واسعة من جمال الخليقة مادام في نفسه الحب، كما تحيط العين
بالأفق فتحويه مادام في العين البصر!

وتاريخ الحب عند صاحب هذه الرسائل كان كله نظرة أخذت تنمو
وبقيت تنمو.. وهو حب قد كان من نمائه وجماله وطهره كأنما أزهرت
به روضه من الرياض لا امرأة من النساء، وكان من مساعده وحلاوته
ولذاته البريئة كأنما أثمرت به شجرة خضراء تعتصر الحلاوة في أثمارها
أصابع النور فأنت لا تجد في هذه الرسائل معاني النساء متمثلة في امرأة
تتصبى رجلا، ولكن معاني الحب والجمال متألهة في إنسانية تستوحى
من إنسانية أو توحى لها.

وبين الدهر والدهر تخرج الأقدار على طوفان الشهوات الذي يغرق
الإنسانية عاشقًا روحانيًا في طباعه مثل شموخ الجبل العالي وقوته
وتماسكه تأوى إليه صفات الحب السامية يعصمها ويبقيها على ندوها^(١)

(١) أي ندواتها ونضرتها.



ولو فى إنسان واحد كما هى على أصيلها فى جمال الكون. وهذا الإنسان لا يعطى الدنيا إلا من سبيل حرمانه هو، وكأنما يحترق قلبه ليستطع بالنور والدفء على القلوب المظلمة الباردة التى لا يكون الحب فيها إلا خديعة مسولة من الطبيعة بين الجنسين حين تعمد إلى حسابها العجيب فى جعل الاثنين ثلاثة^(١).

وكل الصفات السامية متى نزلت إلى الدهماء والأوشاب وهذا الهمج الهامج فى إنسانية الحياة، نحلوها أسماءً من طباعهم لا من طباعها؛ فاسم الفضيلة عندهم غفلة، والسمو كبرياء، والصبر بلادة، والأنفة حماقة، والروحانية ضعف، والعفة خيبة، والحب اسمه الفسق...!

وصاحب هذه الرسائل يرى فى الحب كأنما وضع على هامش الناس، منطلقاً غير مقيد، عزيزاً غير ذليل؛ فهو كالسطر الذى يكتب على هامش الصفحة يستعرض ماملأها بين أعلاها وأسفلها وله الشرح والتعليق وما فى معناهما، إلى التهكم والضحك والسخرية، ومن ثم فرسائله كذلك على هامش كل رسائل الحب: يتجافى بها عن ألفاظ الشهوات ومعانيها مما يتعمده بعض فحول الكتاب فى أوربا ولا طلاوة لرسائلهم وقصصهم بغيره، إذ هو يشبه أن يكون روح اللحم والدم فى اللغة. ويتوخون التأثير من أقرب الطرق إليه، فيمسون شهوات القراء بالحادثة والوصف والعبارة كما يدر لعاب الجائع على ألفاظ الطعام

(١) كناية عن النسل واستيلاء الاثنين ثالثاً. ومذهب أن الحب خداع من الطبيعة وتسويل بين الذكر والأنثى لإيجاد النسل: مذهب صحيح، ولكن فى الطبيعة من يسمو عليها ويقهرها، فلمثل هذا حب آخر ومذهب غير ذلك.



وأوصافه ورائحته... وإنما نحن نرى أن لحياة الحب- حين يكون حبًا صحيحًا- واقعًا غير الواقع في هذه الحياة، وأوهامًا غير أوهامها، وحقائق غير حقائقها، فلا بد لها من كلام يلائمها في المعنى الطائف بين القلب والروح يكون أشبه بكلام النية الصادقة لو نطقت في لسان، وبكتابة الضمير المخلص لو كتب في قلم.

والحب الصحيح إذا سلمت فيه دواعي الصدر^(١) واعتدلت به نوازي الكبد^(٢)، وتوثق فيه عقد النية^(٣)، واستوعى غيبه ومشهده^(٤) كان أشبه بقوة سماوية تعمل عملها لتبدع من الإنسانية شعراً أسمى من حقائقها؛ كما كانت الإنسانية نفسها قوة عملت أعمالها لتبدع من حقائق الطبيعة أخيله أجمل من مادتها. فشعرَ العقل تخلقه الإنسانية من الطبيعة بالعلم، وشعرَ القلب يخلقه الحب من الإنسانية بالجمال؛ ومن ثم فالحب كالطبقة بين الإنسانية والإلهية، أفلا تراه يأبى حين يكون إلا أن يكون وحده هو الحق الذي ليس له في البشرية فوق فليس في البشرية ما يوضع فوقه، حتى كل ما عدها من الحقوق والواجبات فهو من بعده في الموضع والمنزلة؟

الحب الصحيح ليس له فوق، ولا يشبهه من هذه الناحية إلا الإرادة الصحيحة فليس لها وراء ولا يمين ولا شمال، وما هي إلا أن تمضي أمام

أمام.

(١) كناية عن أسباب المودة وأغراضها.

(٢) كناية عن مواد الشهوات فلا تطير فيه حماقاتها.

(٣) كناية عما تربط عليه القلب، فتحت كل حب نية آئمة أو بريئة.

(٤) كناية عن الحب للحب لا لغاية أخرى، فهو في غياب الحبيب مثله في حضوره.



إنك لا ترى في هذه الرسائل ما ينزع به الكلام ذلك المنزع الذي أشرنا إليه آنفاً، ولا ما يتوسع به كتاب أوروبا من الحشو الذي يوجه على عِلل مختلفة بين التاريخ والاجتماع وما إليهما، ولا ما يقحمونه في رسائلهم من كلامٍ نازلٍ كالكلام الذي يتراجعه العامة^(١)، فإن كتابنا خالص للجمال بذاته، واقع من الحب في خاص معانيه، ولقد كانت حوادث صاحبنا في حبه كالسحب الرقيقة في سماواتها، عمر ساعة من الشفق، وتأتي وعليها ألوانها الإلهية أصبغاً واقعة كما تتفق، ثم لا يكون الجمال والتناسب مع ذلك إلا كما تتفق، فكذلك نشأت رسائله من وحي القلب وروحانيته، وتموج بمعانيها وتبرج في معارضها ولعمري فمن كتب في الحب والجمال بقلم نقد كتب صاحب هذه الرسائل بقلبٍ ليو تحيا الابتسامة والدمعة لكاتب سرور ذلك الحب وحزنه كما وقع في حياة الكاتب وأيامه من صاحبه، فهما لا يتجاوزان البث والتشاجي، وتباريح الصباية وتسليم الابتسامة على الابتسامة، ومغاضبة الدمعة للدمعة ولكليهما من روح صاحبه داع ومجيب. وعلى ما طال بينهما من زمن الحب فهى كأنها لم تزد له على أن سحبت مسح الغزال وولت...

وكان القدر ينقى حوادث هذا الغرام كما تنقى المدرة من الحب^(٢) بأصابع دقيقة تحت عينين مبصرتين؛ فكانت النفس فيه مع جمحاتها

(١) بكثرة الأوروبيون في رسائلهم الغرامية من سوقيات مبتذلة، كأن الحب حادثة يومية يراد تعيينها بمكانها ووقتها واسم شارعها

(٢) المدرة: النظير اليابس يكون في حب القمح ونحوه.



كالفرس تترامى فى عنانها مخلى لها الطريق، ولكن أمر الطريق لها ونهيه
فى العنان الذى يُلجمها وظلمات الحب فى بعض النفوس المختارة
كظلمات الليل فى بعض الليالى: هذه لها القمر وتلك لها الفضيلة.

وما أحسب حب هذا الشاعر وتلك الشاعرة قد كان فى كل حوادثه
إلا تأليفاً من الأقدار لهذه الرسائل بمعانيها، حتى إذا كسيت المعانى
ألفاظها، انبثقت كالنور وصدحت كالنغم وجاءت كإشراق الضحى لتناسم
الارواح^(١) بعبارات صافية من روح قوية فرض عليها أن تحب، فلما أحبت
فرض عليها أن تتألم فلما تألمت فرض عليها أن تعبر؛ فلما عبرت فرض
عليها أن تسلو...!

مصطفى صادق الرافعى



(١) المناسبة: كناية عن قرب المتكلمين أحدهما من الآخر ورقة كلامهما، كأن أنفاس كليهما نسيم
يتصل بعضه ببعضه ولذا تقال فى حديث الصاحب للصاحب.

وزدت أنك أنت

تالله لو جددوا للبدر تسميةً لأعطى اسمك يا مَنْ تُعَشِّقُ المَقْلُ^(١)
كلًّا كما الحسنُ فتانًا بِصُورَتِهِ وزدت أنك أنت الحبُّ والعزْلُ
وزدت يا حبيبي أنك أنت...

إن حقيقة الجمال الذي يغمر العالم أراها كأنها بجملتها مستقرة في
الموضع الضيق الذي بينك وبين قلبي، تملأ مع هذا الكون عالماً آخر من
شعوري بك وفي نظرات عينيك الساحرتين أرى لمحات منبثة من الإرادة
المسيطرة وراء الأشياء، تفعلُ مثل فعلها الجبار وراء عواطفى.
واليقين الذى دليله الإيمانُ والتسليم، أحسه إحساسًا فى نظرى إليك
وفى نظرك إلى، كأنى أتحول معك إلى إقرار.

والمعنى العجيب الذى يفتن فتنة درية اللؤلؤة الثمينة، ويسحر سحرًا
نورانيًا فى الماسة الكريمة النادرة، هو بفتنته وسحره فى نسويتك
الجذابة، غير أنه اتخذ من أشياء الطبيعة أبداع ما ينظر فيه، واتخذ منك
أنت أجمل ما يعقل فيه.

وما رأيته مرة إلا خيلت لى أن بعض النواميس المادية القاهرة فى

(١) كل ما يأتى فى هذه الرسائل من الشعر فهو منها، أى لكتابتها لا لغيره.



هذا الوجود قد تحولت إنسانية فيك، وكأن القوى مبعثرة هناك ومنظمة هنا، وكأنك منها تقييد منطلق، واجتماع متفرق، وكأن ما حدّ له رأيك له حدًا فوقف وظهرا!

ولو ولد النور لكان وجهك الجميل المشرق، ولو ولدت الكهرباء التي هي سر النور لكانت أسرار عينيك، ولو تولدت القوة التي هي سر الكهرباء لكانت فتنّة حيك، وكل المعانى التي فى نفسى لا تتخذ صورها إلا منك لأنك بجملتك تمثال الشعر.

وفيك المعانى التي تقول: أين كلماتي؟

وفى أنا الكلمات التي تقول: أنت معانى!

فى نفسى عالم أحلام من خلق عينيك الذابلتين.

وفى نفسك عالم أسرار من خلق أفكارى المعذبة.

خرجنا كلانا بالحب والجمال من حد الإنسان إلى حد العالم.

وتحولنا كلانا بالهوى من حالة شخص إلى حالة عقل.

كيف تجدين مافى وإنك لتعلمين أنك فى؟

أما أنا فأجد كل مافيك حلواً لأن طعمه حلو فى قلبى!

وعندما أنظر ازدهاء الشفق بألوانه وأصباغه كأنه صورة جديدة فى

الخلق عرضت ليراهها أهل الأرض، أحسبني على مرمى السهم من جنة فى

السماء فتحت أبوابها ولاحت أطراف أشجارها.

وعندما أتأمل انبثاق الفجر، يخيل إلى من جماله وروعته أن الوجود

فى سكونه وخشوعه نفس كبرى تستمع مصغية إلى كلمة من كلمات الله

لم تجيء فى صوت ولكن فى نور.



وعندما أبصرك أنت، أوقن أن الحسن المعشوق ما هو إلا خيال الجنة
الأخروية يناله من الدنيا إنسان فى إنسان!

أنت وحدك أذقتنى نشوة الظمأ إلى الأسرار القلبية، بما ذقته من
لذة ظمئى إليك ولهفته. وأريتنى جمال الشعر فى خيالاتى العطشى
الحائمة أبداً على نهر النور من جسمك، وعلى ذلك النبع الأحمر الصغير،
نبع الياقوت المتفجر دائماً بابتسام شفتيك، وجعلتنى من وحي جمالك
المتنزل على قلبى أشعر أن هذا الجمال السماوى أنشأ فى صفة ملائكية
ترفعنى فوق إنسانى.

بهذه الصفة أراك فى بعض ساعات قلبى تظهري لى وكأن سرّاً من
الكون يتجلى بك ويقول لى من عينيك: المسنى وانظرنى فيها...!
سرّ هادئ ناعم يتناثر فى ألحاظك أليّن من تنفس رشاش الأمواج
المتطاير إلى بعيد: يكون كالهباء من البحر ومع ذلك فهو أثر قوته
وجبروته.

فيك يا حبيبتى من أبداع محاسن الكون، وزدت أنك أنت الحب...!



زُجَاجَةُ العِطْرِ

”وأهدى إليها مرة زجاجة من العطر الثمين وكتب معها“:

يا زجاجة العطر، اذهبي إليها، وتعطري بمسّ يديها وكوني رسالة
قلبي لديها.

وهأنذا أنثر القبلات على جوانبك؛ فمتى لمستك فضعى قبلتى على
بنانها، وألقيها خفية ظاهرة في مثل حنوّ نظرتها وحنانها، وألمسيها من
تلك القبلات معانى أفراحها في قلبي ومعانى أشجانها.

وهأنذا أصافحك، فمتى أخذتك في يدها فكوني لمسة الأشواق
وهأنذا أضمك إلى قلبي، فمتى فتحتك فانثري عليها في معانى العطر
لمسات العناق.

إنها الحبيبة يا زجاجة العطر! وما أنت كسواك من كل زجاجة ملئت
سائلا، ولا هي كسواها من كل امرأة ملئت حسنا؛ وكما افتنت الصناعة في
إبداعك واستخراجك، افتنت الحياة في جمالها وفتنتها، حتى لأحسب
أسرار الحياة في غيرها من النساء تعمل بطبيعة وقانون، وفيها وحدها
تعمل بفن وظرف.

وأنت سبيكة عطر. كل موضع منك يارُج ويتوهج، وهي سبيكة جمال،
كل موضع فيها يستبى ويتصبى!

وما ظهرت معانيك إلا أفعمت الهواء من حولك بالشذا، ولا ظهرت معانيها إلا أفعمت القلوب من حولها بالحب.

وكلتا كما لا يمس أحد منها مسة إلا تلبس بها فلا يستطيع أن يخلص منها، ولا يستوى له أن يخلص منها^(١).

أنت عندي أجمل أنثى فى الطيب^(٢) من بنات الزهر، وهى عندي أجمل أنثى فى الحب من بنات آدم.

قولى لها يازجاجة العطر، إنك خرجت من أزهار كأنها شعل نباتية، وكانت فى الرياض على فروعها كأنما تجسمت من أشعة الشمس والقمر؛ فلما ابتعتك وصرت فى يدي، خرجت من شعل غرامية وأصبحت كأنما تجسمت من أشواقى وتحياتى ولمسات فكرى، ولذلك أهديتك...

وقولى لها: إن شوق الأرواح العاشقة يحتاج دائماً إلى تعبير جميل كجمالها، بليغ كبلاغتها، ينفذ إلى قلب الحبيب بقوة الحياة سواء رضى أو لم يرض، وهذا الشوق النافذ كان الأصل الذى من أجله خلق العطر فى الطبيعة. فحينما تسكب الجميلة قطرة من الطيب على جسمها تنسكب فى هذا الجسم أشواق وأشواق من حيث تدرى ولا تدرى، ولذلك بعثتك...

وقولى لها: إنك اتساق بين الجمال والحب، فحين تهدي زجاجة العطر من محب إلى حبيبة فإنما هو يهدى إليها الوسيلة التى تخلق حول جسمها الجميل الفاتن جو قلبه العاشق المفتون. ولو تجسم هذا المعنى حينئذ فتمثل فنظره ناظر، لرآها هى محاطة بشخص أثيرى ذائب من

(١) من مس الطيب علق به، شاء أم أبى، كذلك هى: كأن لجمالها عطرا؛

(٢) من أعجب وأغرب ما فى اللغة العربية، أنهم يقولون (ذكور الطيب) لما يصلح للرجال دون النساء من أنواع الطيب: كالمسك والغالية، فاستخرجنا نحن منها (إناث الطيب) لما يهدى إلى الحبيبة خاصة، وذلك كله من دقة اللغة العربية متى لا تجد نظيراً فى لغة غيرها.



الهُوى واللوعة يفور حولها فى الجو ويسطع^(١) ولذلك يا زجاجة العطر
أرسلتك...

أيها العطر! كانت أزهارك فكرة من فن الحسن توثبت وطافت زمناً
على مظاهر الكون الجميلة، كى تعود آخرًا فتكون من فن الحب وفى ذلك
مازجت الماء العذب، ولا مست أضواء القمر والنجوم، وخالطت أشعة
الشمس، واغتسلت بمائة فجر منذ غرسها إلى إزهارها، لتصلح بعد ذلك
أن يمس عطرها جسم الحبيبة ويكون رسالة حبي إليها!

أيها العطر! لقد خرجت من أزهار جميلة، وستعلم حين تسكبك هى
على جسمها الفاتن أنك رجعت إلى أجمل من أزهارك، وأنت، كالمؤمنين
تركوا الدنيا ولكنهم نالوا الجنة ونعيمها...!



(١) فوران الطيب وسطوعه وتوجهه وتوقده: كل ذلك حدة رائحته وذكاؤها قوتها مع فروق بينها
دقيقة لمن يذوق البيان.

ما نفع رقة روحى؟

يا مَنْ لنضو طريحٍ مُجمع من خُطامٍ^(١)
بقيةً من سلو على بقايا غرام
وقطعة من جفاء فى قطعة من سلام
أضىء كالنجم لكن فى وحدة وظلام
وما أكابد نازًا يرّؤه نورًا أمامى
ما نفع رقة روحى تندى كطلّ الغمام
وكلُّ ما هو حولى كحلق عطشان ظامى؟
يا واصلا بالمعانى وهاجرى فى الكلام
مخاصمى فى نهارى مُصالحى فى منامى
من العبوس كلامٌ معناه معنى ابتسام
ولن يُغير جسم الوداد ثوبُ الخصام
ما نفع رقة روحى تندى كطلّ الغمام
وكل ما هو حولى كحلق عطشان ظامى؟

(١) النضو: التحيل المهزول، والطريح: الذى أضجعه المرض، والحطام: ما تكسر أو تحطم.



رسم الحبيبة

”ولما أهدت إليه رسمها كتب إليها:“

كنتُ ساعة أجلس للكتابة إليك، أراى كالمصور، غيرَ أنى أنقل من عالم فى داخلى؛ أما الآن ورسمك يملأ عيني، فقد أضيف إلى عالمى المضطرب بأخيلته الكثيرة عالم من الجمال الصافى، وهو فوق ذلك كالسمااء فوق الأرض: تحييبها بالشمس والقمر، وهو من وراء ذلك كالآخرة وراء الدنيا: تطمعها بالجنة والخلد.

ولكدت والله يا حبيبتى أتخيل هذا الرق^(١) الموضوع أمامى يبرقُ بصورتك ويشرق بوجهك. نافذة سحرية فتحت بينى وبين عالم الجمال الأزلى فأطل فيها وجه حوراء من حُور الجنة ينظر إلى وأنظر إليه، يحمله جسم خلق ليكون فتنة للجنة ذاتها، وكأنه بجماله ومعانيه حقائق ذلك النعيم جاءت تترجم لذة الخلود للنفس البشرية فى بلاغة مصورة اختاروا لها رسمك أنت.

وهل فى الحسن أحسن من هذا الوجه الذى يرف على القلب بأندائه ويتلألاً بنضرته، حتى لكأنه خلق من نور الفجر وكأن علامة الفجر فيه إنما هى هذا الروح الذى يحيط القلب من وجهك بمعانٍ كنسمات الصبح،

(١) الرق: كلمة استعملناها لهذا الورق المقوى الذى تكون عليه الصورة الفوتغرافية.

عليلة من شدة الرقة، ذابلة من فرط الجمال، مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور حتى فرح لا نسمات في الجو. وجه منضر يفزع لروعة حسنه من يراه، كأن شيئًا بدعًا لم يكن ممكنًا فأمكن! أو كأن في حمرة خديه وشفتيه خمر القلب رؤيتها شزبها، وفيها السكر بالجمال والنشوة بالهوى، فما هو إلا أن ينظر وجهك الناظر حتى يخالط قلبه.

وعلى ما رأيت هذا الوجه الفاتن، فما رأيت من مرة إلا حسبتها أول مرة، وكانت معه لنفسى جمحاتها الأولى، كأن الحب الذي بدأ في أول نظراتي إليه يبدأ في كل نظرة إليه بدءًا جديدًا؛ وأرى أجمل الوجوه يخاطب في حاسة الاعجاب ولا يعدو هذه العاطفة، وأرى وجهك أنت يبلغ منى القصوى ويأخذ بقلبي كله ويستولى على جملة ما في إنسانيتي. وإنى لألمح فيه سرًا عجيبيًا يكون فقدان العبارة عنده هو أبلغ العبارة في وصفه، إذ لا تتكلم روعة الحس بالجمال، وهي تنزل في صور الألفاظ، وإنما تغمز على القلب غمزة خافتة تشعر الناظر أن روح المنظر خامرت الروح وأن حياة الشكل انسكبت في الحياة، وأن المعنى الغامض في السر اتصل بالمعنى الغامض في النفس.

ويمثل هذا السر الذي يطالعنى من جمال وجهك أصبح الجمال على الحقيقة هو علم أفراح النفس وأحزانها، وعاد الشخص الجميل المعشوق وما هو بكل معانيه إلا الفن الفلسفى الكامل أتيح لنفس أخرى تحاول بالحب أن تكون كاملة.

ومن هذا السر يظل وجه الحبيب جديدًا على كل نظرة من محبة وإن طال ترداد النظر وتكراره، كأن الوقت لا يمضى معه كما يمضى مع



الأشياء، وكان الحبّ أبدية على قدر ما تحتل الدنيا، ولذا فهو يضغط على القلب لا بالساعة ولا باليوم، بل يجثم بقطعه ضخمة من الزمن كأنها عمر كامل فرحها شديد شديد، وحزنها شديد شديد.

سر عجيب فكرت طويلا كيف أسميه فلم يستولى، وقد جل أن يقع معناه فى كلمة، ولكنى أسميه المعنى المتفرق المجتمع، إذ بجملته ظاهر فى الوجه كله، وهو بحملته أيضًا ظاهر على مقدار ذلك فى كل موضع من قسامات وجهك ومعارفه، كأنه لا أجزاء له ولا جملة كأنه شىء أبدى، كأنه فى وجهك تأله الحب.

ومن بعض هذا السر تلك الابتسامة الواقعة على ثغرك ترق فيها الروح مرة وتتكاثف مرة، حتى كأنها وهى فى الرسم- لون روحى ظهر يتموج على شفطيك فما أقلب فيه عيني إلا شعرت أن روحى تذوب فيه كما يتمازج لوانان فى السماء على الشفق الأحمر.

ومن بعضه هذه النظرة الحية التى تبعث فى كل معنى من معانيك حياة وتخلق منه لعيني فكرة أتلحمها فيه، حتى ليروعنى من أثرك على وأنا انظر إلى رسمك، أنى أتخيل نفسى بجملتها أسئلة وجسمك هذا بجملته أجوبتها!

نظرة ساحرة تجعلنى أرى كل شىء فى رسمك محدودًا، ومع ذلك أراك أنت غير محدودة فى شىء! كأن لك فيضًا من الجمال والسحر يستغرق العالم ويغمر الكون ولا يكتفى بما ينتهى دون مالا ينتهى، أو كأنك أنت مجتلى هذا الفيض لعينى؛ وكأنك وسيلة فى اتصال روحى بروح الجمال الأزلى.



وماذا أقول فى هذا الشكل المنسجم المتجاوب من كل نواحيه، إلا أنه القوة الرهيبة ظاهرة فى ملمسها الناعم، والضعف المؤنث الذابل مسلحًا بأسلحة الشهوات والفتنة، والسلطة القادرة اتخذت لها شكل الجمال فيك لتأمر وتنهى فينا.

إنه لجمال أكبر من الجمال، إذ كانت فيه القوة والفتنة والحب جميعًا والجمال وحده من شأنه أن يُعجب، ولكنه فيه يُصبى ويُدله، وبذلك يُعجب ويفتن، وبذلك يتسلط مسوغًا الحق، وبذلك لا تكون له إلا الطاعة؛ لا أرى غير هذا الشكل يأخذ بقلبي، ولكن أين أجد الكلام يستوعب كل ما فى قلبى لأعطى كل معانيك الصوت واللغة؟

وكيف لى أن أزعم أنى وصفت التى تمتاز على الشمس والقمر بأن فيهما النور وحده وفى وجهها النور الحى؟



البلاغة تنتهد

تقولين فى رسالتك أيتها العزيزة^(١):

"لقد كنتُ أحسب فيما حسبت بعد أن طوحت بنا النوى^(٢) وضرب الدهر هذه الضربة بيننا- أن سعادة الفكر المتصل بى منك والمتصل بك منى تخفف عنى بعض ما أجد فتنتقل خفقة قلب إلى قلب، وترسل لمحة نفس إلى نفس، وتعطى العمر ولو عمر ساعة من غير هذا الزمن، فأقطع إليك هذه المسافة المتراخية^(٣) بقوة كقوة الأحلام: لا تدع فى الكون أبعادًا ولا مسافة بل تحويه كما تحوى المرآة الصورة التى تقابلها: تتراعى فإذا هى مرسومة كما هى منظورة، ولكن يا أسفاه! لقد أرنتى الحقيقة أن الحياة مادة، وأن هذه المعانى المحبوبة التى نحفظها ممن نحبهم لا تزال تنازع دائمًا إلى أشخاصها المحبوبين ليخففوا من لوعتها- أو قل ليزيدوا فى لوعتها- فإن الحب هو الطرف الشاذ الذى لم يُعرف له وسط، فإن لم يكن زاهبًا إلى الزيادة مطردًا بها، كان غيرَ شك منحدراً إلى النقص مستمرًا فيه.

الحياة مادة يا صديقى، فإذا أنا لم أقل كلمة وأسمع ردها، أو أخط سطرًا وأقرأ مثله، أو أرسل نظرة وأتلقى جوابها، فإن الفكر الذى يسعدنى

(١) هذه كانت أول رسالة منها وهى فى مكان بعيد، حينما أحسنت أن صاحبها يريد كتابتها وفلسفتها ليضع رسائله. قلت: هى صاحبة حديث القمر التى عرفها فى ربوة من لبنان منذ بضع عشرة سنة؛

(٢) أى رمانا الفراق فى ناحيتين

(٣) البعيدة الممتدة.



فى كل شىء هو نفسه الذى يعذبنى حينئذ بأحب الناس إلى، يعذبنى بك
حين لا أراك.

أما والله ياعزيزتى إن فى دون هذا للبلاغة كل البلاغة، فكلامك
بيان كإشراق الضحى، وهو مثلك فوق وصف الواصف، وإن فىك لمنيع
سحر كالنهار الذى ينبغ من شمس، فلا تخط أناملك سطرًا إلا تضوأت فيه
الحياة^(١)، ولا أقرأ لك لفظًا تكتبينه إلا بمعنى منه ومعنى منك.
بل لا أراك تجمعين ضميرى وضميرك معك فى كلمة^(٢) إلا أحسست أنه
لقاء بيننا فى لفظ...

وإن كتابك ليأتينى وكأنه صفحة مرآة مسحورة بسر من أسرار الحياة:
لا تلبث عيني أن تدور فيها دورة فإذا أنت ماثلة وإذ أنا لا أقرأ كلامك بل
أقرأ وجهك!

ولما طلعت لى فى هذه الكتاب، ألقىت نفسى من شفتى على شفتيك
وما أسرع ما نبهنى مس الصحيفة، فنظرت فإذا أنا أقبل كلمتك البديعة:
إن الحياة مادة...

كنت أعرف أن اللغة موضوعة لكل أهلها، شائعة فى ألسنتهم جميعًا،
وقد خلقت من قبل أن يخلقوا، وتركها الأول للآخر، ولكن بلاغتك التى
يتהלل بعضها تهلل جبينك، ويستحى بعضها إستحياء خديك ويفتر
بعضها افترار شفتيك، وتأتى مفتنة ناعمة كأنها جسم بديع ناضج للحب-
قد جعلتنى أعرف أن الكلمة التى يلقيها حبيب إلى محبه تأتى وكأنها لغة

(١) توهجت وأشعت واستارت.

(٢) كقولها مثلاً: يعذبنى بك، فجمعت ضميرها- وهو الباء- بضميره- وهو الكاف ولا غرو أن يكون هذا
فى جنون الحب لقاء أو وصلاً وهذا المعنى دقيق جداً كما ترى.



مخلوقة لساعاتها إذ ينتزع منها المحب صورًا لا يراها في مثلها من كلام الناس، ويصيب لها في نفسه معاني لا تكون لها في ذات نفسها، ويرأها مبتدعة له ابتداءً غريبًا على نسق حى، فما ألقيت كلمة بين حبيبين إلا جاءت وهى تتنهد أو تبكى أو تضحك أو تتوجع أو تنظر إلى معنى من المعانى بينهما، إذ لا بد أن تضرب على القلبين أحدهما أو كليهما.

إن الكلام فى نفسه وسيلة من ورسائل الفهم، فهو لغة، ولكنه فى الحب وسيلة الجذب، فهو قوة، واللغة من بعض أدوات الحياة: أما لغة الحب خاصة فالحياة من بعض أدواتها.

لهذا يا عزيزتى لا تكون الحياة فى الحب إلا مادة: وإن النفس قد تجوع وتأكل من جوعها، إذ تخلق يرادتها من الجوع أكلا فتشبع شعبًا معنويًا يلائمها كما جاءت ذلك الجوع الذى يلائمها: كنفس الذى قنع بالفقر وهو محتاج إلى الغنى والذى صبر على المرض وهو فقير إلى العافية، ويطردها القياس فى كل أغراض الحياة، إلا فى الحب، فإن جوع النفس العاشقة يقتلها قتلا، إذ لا غذاء لها من شىء فى الوجود كله إلا ممن تحب. ليس الحى منقطعًا من الوجود، بل هو منه لأنه فيه، ويكاد كل شىء يقول له: يا ابنى، أو يا أبى أو يا أختى، أو نحوها، فهذه الوشيجة بين الحى والموجودات كلها، هى قرابة العقل المسماة بالمعرفة، وصلته (بخصائص) الوجود فى طائفة من الأحياء أو الموجودات، هى قرابة النفس المسماة بالصدافة، وشابكتها (بأخص الخصائص) فى حى واحد يجمع كل ذلك ويزيد ولا يزال يزيد، هى قرابة القلب المسماة بالحب.

نعم، وإن الحب ليكاد يكون معنى كبر فى السن والقيمة والعقل من ذلك المعنى الطفلى الذى يندمج بالأم والابن معًا فى الوجود والعاطفة،

فإذا كانت الأمومة هي التي تلد حقيقة الحياة بمعانيها الواقعة، فإن الحب وحده هو الذي يلد الحياة بشعرها ومجازها ومعانيها الخيالية الجميلة، ومن ثم لم يكن الحب رحماً، وهو أشد منها صلة وأوقع في القلب، ولم يكن نسباً، وهو فوق النسب، ولم يكن دماً من دم، وهو أشد ما عُرف من حنين الدم للدم.

ولقد يكون في الدنيا ما يغني الواحد من الناس عن أهل الأرض كافة، ولكن الدنيا بما وسعت لا يمكن أبداً أن تغني محباً عن الواحد الذي يحبه. هذا "الواحد" له "حساب" عجيب غير حساب العقل، فإن الواحد في الحساب العقلي: أول العدد، أما في الحساب القلبي فهو أول العدد وآخره، ليس بعده آخر إذ ليس معه آخر.

والحياة في كل موضع - يا حبيبتي - هي كما تكون في كل موضع وكأنها البحر: ماؤه في أمريكا هو ماؤه في مصر - إلى حيث يكون الحبيب، فهناك مع الحياة شيء غيرها، هناك المادة الخفية القادرة التي تساغ في هذه الحياة لتلونها تلوين الزهرة منفردة بالجمال والعطر من بين أوراق شجرتها، على حين كل أوراق الشجرة مسحة لون واحد.

(الحياة مادة، فأين أنت يا مادة الروح المنسكبة في روحى؟

أضغ في آخر كلماتي سطرًا غير مكتوب. سطر فيه كثير من المعاني المتكلمة من غير كلام!..





رسالة للتمزيق... (١)

وكم حاز عشاقٌ ولا مثلَ حيرتى إذا شئتَ يوماً أن أسوء حبيبي
 وهل لى قلب غير قلبى يسوءه وياخذلى فى الكبرياء نصيبي؟
 ألا ليت لى قليين: قلب بحبه مريض، وقلب بعد ذاك طيبي
 وياليت لى نفسين: من رئم روضة ألوف، ومن ذى لبدتين غضوب
 وكيف بقلب واحد أحمل الهوى عجيبتاً على طبعى وغير عجيب
 فوالله إن الحب خير محاسنى ووالله إن الحب شر عيوبى

هذه رسالة لن أبعث بها، رسالة منى أنا وإلى أنا، أكتبها اليوم لأقرأها غداً، فقد- والله كاد هذا الحب يجعلنى على اختلاف أيامه أشخاصاً مختلفين متناكرين، حتى إنه ليحتاج شخص الغد أن يتعرف ماذا كان خبر شخص الأمس.

أكتبها لنفسى، ومتى تنفس غد هذا اليوم النحاسى^(١) من فجره الذهبى وأخذت تتسلى هموم يوم فى يوم آخر، وضربت موجة من الزمن موجة أخرى فهزمتها إلى الساحل الذى تموت فيه الأمواج، ساحل النسيان

(١) بعد رسالته -البلاغة- تنهدت انقطعت عنه كتبها زمناً بحكم الدلال أو كأنها تستغفر بالسكوت مما خطته... فكتب هذه الرسالة.

(٢) كأنه نحاس لرخص حوادثه، إذ كان يوم هجر، ولا ذهب ولا فضة فى أيام الحب إلا من الحبيب نفسه دون ما فى الدنيا.



المحيط ببحر الحوادث، لتتكسر عليه أمواجها العاتية ضربة ضربة، ثم تنسحق وتتلاشى. فحينئذ أقرأ فى رسالتى هذه تاريخ الألم الذى بلغ منى الغيظ ودك أطوادًا شامخة من الصبر كنت ألوذ بها فى رمضاء الحب، حتى عادت ظلامًا كظلال الحصى لا تفىء إليها النملة...

وأقرؤها ثم أمزقها من سطرها الأعلى إلى سطرها الأسفل ثم أنحى عليها من كل جهة تقطيعًا حتى أدعها مزقًا بعدد كلماتها، ثم أبسط بها كفى إلى الريح وأقول لها: أيتها الريح التى لا يستطيع أن يرد هبوبها أحد ولا أن يلويها عن وجهها، إن هذا كله ريش طائر من طيور الحب ذبحه الهجر فخذيه إلى حيث لا تلتقى واحدة بواحدة، وانثريه فى أمكنة منسية، فإنك تبعثرين به خفقات هذا القلب الذى يحاول أن ينسى!

وأها لحوادث الحب، كأنما هى تقع لتغير من الحياة فى أيام قليلة ما يغير العمر الممتد فى سنوات متطاولة. سل الشيخ الفانى الذى أوفى على المائة فأصبح عمره فى الإنسانية صفرين إلى عود^(١).. سله: من أنت؟ يقل لك. أنا الذى كنت أنا من أربعين! بل خمسين بل ستين سنة... وسل المحب الذى أضناه الحب. من أنت؟ يقل لك أنا الذى كان هو من شهر أو شهرين أو ثلاثة!... وسلنى أنا فى هذا الهجر لا بل دعها هى تسألنى...

ألا إن شر الحوادث هى تلك التى تنزل بنا فلا نعرف منها إلا أننا كنا نعيش من قبلها، وتتقدم الحياة يومًا بعد يوم، ولكن الحى جامد فى مكانه من الزمن على ألم يتوجع له ما يبرح أو ذكرى يحن إليها ما يزال! أنا منذ شهر أرقب منها كتابًا ولا يأتى كتابها، ففى كل يوم غضب

(١) المائة هكذا (١٠٠) والشيخ الفانى كالعود من العظم.



على إثارة قلبه^(١). وكنت أرى أن الحب هو الطريقة التي يعثر بها الإنسان على روحه وهو مغشى بماديته، فيكون كأنه فى الخلد وهو بعد فى الدنيا وأكدارها، فأصبحت أرى الحب كأنه طريقة يفقد بها الإنسان روحه قبل الموت، فيعود كأنه ضارب غمرة^(٢) من الحميم وهو قازٍ فى نسيم الدنيا! ليس لى واللّه من شدة حبى إياها إلا أن أبغضها وأتجهمها بالكلام النافر الغليظ وأقول لها... نعم أقول لها ثم أقول لها: قبح اللّه الحب إن كان مثل وجدى بك: لا يؤتى الحياة جمالها إلا يسلبها حريرتها واستقرارها معًا! وأقول لها، ثم أقول لها: لقد اوقعتنى من حبك وهجرتك بين الشرّ والذى هو شرٌّ منه... وأقول لها أيضًا: لقد يكون ما نراه من حب المرأة الجميلة فنظنه ابدع ما تحسنه من الرقة والظرف، هو ابدع ما تتقنه من صناعة الكذب بوجهها!...

ولكن هل تصدق شيئًا من هذا وهى تعلم من فلسفتها ومن غرائزها ان إرادة البغض إنما هى أقوى دليل على وجود الحب، وهى التى قالت لى ذات يوم: إن ازدرأ رجل محب لامرأة يحبها هو حب جديد! يا ويحى، ماذا اصنع؟.

إن سكث علمت علم السكوت. وقالت: محب يأكلُ الغيظ من قلبه، وإن غضبت لم يفتها معنى الغضب، وقالت: محب يلتمس أسباب الرضا وإن زعمت السلوة كان الزعم من حجتها وقالت: محب يصور قلبه غير تصويره!

(١) أى على غضب كان قلبه.

(٢) أى ملق بنفسه فى مزدهم وشدة.

ياويحي! كيف؟

أيمكننى أن أنزل هذه الصورة الفاتنة من مكانها، وقد أرادت المقادير أن تزخرف بها غرفة الأحلام فى نفسى فجعلتها فى صدرها، لأنها من زينة الله التى أخرجها لى ولم يجتمع ما أحبه من الجمال فى امرأة إلا فيها؟

وهل على الحب خيار؟ أم هو الجمال الأزلى يستعلن لكل إنسان بالوسيلة التى توافق مزاجه وتلائم تركيب نفسه على قدر ما يلائمه وعلى أحسن ما يلائمه، فأتى الحب متخذًا من الشكل المحبوب وسيلته فلا يكون أكمل ولا أجمل عند كل عاشق من معشوقه، إذا هو ليس إلا الصورة التى تتراعى فيها خصائص الجمال العلوى للخصائص التى فى روح العاشق وطباعه فتتصل بها من الجهة التى تنفذ منها إلى خالصة قلبه وداخلة روحه^(١).

أنا لن أن أبغضها إلا أن تسىء إلى أكبر من إساءة دلالتها، بل إساءة تضعها فى دمي، دمي الحر الجياش المتحدر إلى من أقصى تاريخ المكارم.

إنى لمن أولئك الذين يعرفون أن لهم عروفاً سماوية فى أرواحهم

(١) كأن فى كل إنسان جهة خاصة لا يمكن أن يشعر بجمال العالم إلا منها، فيختار الجمال الشكل الذى تلائم خصائصه هذه الجهة. وقد يكون الشكل سخيلاً أو قبيحاً عند الناس، ولكنه طلعة الشمس والقمرة عند محبه، إذ هو فى الحقيقة ذلك الجمال نفسه الذى يتجلى فى أجمل مخلوق، ولكن بالتركيب الذى يلائم نفس إنسان بعينه، كأن الجمال عنصر من الدواء فى يد طبيب حكيم يصفه بمقادير مختلفة فى أشكال مختلفة، ولكن أثره لا يختلف، ومن هنا لابد أن يحب كل إنسان: ولا بد أن تختلف الأذواق والأسباب فى الحب باختلاف الجهات النفسية فى الخلق، ولكن الشعور واحد، والمعنى واحد، والجمال نفسه واحد والطبيعة واحدة وبهذا الذى بيناه تحل مشكلة اختلاف الأذواق فى إدراك الجمال.



تتضرم بالشعاع القدسي الذي كان يومًا في بعض أجدادهم. إما نبوة نبي،
وإما خلافة خليفة، وإما مُلْك مُلْك...

وفي مذهبي أنه إذا اجتمع الأذى والحب في قلب، وجب أن ينصرف
الحب مطرودًا مدحورًا، وليس من ذلك بُد، ولكن، بالله! أين منها الأذى
الممض المؤلم الذي يطرد الحب ويجعلني أبغضها بدمي كما أحببتها
بدمي؟

إن هي إلا هذه الإساءة المبتسمة، إساءة الدلال التي تغضب لتجدد
الرضا؛ وتبعد لتؤتى القرب معنى غير معناه القديم، وتؤلم لتحدث للذة
الحادة التي يمازجها الطرب، وترسل الوحشة إلى القلب كأنها سفير
سياسي يمضى بأسلوب الحرب ليرجع بأسلوب السلم، وتأتى من كل
ذلك ما هي آتية لتجمع عليك من سحر الزمان الذي يهدد الحب، ومع قوة
الحسن قوة الرغبة في لذة الحسن، ومع ثورة القلب عليها ثورة الفكر على
القلب وعليها!.

ليت شعري، أتقوم العاصفة الهوجاء من خطرات مروحة الحبيبة؟
ويقع الزلزال المدمر من رجرجة منديلها في يدها؟ لا أدري ولكن ربما!
ربما!

إن لكل حبيبة خيالًا ساحرًا كأنه خارج من قوى الكون كله لا من قواها
الضعيفة، فما تلمس من شيء إلا سحر به على عين محبها فحوله فيما
شاء الهوى من صور الخيال المعقولة والمستبعدة، والممكنة والمستحيلة!
وكل حبيبة وصاحبها كالوثن وعابده: في أحدهما الحقائق كلها ما دام
في الآخر الوهم كله!

إن المرأة لتكون امرأة وحسب، إلى أن تجد عاشقها، فإذا هي وافقت

منه الحب فقد تألّفت فى قلب إنسان، وصار لها جنتها ونارها ومضى منها الأمر وكأنها عند محبتها تأسر بقوة قادرة على أن تحيى، وتنتهى بقوة قادرة على أن تميت!... وليس ما يصفها به العاشق من فنون الجمال الخيالى وما يفيض عليها من ألوان التعبير المصبوغ- إلا ما تتوهمه العين البشرية من جلال فوق الحس، ويريد الحس أن يصل إليه كأن هناك فى العقائد الإنسانية معضلتين: ما وراء الطبيعة، وما وراء الحبيبة...

كل يوم أقول فى هذه الجميلة القاسية التى أبغضها، أعنى أحبها، أعنى أبغضها... إنها لطريفة إلا حين يجب أن تكون ظريفة... وإن كل محاسنها لا تقن إلا فى مساوٍ بقدرها^(١).

ترى ماذا حبس كتبها عنى؟ أتكلمنى بهذا السكوت؟ إن السكوت للغة أحياناً! أم هى تدعنى أبحث عن كلمتها فى خواطرى وأفكارى لأسر بقدر ما أجد، وأتألم بقدر ما أستطيع؟ أم المحبة قد أخذت تطير إلى النسيان بأجنحة الأنام التى تحمل كل شىء ولا ترجع به؟

إن السكوت من أكبر فضائل المرأة، وقليل ما وفقت إليه، ولعله أشق عليها من كتمان سرها؛ ولكن سكوت الحبيبة عن كلمات الحب هو الرذيلة، الرذيلة التى لا يعدلها فى الغيظ عند محبتها إلا أن تنطق بهذه الكلمات- كلمات الحب- لرجل غيره.

اتفقت لى بالأمس حادثة أوحى إلى بهذه الحكمة: قد يكون أدق خيط من خيوط آمالنا، هو أغلظ حبل من حبال أوهامنا!..
آه آه! ما أرانى عند هذه الكلمة إلا قد انتهيت إلى الموضع الذى يحسنه عنده تمزيق رسالتى، لأقول للريح: خذى ريش طائر الحب المذبوح...

(١) أى لا تظهر محاسنها إن مع مقدارها من المساوى، ولا يريد مساوى الخلق، بل الصد والدلال ونحوهما.

القمر (١)

"وكانت تأنس بضوء القمر ويعجبها نوره على الحديقة خاصة فسألته أن يناجى هذا "الجميل" فى رسالة، فقال: حبًا وكرامة "للقمر"... وكتب".
إنى لأراك أيها القمر منذ علقت معانى ما أرى ولكنى لم أعرف أنك أنت كما أنت إلا بعد أن وضع الحب فيها بينك وبين قلبى وجه من أهواها، كما يوضع التفسير إلى جانب كلمة دقيقة...

عندئذ وصلتك قرابة الجمال بوجهها فاتصل بك شعورى؛ وبت على بعدك فى أفلاك السماء أيضًا فى دائرة قلبى، واستويت متسقًا كأن عملى لى أن تتمم فن جمالها بإظهارها أجمل منك، وأمسيت عندى ولك مثلها شكل السر المبهم المحيط بالنفس المعشوقة: يدخل كل جمال فى تفسيره ولا يكمل تفسيره أبدًا!

ومن شبهك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم والدم فيها. فتكاد أشعثك تقطف منها القبله، ويكاد جوك يساقط من نواحية تنهدات خافته، وتكاد تكون مثلها يا قمر مخلوقًا من الزهر والندى وأنفاس الفجر!

أما قبل حبيها فكنت أراك أيها القمر بنظرات لا تحمل أفكارًا.
كنت جميلًا، ولكن جمال ورق الزهر الأبيض، وكنت فى رقعتك المضيئة

(١) فى كتابنا حديث القمر، تشبيهات كثيرة وأوصاف مختلفة، فانظرها هناك، إذ هى نمط آخر غير ما نجده فى هذه الرسالة.

تشبه النهار مطويًا بعضه على بعض حتى يرجع في قدر المنديل، وكنت ساطعًا في هذه الزرقاء ولكن سطوع المصباح الكهربائي على منارة قائمة في ماء البحر وكنت زينة السماء ولكن كما تناط مرآة صغيرة من البلور إلى حائط فتشبه من صفائها موجة ضوء أمسكت ووضعت في إطار معلق!

وكنت يا قمر... كنت ملء الوجود ولكنك ضائع من فكري!

وأما بعد حبها فأمسيت أراك أيها القمر ولست إلا طابع الله على أسرار الليل في صورة وجه فاتن، كما أن كل وجه معشوق هو طابع الله على أسرار القلب الذي يحبه.

فأنت جميلٌ جمال الجسم البض العاري، تكاد تشبه صدر الحبيبة كشفت أعلاه فظهر في بريق الفضة المجلوة.

وأنت فاتن تحاكي في ضوءك وجهها لولا أنك بلا تعبير.

وأنت ساطع بين النجوم. ولو تجسمت صورة من أجمل ضحكات ثغر معشوق لكانتك ولو تجسمت القبلاث المنتثرة حول هذا الثغر لكانتها! (١)

وأنت زينة السماء، ولكن السماء منك كمرآة سحرية اطلعت فيها حورية من حور الجنة فأمسكت خيال وجهها في لجة من النور، فأنت خيالٌ وجهها!

وأنت يا قمر... أنت ملء الوجود ولكنك أيضًا ملء فن الحب...!

أتذكر أيها القمر إذ طلعت لنا في تلك الحديقة... وتفيأت بنورك عليها فغمرت أرضها وسماءها بروح الخلد، حتى وقع وهمنا أنك وصلتها سحر أشعتك بطرف من أطراف الجنة فهي ناحية منها؟

(١) أي كأن القمر قطعة اجتمعت من أنوار ضحكات ثغر جميل، وانتثرت قبلاث هذا الثغر نجومًا، فكل نجم هو ضوء قبلة.



أتذكر وقد رأيتك ثمة قريبًا من الحبيبة تصب عليها النور حتى خيل إلى أنها إحدى الحور العين متكئة في جنتها على رفرف خضر^(١) وقد وقف لخدمتها قمر؟

أتذكر وقد لمست فكري بضوئك لمسة نورٍ فأظهرتك لي كأنها في جمالها الطاهر شكل ديني وُضع ليكون مثلاً لعبادة القلب الإنساني؟
أتذكر إذ نزلت علينا بآيات سحرك فخيّلت لي أن العالم قد تحول فيها هي إلى صورة جميلة مرئية أمست لي وحدي، فملكك العالم كله في ساعة من حيث لم أملك إلا الحب؟

أتذكر ساعة جئتها بها من فوق الزمن وكان فيها للحديقة جو من زهر، وجو من قمر، وجو من امرأة أجمل من القمر والزهر؟

أتري يا قلبي كأن في الوجود الذي حولنا أنوثة وذكرورة فهو بالقمر تحت الليل يعبر عن نفسه تعبيرًا نسائيًا في منتهى الرقة، لأنه قوى شديد، وفي غاية التفنن. لأنه مشبوب متضرم وفي كمال الدلال لأنه في كمال الإغراء، وفي أقصى الحياء، لأنه يبعث بهذا الحياء فيما حوله أقصى الجرأة؟
تعبيرُ امرأة معشوقة جميلة ترف بأندائها وليس فيها إلا صفات.

وبالشمس على النهار يعبرُ الوجود عن نفسه تعبير رجل مقدام ليس فيه غيرُ القوة والحركة والاندفاع.

تعبيرَ رجل جبار يحمل عزائمته التي يحترق بها وليس فيه إلا صفات النار^(٢).

(١) في صفة أهل الجنة "متكئين على رفرف خضر" وفسرت بالمخاد أو البسط والمراد بها هنا منشورات الروض الخضراء التي تفرش أرضه.

(٢) هذا رأى لنا لم نجد له أحد، فكان من المرأة مظلمة أبدًا كليالي المحاق، ومنها مضيئة ولكن على تفاوت باختلاف الأسباب "ومنها ليلة البدر" وهي الحبيبة عند محبتها: كلها جمال ووحى وضوء ورقة وسحر!

أتري يا قلبى كأن مدينة الحياة فى النهار بصراعها وهمومها تحتاج إلى قفر طبيعى يفر إليه أهل القلوب الرقيقة بضع ساعات، فذلك يخلق لهم القمر صحراء واسعة من الضوء يجدون فيها بعد ذلك المادية الجياشة المصطخبة روحانية الكون وروح العزلة وسكينة الضمير، ويبدو فيها كل ما يقع عليه النور كأنه حى ساكن يفكر؟.

أتري يا قلبى كأن، ضوء القمر صنع صنعة بخصائصها ليبعث فى القلوب معانى القلوب الروحية من الفكر والحب، كما صنع نور الشمس ليبعث فى الأجسام قواها ومعانيها المادية من الحياة والدم؟.

أتري يا قلبى كأن هذا القمر إنما يلقي النور على الحلم الروحانى اللذيذ الغامض الذى يحلم به كل عاشق من أول درس فى الحب، ساعة ترسل الحبيبة إلى قلبه رسالة عنها، ولا يحلم بمثله فى غير العشاق إلا أعظم الفلاسفة، وفى آخر دروس فلسفته، وبعد أن تكون الليالى الطويلة قد أطلعت سماء عمره قمر الشيخوخة من شعره الأبيض؟

أتري يا قلبى كأن، هذا القمر فى الحب (تلسكوب) يكبر نوره العواطف حين تبت فى ضوءه، فلا يطلع على حبيبين أبدًا إلا كبر أحدهما فى عين الآخر؟.

أتري يا قلبى أنه ليس فى الحب إلا عواطف مكبرة يثيرها دائما وجه الحبيب، فلا بد أن يكون دائما وجه الحبيب طالعة فيه روح القمر؟.
أتري يا قلبى...؟ آه... أتري؟.



قال القمر...

يا ليلُ، هيجت أشواقا أداريها فسلّ بها البدرَ: إن البدرَ يدريها
رأى حقيقةً هذا الحس غامضة فجاء يظهرها للناس تشبيها
في صورة من جمال البدر ننظرها وننظر البدر يبدو صورة فيها
يأتي بملء سماء من محاسنه لمهجتي، وأراه ليس يكفيها
وراحة الخلد تأتي في أشعته تبغي على الأرض من في الأرض يبغيها
وكم رسائل تلقيها السماء به للعاشقين، فيأتيهم ويُلقيها
يقول للعاشق المهجور مبتسما: خذني خيالا أتى ممن تسميها
وللذي أبعدته في مطارحها يد النوى، أنا من عينيك أدنيها
وللذي مضه يأس الهوى فسلا: أنظر إلى ولا تترك تمنيتها
أما أنا فأتاني البدرُ مُزدهيّا وقال: جئت بمعنى من معانيها
فقلت من خدها، أم من لواظها أم من تدللها، أم من تأبىها
أم من معاطفها، أم من عواطفها، أم من مرآشفها، أم من مجانيها
أم من تفتريها، أم من تكسرهما أم من تلفتها، أم من تشنيتها؟
كن مثلها لي. جذبًا في دمي وهوى أو كن دللا وكن سحرًا وكن تيتها
فقال وهو حزين: ما استطعت سوى إنى خطفت ابتساما لاح من فيها!...

نظراتها

أكتب إليك يا حبيبتي كتاب عيني، إذ أكتب عن نظرتك السحرية التي أجد لها في قلبي معرض فن كامل من صور المعاني الجميلة فإن نظرية الحب تقع موقعها في العين وحقيقة معناها في القلب، كأختها قبلة الحب: هي في الفم وحلاوة طعمها في الفكر.

أتدريين يا حبيبتي كيف أراك...؟ إن في عيني من أثر حبك ما جعل في نظري قوة خلق معنوي ترينى كل شيء من فوق معانيه، كأنى خلقت فيه جمالا أو معنى، أو خلقت فيه القدرة على أن يسمو في روحى ويرتفع بها فوق ما هو في نفسه وحقيقته، وعلى الجملة فكأنى أسغ الفن على المادة فإذا كل شيء يرى هو نفسي شيء ألبس مجازًا أو استعارة أو نحوهما مما يحقق فيه مع صنع مادته عمل فكرى وخيالى.

في نظرى من أثر حبك حس من الفكرة، فهو نظر وتقدير معًا والأشياء لديه مادة وعبارة سواء، والإدراك به حقيقة وخيال جميعًا، وبكل ذلك فالجمال في نظرى جمال من ناحيتين: حسنه في ذاته، وحسنه في خيالى الذى يجعله اسمى من ذاته.

ولو أردت مثلا أضربه لقلث لك: خذى جمالين في معنى واحد فإنى أنشأت حديقة زهر. ولكى لا أقول لك أنت غرست حديقة بل أقول لك: غرست الفجر.

ومن ذلك يبديع لى الحب فكرة عنك لو هى كانت فى خاطر ملك من



الملائكة مر بها فى السماوات لما زادت ولا ارتفعت عما هى فى نفسى ولو دخل بها الجنة، فى هذه الفكرة وعنك يا حبيبتى الجنس كله بأحسن ما فيه، وبهذه الفكرة أراك وفيك الجمال النسوى كله، فإذا نظرت إلى غيرك لم أر فيها إلا شخصها هى حسبه^(١).

كذلك أراك بحس الشاعر الذى يضيف دائماً إلى الحياة والطبيعة زوائده وفنونه، ولكنى أراك أيضاً بحس الطفولة التى تضيف إليها الحياة والطبيعة دائماً مثل تلك الزوائد والفنون، فما أحسبني رأيتك مرة إلا وكأني رأيت فيك أول أنثى، وكأنما الحب هو بدء الدنيا مرة ثانية من أولها، أى ولادة خيالية: إن لم تولد بها الأشياء فى أشكال جديدة فبالوان جديدة، أى زخرفة الوجود كله ونقشه لعين العاشق بجمال المعشوق، كأن الوجود بيت قد طلى وزخرف ونقش لأنه ستدخله عروس الحب!

وانظري الآن يا حبيبتى صور نظراتك فى قلبى، فإن لها بعثات من ورائها بعثات^(٢)، وفيها المعانى من تحتها المعانى.

فهذه نظرات تمتد تأمر تشعرني قوة سطوتها كأنها تقول: أريد... أريد... ثم لا يرضيها الرضا فكأنها تقول: أريد منك أكثر مما أريد!

ونظرات تجيء تشعر النفس قوة سحرها، فلا تتفتت بها عينك حتى أرى الحياة وقد ملأت وجهك بفن من الأنوثة الساحرة كأنما أبدعته لك خاصة.

ونظرات من عين ساجية ساكنة الطرف كأنها تقول لى: إن نظراتي إليك بعض أفكارى فيك!

(١) حسب، أى فقط، والهاء: هاء السكوت للوقوف على الكلمة.

(٢) أى لها فى نفسه أمارات مما تبعته وتهيجه فى النفس.





ونظرات بتقطع الطرف بينى وبينك فيها كأنها تقول لى أفهمت...؟
ونظرة طويلة صارمة لها سيماء قاض محقق فى عن توكيد لتهمة أو
براءة؛

ونظرات من عين تسأل متجاهلة وقد شطرت بصرها^(١) كأن فيها
فكرين أحدهما يقول أعرفك، والآخر يقول لا أعرفك؛

ونظرات الحبيبة لألأت بعينها^(٢) كأنها تقول لقلبي: أنت جرىء
كالفراشة، ولكن الشعلة المحرقة...!

ونظرات الجميلة المزهوة كأن فيها شيئاً أعلى من أرواحنا يوضح
لمحات من الجمالى الأزلى.

ونظرات الضاحكة اللعوب تنفر وتتدل كأنها تقول لى:

إنها تحس بأفكارى تداعبها وتلمسها؛

ونظرات الخفري الحبيبة التى كأنما تحاول أن تخفى سر قلبي تحت
كسرة طرف ضعيفة.

ونظرات العذراء أو مضت بعينها وسارقت اللحظ^(٣) لأن روحها تريد
أن تقول: إنها للحب متيقظة؛

ونظرات ترنو فى سكون واسترخاء كأنها تقول: إن تعبيرى هو أن
يموت فى التعبير أراها محدجة^(٤) كما تنظر من روعة وفزع حين لافزع
ولا روعة، فأعلم أن الجمال يهاجمنى بسلاح خوفه؛

(١) يقال هذا فى الشخص الذى كأنه ينظر إليك وإلى آخر... فشطر من بصره هنا وشطر هناك

(٢) كما يقول العامة (برقت، وذلك يكون من إعجاب ودهشة.

(٣) أى كأنها تنظر وميضاً ينبعث ويخفى.

(٤) تنظر ملء العين.



هذه نظرة بريئة ولكن فى شكل خاص من البراءة.. لينبعث منها فجأة
معنى ظريف يتماجن ويمكر ويعبث!

وهذه نظرة ناعسة، وكان وراءها فكرًا خطرًا نائمًا تجتهد أن لا ينتبه..!

وهذه نظرة- نظرة واحدة- يقول من يعرف أنساب معانى الحب: إنها
ربما كانت... أخت القبله، فهى قصيرة لا يفتح بها الجفن حتى ينطبق!

وهذه نظرة طويلة قوية فى جذبها، فربما كانت أخت العناق!

وهذه نظرة- نظرة واحدة- يجشع فيها بصرك لأن تهمة لك من عيني
التقت مرة باعتذار لى من عينك.

وهذه نظرة بين المعنيين تحتل كليهما: إساءة الدلال إلى وإحسانه
على!

وهذه نظرة بين اللقائين^(١) تجذب فى قلبى الخوف والأمل بمقدار
واحد.

تلك يا حبيبتي صور نظراتك فى معرض قلبى، وتقابلها هناك الصور
الأخرى التى لا تريد أن أصفها لك، لأنها الصور المسكينة: صور أحلامى..!



(١) لقاء الغضب و لقاء الرضا، فهى فى حالة بينهما لا من هذا ولا ذاك لا عابسة له ولا باشة فى وجهه.

استمداد فلسفة

"وكتب إليها"

جاءنى كتابك، بل جئتنى أنت فى كتابك، فضممت الصحيفة إلى قلبى ضمة عرفتك فيها من خفقات هذا القلب واضطرابه؛ وقبلت الكلمات قبلا شعرت من سحرها فى نفسى أن هذه الألفاظ قد خرجت من فمك الوردى فجاءت عطرًا وحياةً وجمالًا، ونقلت فى الكتاب جؤًا رقيقًا نديًا كان مطيقًا بشفتيك عند كتابتها كأنه نسمة من الفجر حول وردة تتنفس بعطرها الذكى.

كلما قرأت لك شيئًا نفذ إلى روحى بالعطر الذى عطرك الله به. كأن الكلام بيننا أثير تسبح فيه مادة نفسينا؛ ولو كل الجميلات فى العالم لفظن كلمة واحدة ثم لفظتها أنت لكنت أنت وحدك القادرة على أن تصنع روح الجمال وروح الحب وروح المرأة فى تلك الكلمة لأن روحى لا تعرف الجمال والحب والمرأة إلا فىك؛

تريبنى حين أقرأ كتابك بين سحرين تظاهرا من ألفاظك ومعانيك فتجديبنى كالنائم تخلق الذاكرة فى خياله أجسام المعانى المحفوظة لتخرج له من الاسم صاحب الاسم، وترد عليه من الحكاية واقعة الحكاية، وتجرد منه شخصًا لا حقيقة له ينطق فى عالم مسحور ليست له حقيقة. ويألم النائم ويلذ كأنه من اليقظة لم يزل؛



يذكرني هذا بما جادلتك فيه يوماً من أن هناك عالماً معنويًا يخلق مما نساها ونحن ننتقل إليه أحياناً بالنوم، وأن هذا تمثيل لمعنى الخلود أو هو من بعض أدلته، إذ لست أرى الموت إلا رجعة الروح إلى عالم أنشئ لها من أعمالها في رحمة الله ونقمته. فنحن على الأرض نبني لأرواحنا في السماء، ومنا من يبتنى لنفسه المدينة العظيمة بخيراته وحسناته، ومن يبني لروحه السجن الضيق الوعر بآثامه وجرائمه!

مالى أراى قد اندفعت إلى ما وراء الحياة؟ ولكن هل الحب إلا روحانية ترجع بنا إلى ما وراء أنفسنا لتضيف بعض المجهول إلى وجودنا، وتزيد لنا نعيم الدنيا وآلامها ما لا يزيده شيء آخر غير الحب؟،

لو سألتنى من هو العاشق لأجبتك إنه لن يكون عاشقاً إلا من أحس أنه قذف به في الابتسامات والنظرات بمرّة واحدة إلى مهبط السموات، فيشعر أن نعيمه أهناً من نعيم الأرض، وأن عذابه أشد من عذابها، وكأنه إذ يتنعم لم يصب أسباب النعيم، بل أسباب الخلود في الجنة، وإذ يتألم لم يجد مادة الألم بل مادة نارية خالدة على قلبه.

كذلك لا يبدأ الحب إلا من آخر الدنيا، فهو دائماً على طرفها، ولو نصب ميزان الآخرة لعاشق من العشاق المتيمين ووضعت كرة الأرض بكنوزها وممالكها في كفة منه ثم وضع حبيبة في الكفة الأخرى، لرجحت هذه عنده لأن فيها حبيبه وقلبه، وبقيت الأخرى. كأن لم يكن فيها شيء وإن كان فيها المشرق والمغرب!

وأعجب من هذا أننا نجد من الزهاد والمتنسكين من يقطع دهره كله



متعبداً منصرفاً عن الدنيا إلى ما بعدها، جاعلاً لسان حواسه الأرضية^(١) دائماً سماوى اللغة، ثم لا يجد مع هذا النسك وهذه الروحانية من يقول إنه كالملائكة على حين أن الكلمة الأولى التى يقولها العاشق فى وصف حبيبته ساعة يمس قلبه: إنه ملك. وإنه من السماء، وإنه قانون من قوانين القدر، وإنه الوجود كله مختصراً فى نفس إنسانية، والطبيعة كلها ممثلة فى ذات لذات أخرى، وإنه مظهر من مظاهر التقديس لا تحيط به إلا معانى الجلال والعبادة فلا يزال القلب يركع أمامه ويسجد!

أتذكرين أيتها الحبيبة ما قلته لك ذات مرة وقد رأيت كلبك الصغير الجميل كأنه من تراميه عليك ومن معانى نظراته إليك- عاشق يريد أن تفهميه. فقلت لك: إننى أراه يحبك بقوة أحسبها تحاول أن تقلبه إنساناً يحب ويعبد، فإن كان هذا فى الحيوان ولم يزد على معنى الوفاء والأمانة شيئاً، فليت شعرى كيف تصنع هذه القوة فى الإنسان وهى فيه أمانة ثم رغبة زائدة عليها، ووفاء ثم غاية أعلى منه، وحب إنسانى ذاهب إلى طرفه الإلهى، وشيء معلوم ثم شيء مجهول فى المعلوم؟

إنها والله لن تدعه إنساناً أبداً ما دامت لا تدعه فى نفسه آه، آه! ما أرى الحب إلا قوة تخرج النفس وتشيعها فى الوجود كله أو تدخل الوجود كله إلى النفس وتدعه شائعاً فيها، ولهذا فمهما يبلغ من سعة العالم فإنه لن يمتلئ عند المحب إلا بواحد فقط، هو الذى يحبه.

(١) كناية عن الرغبات والشهوات لأنها هى نطق الحواس ولغتها.



أعرف هذا منك أيتها العزيزة لأنى فى هذا البعد أراك فى كل مكان حتى لكأن هذا الوجود كله وَرَقَّةُ تصوير حساسة مصوبة بآلتها إلى قلبى تلتقط رسمك منه وتلقيه على كل شىء صرفت إليه عينى، وهذا- ولا ريب- معنى من معانى اللانهاية فلعل ناموس الحب لم يخلق إلا لتدرك منه الإنسانية ما يقرب لها فكرة مالا ينتهى، فمادة الحبيب الممثلة فى جسمه وتكوينه لا تبنى أبدًا ولا تحصر أبدًا. بل هى تنصب من عينى محبه على كل شىء وملء كل شىء.

الحبيب محدود بعاشقه فقط، وهذا مثال يقرب للعقل كيف يفهم الخلود الذى لا يفنى ولا ينتهى، لأنه أبدا ممتد مع الخالق الأزلى الذى لا ينتهى ولا يفنى.

عذرًا أيتها الحبيبة، فمهما أكتب فلا يزال وراء الكلام ذلك المعنى الدقيق الذى لا يظهره الكلام، وذلك المعنى المعجز الذى هو بلاغة فوق البلاغة، ذلك المعنى الجميل الذى هو أنت...!



صرخة ألم

”وسألته مرة أن يكتب إليها فى أوصاف الألم وفلسفته، قالت: لأن قلبى يجد فىك با أستاذى... من يؤلمه، أعنى يداويه مما يؤلمه؛ فكتب هذه الرسالة والتي بعدها:

وأنا والله يا حبيبتى كسار وقع فى ظلمة مدلهمة تحت ليل كأنه رماد قد هيل على جمرات النجوم فأطفأها. وهو على ذلك يخبط فى قفز أشد وعورة واستغلاقا من جفاء الحبيبة الهاجرة المتعنتة: لا يعرف الطريق الذى يؤدى إليها كأنها ليست فى جهة، ثم بينا هو يعتسف وقد ضل ضلاله شام البرق فحسب الملائكة جاءته من فوق تحمل مصباحا، ولكن ظلام حظه جعل الملائكة أيضًا تطفئ مصباحها وتدعه لما بين يديه... وكذلك أطفأت أنت حتى كلمات الأمل، التى كالبرق تضىء ولا يثبت منها شىء، وتلوح معانيها ثم هى مظلمة من كل معنى. وتركتنى لآلامى كالحنظلة المرة، لو أنك أمسستها قطرات من العسل لما أحلتها ولا بقيت حلوة.

لا.. لا، بل قطرة واحدة من هذه القطرات تجعل حنظلتى كلها يا حبيبتى قرصا من العسل ما دامت منك.

تريدى أن أكتب أوصاف الألم وفلسفته؟ ألا فاعلمى أن أشارك فى هى كتابى إليك... لا.. لا، بل سأتكلم عن أخرى مثلك هى... هى الحياة.



أكثر تكاليف الحياة فى ألمها وتعبها كأكثر أمراض الحياة، فهل من هذا إلا أن كل إنسان مريض ما دام حيًّا- بأنه حى...؟

ونعيش بين الأشياء والمخلوقات، ومنها ما يسرنا كأنه أجزاء فى وجودنا قد زيدت علينا، ومنها ما يؤلمنا كأنه أجزاء قطعت منها فهل يؤخذ من هذا الإنسان ما دام مضطّرًا فهو مريض بأنه مضطّر...

فأين إذن يلقى الحى آلامه وفى جسمه مرض يخلقها مندفعة منه وحول جسمه مرض آخر يردّها راجعة إليه.

أهما مرضان فى القوة أم سجنان للقوة؟ أم الألوهية تحقق بهذا الأسلوب الجبار قدرتها فى ضبط هذا الإله العقلى المسمى الإنسان فشدته وثاقًا من شعوره بالآمه. وجعلت أكثر معانيه الإنسانية هى أكثر سلاسله.

إنما أمر الله إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ومن شقاء الإنسان أنه طول حياته يزور كلمة الألوهية "كن" ويريد أن يقبض من الأشياء قيمتها...

وأشد ما يؤلمه أن يهزأ منه ما يقول له "كن" فلا يكون منه شىء، فالحكيم لا يتألم إلا ألم الحكمة، والجاهل يتألم بالآم الخيبة والعقاب.

على أن كل ألم لو حققنا راجع بلذة أو حكمة أو منفعة، وأفراحنا وأحزاننا- على تناقضها تلتقى كلها منسجمة فى الحكمة الأزلية التى قدرتها لمن يفرح ومن يتألم.

وما أشبه آلام الإنسان بألم الطفل المدلل. تراه يحزن لكثرة ما يفرح





ويحول ابتسامته دموعًا في عينه فيتغير في صورته دون أن يتغير في معناه، فيضحك باكياً، ويشكو فتكون شكواه طريقة مرح في غير شكلها ويكون في نفسه معنى واحد ولكن وجهه الغض اللين يضع لهذا المعنى أساليب مختلفة هي أنواع من ألعاب الطفولة.

إننا نسر حين تخضع لنا القوة المحيطة بنا فتؤاتينا، ونألم حين تتمرّد علينا ولكن ياويحنا! ألا يجوز أن نكون نحن قد تعالينا ففتناها وتكون آلامنا آتية من سموها على المادة، كما ترى وجه الفيلسوف عابثًا تحسبه منظر لوعة وهو منظر فكرة سامية؟

ترفعنا الهموم والآلام، لأن عواطف الحزن والشقاء لا تكون إلا من سمو، وهي لا بد أن تكون لأنها وحدها الحارسة فينا لإنسانيتنا، إذ تخلق مع حياة الجسم المادية حياة معنوية للقلب، ونحسها من فقد ما نفقده، لأنه لا بد للضمير الإنساني من صوت أليم يقول له أحياناً: أنت سماوى فاترك هذا، وكان كل لوعة ألم يحسها المرء هي صرخة عاطفة جديدة ولدت في النفس!

حين يموت الميت العزيز يولد من موته لذويه الحزن عليه تلك بعينها هي طريقة خلق الفضيلة، تفقد شيئاً فنجد من فقده معنى.

والمرأة بكل قواها ترعى طفلها وتحوطه وتربيته، ولكن ابنها بكل ضعفه يربى عواطفها ويرعاها ويحوطها، وإن دمعها ليجعلها ترى للأشياء مدامع.. فهو خالق فيها لأنه مخلوق منها وهذا هو التفسير الذى لاغموض فيه، لأنه هو ذاته الغموض الذى لا تفسير له.





وكذلك آلامنا هي أطفال معانينا.

وقفتُ يومًا على شاطئ البحر، فخيّل إلى أنه عين تبكي بها الكرة الأرضية بكاءً على قدرها، تأملت الجبال فحسبتها همومًا ثقيلة مطبقة على صدر الأرض، وفكرت في البراكين فقلت لوعة أحزانها تثور وتمهد. ثم رجعت بهذا النظر في الإنسان، فإذا له على قدره بحر وجبال وبراكين.

عند الطبيعة: لا ألم ولكنه نظام، وعند الإنسان: لا نظام ولكنه ألم.. ولعمري، لو أتى للأقدار أن تخاطب البائس المتألم لكان الخطاب بينهما جملتين من القدر وحرفاً واحداً من البائس على هذا النسق:

القدر: هل عرفت كل السر؟

الإنسان: لا.

القدر: ويحك، فهذا الذي أصابك بعض السر!



... وألم الحب

أما ألم الحب، فذاك حين يأتي على اللحم والدم معنى لو تجسم لكان هو الذى يصهر الحديد فى موج من لهب النار، ويحطم الصخر فى زلزلة من ضربات المعاول.

هناك الألم المدمر لا يكابده إلا إنسان كأنما يراد خلقه مرة ثانية فيهدم ويبنى، أو يزداد تنقيحه فيغير ويحول.

وأعظمه لأعظم الحكام والشعراء، فهم وحدهم الخارجون دائماً عن هندسة الحياة المنسجمة، وهم وحدهم الذين يتحول كل شىء فى أنفسهم إلى حقيقة عاملة فلا يبرحون فى تغيير، ومن ثم فلا بد فيهم من هدم...!

ولا بد لهم من آلام على قياس العظمة، تكون لكل منهم كالبراهين عنه نفسه أنه غير إله، وأنه حين يكون بين حكمتين إنما يكون بين ضربتين...! تجد الشاعر العظيم أنه ليكاد يملأ الكون، فلا يضرب بالحب إلا الضربة الداوية تنطبق بها أقطار المشرق والمغرب!

وإنه لضغط بالوجود نفسه على بعض الناس، كضغط الأرض بآلاف الأجيال على بعض الفحم المطمور فى أعراقها ليتحول فيكون منه الماس الكريم المتلألئ...! ألا ما أهولها قوة تبيض الأسود بطبيعته، إلى جوهر النور بطبيعته، وفى خلق شمس ألماسية وهاجة، ولكن من ظلمة حالكة انعقدت فى التراب!

وما أهول مثلها من الآلام فى مضاعفة الحكيم أو الشاعر بقدر إنسانيتين، ليتسع لبؤس من الأثقياء وسرورها جميعًا، وليكون على مدرجة بين الخليفة وخالفها، وليبقى دائمًا من ضغط الوجود عليه كأنه محصور فى عمر ساعة ألم قد جمدت حوله!

أولئك يتأوهون لا بالألمين كغيرهم من الناس، ولكن برعد الأرواح يرجف إذ تنفجر بكهربائها، ويكفون لا بالدموع، ولكن بسحائب من معانيهم يؤلفها القدر ويراكمها ويضربها فيسوقها لتمطر على ناحية الجذب الإنسانى.

أولئك يتألمون لا بالألم ولكن بتمزيق فى أنفسهم كتمزيق الأرض حين تورع أسرار الزرع . ويتوجعون لا بمقدار عمل الواحد منهم بنفسه، ولكن بمقدار عمل الدنيا به، وليس منهم البائس الحزين الذى نزل به الألم رغبًا ودلا. ولكن البائس الجميل الذى اتخذته الحكمة ليبعد الصورة الكلامية من جمال نفسه لجمال الكون شعرا وبيانا وفنا.

فى موضع تقع الشرارة لتتطفىء، وقد تنطفىء قبل وقوعها وفى موضع آخر تقع وكأنها ولدت ثمرة لتتحيا وتكبر، فإذا هى من بعد نار تعمل أعمالها.

وكذلك الألم ومن يتألمون ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(١)

(١) آية مقتبسة من القرآن الكريم وفى اعتقادنا أن الحب ليس اختيارا كما مر فى «رسالة للتمزيق». وإنما هو استعلان معنى الجمال بالصورة التى يمكن أن تفرض فرصا على محبها، فما هو إلا يراها فتخالطه فيحس الجمال فيجب.

ومن قسوة القدر على الشاعر العظيم أن لا يجعل حبه حبًا خالق
الوحي إلا فى امرأة على قدر تألهه عظة وسخرية...!

يقول هو عنها ما أحوجنى إلى معجزة نبي تحول الحجر الذى فى
ضلعها إلى قلب... وتقول هى عنه: ما أحوجنى إلى بعض الملائكة أو
الشياطين ليكشف لى سر نفسه المخبوءة تحت مكان الصبر فى قلبه!

ويعيشان فى الحب كما يعيش اثنان فى قصة... وضعها مؤلف خيالى
فأحكم عقدها... وتخاصم سعادة كل منهما سعادة الآخر، ويعملان
كما يعمل الغنى الشحيح. يفقد الحياة لينال الدنيا^١. ثم إذا سألت ذلك
المسكين الأعظم: ما لذة هذا الحب الأليم للهفان؟ قال لك: لذته أنه حب!
هى حينئذ كل العذوبة السيالة فى روحه، وهى بذاتها كل الإقضاء
التي ألقيت فى ينبوع نفسه؛ وآلامها ميلاد حقيقى لمعانيه، ولذاتها
أكفان حقيقية لموتى هذه المعانى إذا أريد لها الموت، وكل ما يضع الآلام
والأوجاع فيه يضع منها النور فى كلماته!

من كونها هى فى قلبه يشعر أن الكون فيه، حتى ليقول فى وحيه
للجبال الراسية على أعضاد الأرض: ألمتنى يا أعضائى...

وتلقى فى حياته ألوان عينيها وخديها وثغرها وألوانًا وألوانًا، فإذا
حياة فنية مزخرفة منقوشة بأبدع وأجمل مما فى الطبيعة ورياضها
وألوانها.

ولا اتصالها بموضع السر من روحه، تشعر السر العجيب سر الحب الذى
يحير العاشق حين تفتنه من يهواها فيحسب كأن الجنس كله مستحيل

١: أى يتصرف كلاهما بعتاد وتهور وخطأ ومقدمات تستحيل معها النتائج السعيدة لأحدهما أو كليهما،
فهو ذو عناد وهى ذات معاصرة!

وأمكنك واحدة، أو كأن الجنس كله ممكن واستحالت واحدة تعلقها،
فكأنه لا جنس بل واحدة فقط...

وتتصرف به فى دلالتها وهواها تارة وضدها، فيراها حيًا كما ينظر
طفل إلى سكرة، وحيثًا كما ينظر المريض إلى مقبرة!
وإذ هى أنفقت أهلكت بلذة، وإذا هى امتنعت هلكت بألم... داءٌ لا يدري
أنى يؤتى له^(١).

يا رحمة للمحب الذى يتوجع بآلامه وحقائقها ثم بمعانيها فى روحه
وأمانيه ثم بالصبر عليهما: ثلاثة آلام من ألم واحد!
ويا آلام الحب، أنت ثقيلة، ثقيلة لأنك نظام التراب فى روحانيتى!
ويا آلام الحب، أنت جميلة جميلة، لأنك إشراق السر الأعلى فى نفسى!
ويا آلام الحب، أنت حبيبة ولو أنك آلام، بل حبيبة لأنك آلام...



(١) أى لا يدري كيف يتأنى له ولا كيف يداويه، إذ لا يدري ما هو، ولا أين هو؟

منى السلام

منى السلام على من لو تصافحها
يد النسيم، أحسث غمز الآمى
مرت على الورد فى الأكمام فارتعشت
أسى وقالت: أهذا قلبه الدامى
وأبصرت غصنًا ظمان منطرخًا
فما رأته فيه إلا بعض أسقامى
وتسمع الطير صداخًا بأيكته
يشكوا، فتسمع فى شكواه أنغامى
حقيقة الحب فيها، ثم تظهر لى
كأننى عالق منها بأوهامى
يا للعجيبه للمرأة: أنظرها
ولا أرانى فيها وهى قدامى
ياخت شمس كلون الخد مشرقة
وأخت بدر كنور الوجه بسام
ما كنت مثلهما إلا لتبتسمى
على ليالى فى حبى وأيامى



الحبيبات والمصائب...

"وكتبت هي إليه"^(١):

كنت أقرأ الساعة في كتاب... لذلك النابغة الفرنسية الذي أخرجه الحب للشعر فأخرجه الشعر للانسانية.

هو (فلان)، هذا الرجل الذي ولد مرارًا في الحياة، فإن الشاعر العظيم لا تلد منه أمه إلا الجزء الأرضي الآتي من المادة ليفنى في المادة أما الأجزاء الروحية السماوية التي هي زيادة فيه على الناس ليكون أكبر من الناس، فهذه- كما قلت لى أنت مرة- تلده الحبيبات و... ومصائب الدنيا! أتري يا عزيزتي مصائب الدنيا نوعا من الحبيبات في بعض وجوه الشبه واتحاد الغاية ومطابقة الحكمة؟... لك فلسفتك ولكنى أرجو أن يكون أنا الموحية إليك بهذا المعنى...

الألم في الحب والألم في المصائب: كلاهما أسلوب إلهي رحيم على قدره! هو عنيف، يؤتى من القوة بمقدار ما يبتلى من الضعف، وينتهي إلى السعة في الروح كما يبتدىء بالضيق في الحاسة، وينتشر فينا

(١) ليعلم القارئ أن الصديق صاحب الرسائل، تلقى من صاحبه رسائل كثيرة، ولكنها كالمصاحفين، لها من دلالتها قانون مطبوعات تراقبه.. وقلما قلم فنانة، فيه مع الجمال خبث جميل. وهي إلى الآن لم تأذن بنشر رسائلها، وإنما استرقنا هذه وبعض فصول من غيرها. أما لغة الرسالة فليست لها، بل هي من تهذيب صديقها. وفي يقيننا أنها لو كاتبته لاتمام رسائله وأفرغت له قلبها وفننا كما فعل هو لظفر منها الأدب العربي بأثمن كنز في معاني الحب، وأهل ذلك كانت وكان صاحبها، فقلما وجد مثلها.

مع النظرة المتألّمة أو المتحزّنه أو المتكسرة نظرات أخرى، منها النظرة المفكرة والشاعرة والمتحدّثة فى صمتها وأسترسالها بأسرار عالية كانت معانيها من السمو الروحى لأن لغتنا من الأوجاع والأحزان!

ذلك الأسلوب القاهر لايزال يتقصى بالوجيعة ويتتبع بالشدة حتى يخرج من الإنسان الموهوب ما تخرج حبة الرمل من حيوان الصدف حين تندس بخشونتها فى لينه وتنفرز فى لحمه إبرة حياة فإذا تاريخ ألم طويل حى لايزال يستخرج ما يكونه حتى يلتف ويتغشى ويستكمل، ثم تكنز منه الطبيعة كنزها، فإذا أنت من حبة الرمل بحبة لؤلؤ...

شاعرنا الفرنسى هذا يشبهك يا صديقى شبهًا تامًا، حتى كأن التاريخ يعيده فيك، مملوء من كبرياء العقل وكبرياء الغضب على الحياة، فليس يراه أحد فى وقت يكون فيه مع الأشياء... إلا حسبه لاهتياج نفسه وعنفوانه كأنه خارج لتوه من عراك أو خصام!..

لقد قلت لى يوما: إذا كلمتك عن خصومك والمفتريين عليك من حاسديك، إن عداوة الأعداء مهما كثروا ينسيها حب حبيب واحد، ولكن عداوة حبيب واحد لا تنسيها صداقة الأصدقاء مهما كثروا.

فشاعرنا هذا... دائمًا يرى كأن به عداوة حبيب، ومذهبه هو مذهبك بعينه، هو أن الحب الذى هو فى جملة أعلى الصداقة، هو فى أشياء كثيرة ألف العداوة أيضًا...^(١) ولنرجع إلى الكتاب.

(١) أكثر دلال الحبيب هو عداوة لطيفة لعواطف محبه، فالمنع مثلا عداوة للطلب، والبعد عداوة للقاء، وهكذا.



أتذكر إذ التقينا وليست بيننا شابكة، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً فى أساليب الحديث، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلوبهما؟

وشعرنا أول اللقاء بمالا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل، كأن فى كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد؟ ولم تكد العين تكتحل بالعين^(١) حتى أخذت كلتاهام أسلحتها... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب؟

وقلت لى بعينيك: أنا.. وقلت لك بعينى.. وأنا.. وتكاشفنا أن تكاتمنا؟ وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببتها؟ وجذبتنى سحتتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها، فإذا هو إعجاب، فإذا هو إكبار، فإذا هو حب؟ وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك؟ وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفاً كأن فيه زيادة ولم يزد؟ وكان الجو جو قلوبنا.

وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية...! أه! قلت: ولنرجع إلى الكتاب، ففى الكتاب قصة محب تبدأ هذه البداية وتجرى فى هذا المنزع ثم تطرد وتنساق فلا يقرأها من عرف الحب إلا

(١) هذا تعبير عربى بديع، يقولون: لما اكتحلت العين بالعين... كأنهم يقولون: لما التقيا ووجدت كل عين من الأخرى جمالها وقوتها وزينتها... فتأمل!



أحس كأن خيال ذلك المحب قد خرج من الكتاب ولزمه، ولشدة ما تؤثر القصة في النفس، حتى لكأنها حادثة وقعت لمن يقرأها، أو كأنه يرى القصة رأى عين.

رجل وقع من الحب بين لا، وليت، وهيهات ولات^(١) بين التمنى بأسلوبين، والبعد عما يتمنى بأسلوبين أيضًا، فأحب ليتعذب، وتعذب ليتصل بمعنى نفسه. واتصل بنفسه لينفذ منها إلى طرف من معنى الألوهية، وإن أردت الاختصار قلت لك: إنه أحب ليتأله؛

هل تفعل بسمات الحبيبة كل هذا؟ ألا قل لي من أنت، فإن الكتاب لا يقول لي شيئًا؛ وما كنت أقرؤه بل أقرأك^(٢).

ماذا ترى في الابتسامات؟ أمر تسقط عليه بندي السماء في نشر الروض وعطره، أم تلذع قلبك بالخمير الضاحك الذي لا يقال فيه حين يشتعل إنه اشتعل، بل إنه، بل إنه تندى... ذلك الجمر يحرق من غير أن يتضرم فلا يفنى ما يحرقه ولا يأخذ منه، بل يصبح كلهيب الياقوت في الياقوت وديعة إلهية جميلة في شكل النار؟

في كل صفحة من الكتاب كنت أراك فأرى المعاني شعاعًا فكريًا منبعثًا من جبهتك السامية لا من الأسطر وأوراقها.

كأس الكتاب مملوءة بماء الشعر العذب؛ ولكن مؤلفه لم يناولني كأسًا بل نقلني إلى ينبوع المتفجر إذا نقلني إليك. أعطاني هو مادة القراءة

(١) أي وقع من الحب الممتع المطمع في مثل معاني هذه الكلمات نفيا وتمنيا وبعيدًا.

(٢) ستأتى فلسفته في رسالة الابتسامة بعد هذه وكيف يرى الابتسامة.

وهيات لى أنت مادة الفكر فيما أقرأ فوضعى هو فى الكتاب ووضعتى
أنت فى نفسى!

روحىة الكلام المكتوب يا صدىقى هى وحدها التى تجعل
الكتاب عالمًا من العوالم يحمل دنيا مستقلة وإن كان هو يحمل
فى اليد، ولن يستطيع مؤلف أن يخلق فى كتابه هذه الروحىة، بل
يبثها القارئ فىها يقرأ من ذات صدره أو ذات نفسه: فلا بد للمؤلف
الناجح من ثلاث: نوع الكتابة، ونوع الأسلوب؛ ونوع القراءة، ومتى
أصاب هذه الثلاث التأم قليله بالكثير، واجتمعت فصوله بالحوادث؛
وتلبست كلماته بالأعمال، ووجد من قرائه تفسيرًا لكل ما يقول؛
فإذا هو قد ارتفعت به الحال فلم يعد كاتبًا ينتظر قرائه بل نبىًا
ينتظر المؤمنين به؛ لأنه خارج من إحدى نواحي القلوب، وراجعًا
إلى القلوب من ناحية أخرى.

وقصص الحب متشابهة، ولكن لكل منها طعما ومذاقًا وأثرًا، كأن كل
حب هو نفس جديدة، فهو بذلك قصة جديدة، وعلى هذا القياس يمكن
أن نقول: إن الحب هو تجديد النفس.

هذه النفس نسأم الحياة فتريد أن تخرج منها وهى فيها، فلا يصنع لها
هذه المعجزات إلا الحب.

والنفس قديمة، فتحاول أن تتوهم إنسانية جديدة خاصة بها فلا
يأتىها بهذه المعجزة إلا الحب.

والنفس بين سماء وأرض لا بد لها منهما؛ فتنزع أحيانًا إلى أن تكون

بين سماوين رجاء أن يكمل إشراقها، فلا يخلق لها هذا الخلق المعجز غير
الحب!

أنا الآن حزينة وقد حضرني بشى^(١) فأطرقت إطراقة طويلة عند هذه
الكلمة، إذ الجديد لا يبقى جديدًا إلا مدة ما، فهل ترى يستمر الحب حبًا؟
آه من سيل الزمن الطاغى العنيف المندفع دون رد على وجودنا بهذه
القوة الماحقة المستأصلة، قوة ما لا ينتهى "تندفع لتكتسح فى طريقها
ما ينتهى!

أيها السيل الأزلى الذى لا يرحم ولا يبقى! من هذا الذى يستطيع أن
يصنع لك سواحل وشطآنًا ويقول لك: استقر هنا يا بحر الزمن؟
وأنت أيها الحب! من الذى يقيم عليك سواحلك وشطآنك ويقول لك:
استقر ولا تذهب فى السيل...؟
أيها الصديق! وأنت...



(١) أى اشتد حزنى.



رسالة الابتسامة

يد مدم الحب على قلبه كأنه فى نفسه ينهدم^(١)
برجفة حاملها لم يزل ممزقا فى القلب لا يلتئم
زلزل البركان لما دعت أن سئمت بركانها المحتدم
أجابها الله الطفى وارجفى من شفتى محبوبه تبتسم!..

لا يمكن القلب أن يعانق القلب، ولكنهما يتوسلان إلى ذلك بنظرة تعانق نظرة، وابتسامة تضم ابتسامة.

تلك يا حبيبتي كلمة سماوية مخلوقة من الضوء فى شفتيك الجميلتين تعبر عن كل شىء بحركة واحدة لا تتغير ولا تختلف على حين أن معانيها فى النفس دائبة فى تغييرها واختلافها.

وفى عينيك الأحلام رهيبة غامضة، ولكن على شفتيك معانى الأحلام واضحة مفسرة: فابتسامك هو كلامك الذى لا تتكلمين به، وهو يختلج لأنه حركة ظاهرة لفكرك فى الحب، ولذلك هو دائم متنوع، دال على معنى... وهو يضىء ليومىء بإشارة سماوية إلى سر المجهول الذى يتحجب فى جمالك ولكنه لا يكاد يومض حتى يطفئه هذا السر، فيعود فيستطير ثم يعود فيختفى ثم يعود ثم يعود.

(١) أصل الدمدمة. الغضب، ودمدم عليه إذا كلمه مغضبا، والمراد هنا عنف الحب فى هز القلب من احتياجه وشدهته كأنه مسلط عليه يهدمه.

أهناك نزاع على حقيقة خفية من الحقائق الجميلة لم تجد لها مخبأ
إلا ثغراك الجميل؟

أم لك فكر شعري موسيقى فهو يرقص دائماً على وزن من ابتسامك؟
أم فى قلبك مادة من النجوم فهى دائماً تلمح لملحها فى سماء وجهك
النيرة فيسمون لملحها ابتساماً؟

أم ثغرك يبتسم دائماً لأنه بطبيعة جمالك وظرفك يتهياً دائماً لقبلة؟
يجد الطفل على كل حالة وفى كل مكان سرور نفسه، لسبب واحد
وهو أن ابتسامه أبداً معه فهو لم يملك من الوجود شيئاً بعد ولكنه أغنى
من عليها بهذا الكنز الذى خبأته السماء فيه فينفق منه فيما لا تبيع كنوز
الأرض ولا تشرى!

ولولا هذا الابتسام فى هؤلاء الأطفال وأنه على أفواههم كالنبض
فى قلوبهم لما نفعتهم نافعة فى تحصيل النمو للجسم، والصبر للطبيعة
والاستقرار للعاطفة والهدوء للنفس، والسعة للعقل، ولضغطت الحياة
أجسامهم ونفوسهم اللينة فى قوالب معانيها المحدودة الضيقة المصبوبة
من الضجر والآلام والهموم، فما يكبر من بعدها على الأرض طفل أبداً،
ولكن ابتسامهم سراج من كل قيود المادة، هو أشعة إلهية تذيب ما حول
القلب الصغير من المعانى الضاغطة عليه ولو كان معنى روح جبل صخرى
من الهم!

ولا تزال الجنة مع الطفل، حتى إذا كبر قيل له كما قيل لآدم: اهبط
منها!

أكل آدم من الشجرة، ولا شىء يضيع فى الكون، فأين الحلاوة التى
ذاقها فى الجنة؟

هى فى أفواه الأطفال...

وبيتسم الطفل ويضحك ونحسب ذلك على مقداره. كلا، إنه وإن يكن طفلاً صغيراً فى ملء جلده وعلى وزن جملته، ولكن مادة ابتسامه على مقدار الطبيعة كلها، لأن عظمة الكون هى التى ترعاه بهذا الأسلوب الصغير. هو لا يحيا فى العالم، بل فى معانى نفسه، وبذلك هو دائماً فوق الدنيا. ومن حياة الأطفال المنحصرة فى معانى أنفسهم، ندرك، سر الحب وسر السعادة، فإن كل لذة الحب، وإن أروع مافى سحره، أنه لا يدعنا نحيا فيما حولنا من العالم، بل فى شخص جميل ليس فيه إلا معانى أنفسنا الجميلة وحدها، ومن ثم يصلنا العشق من جمال الحبيب بجمال الكون، وينشئ لنا فى هذا العمر الإنسانى المحدود ساعات إلهية خالدة، تشعر المحب أن فى نفسه القوة المائلة هذا الكون على سعته، فتمر النفس حينئذ فى سباحات اللذة الروحية، من الجميل، إلى الجمال، إلى الطبيعة، إلى الله جل جلاله^١.

١) لنا فى "رسائل الأحزان" والسحاب الأحمر وفى هذا الكتاب آراء مختلفة فى كيفية اتصال النفس من الحب والجمال الإنسانى إلى مصدر الجمال الأعلى وتوفيق لهذه الآراء نقل هنا هذه الكلمة من كتابنا "المساكين" الطبعة الثانية.

"والطبيعة نفسها تهيب الإنسان للدين بأسلوب غريب، وهو هذا الحب الذى يخلق فطرة على أنواع مختلفة متعددة، حتى لا يخلو منه أحد فلا معدل عنه ولا محيص، وإنما هو فى مظهره. أيها كان. درية للنفس الانسانية تصعد به درجات من الفضائل: كالإخلاص والإيثار والاتصال الفكرى والإنبعاث الروحى والشوق الخيالى، ونحوها مما هو فى الحقيقة إيجاد للحياة النفسية فى أعمالها؟ وفيض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لإحداث الملامسة بين الأرواح والأشياء، والترابط بين الجاذب والمنجذب وكل ذلك تهيئة للدين وعمله فى النفس، ليكون قائماً على أساسه فى الطبيعة، فالحب دين على أسلوب خاص ضيق ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقع فى الدين من المؤمن به، على وتيرة واحدة، إذ لا يرضى للقلب فى هذا ولا هذا غير رأى واحد.

إما ابتسامتك أنت؟

أنك حين تمنحين نظرتك وتتبعينها الابتسامة التي تفسرها أقول عندئذ في نفسي: لقد علم الله علمه في حكمته ورحمته، فلما خلق الحقيقة من قوته عابسة جافية، قابلها من رحمته بالحبيبة متبسمة رقيقة... فعمل المرأة الجميلة أسلوب في الفرع الإنساني كأسلوب إنشاء الزهرة في ذات القوة الخشنة التي تنبت الشوك.

ولك ابتسامة يزيد سكون الطرف من غموضها، والأخرى يزيد استطلاق وجهك من صراحتها. والثالثة على استحياء كأن وعدًا معلقًا فيها.

ولك ابتسامة ملحنة كأنها نشيد وجد، يترقرق فيها صوتك الرحيم الذي هو أيضًا تصوير الابتسامة بحروف ورنين.

المعنى الذي يتحول بغيره، يقابله المعنى الذي لا بد أن يحول غيره إنها مشكلة عجيبة كان حلها أعجب منها.

فما توجد امرأة هي جميلة فائنة في وهم رجل، إلا انبعث من شخصها معنى ليس في أحد غيرها، كأن فيها وحدها ما لا يوجد في آدمي، وفي هذا السيال المعنوي يذوب كل شيء. وترى هذا الرجل يصغر للحب- ولا أقول يصغر به- فيرجع كالطفل تتولاه الطبيعة متمثلة في امرأة. امرأة تعمل وحدها فيما يسوء ويسر عمل الدنيا وأكبر من عمل الدنيا!



لكل محب مع المخلوقات التي يعيش بينها مخلوقات من خواطره وآماله، وهذا برهان آخر على أن الشخص المحبوب أحد قوتين متقابلتين في الخلق^(١).

وقد تهم الحبيبة أن تكاشف محبتها، ولكنها بابتسامة ظريفة ترد أفكارها الخطرة إلى أماكنها، وبهذه الابتسامة عينها تزعج في نفس محبتها تلك الأفكار من أماكنها.

آه من تلك الابتسامة المرححة الذاهلة! عليها لعيني المشتاق سمة من فتح ذراعيه وضم وقبل!

في ابتسامة الحبيب يتنقل العاشق بروحه بين المعاني والخيالات الشعرية السماوية، وفي تلك النظرات منه يسافر بقلبه إلى أحلامه البعيدة كما يسافر الفلكي بعينه إلى النجوم في (التلسكوب).

يسمونه ابتسامًا، ولكن حين يظماً النبات لا يقول للناس: أريد الماء، بل يقول للشمس وحدها. أريد من شعاعك البارد العذب يا حبيبتي! الماء حين يبصر تحرق الإسفنج وقد جف وانكمش يقول: إن كل ثقب من هذه الثقوب نفس ظمأى.

كذلك أوحى إلى محبًا قبل حبيبته في روضة عند شجرات من الورد، فأشارت إحداهن إلى شفتي الجميلة المضمومتين وقالت لصواحبها أسمعنت قط أجمل همسًا من هذه الوردة الصغيرة وهي تتفتح...

(١) لأن الحبيب قوة خالقة في العواطف والمعاني، وكان هذه هي حكمة وجود الحب، والله يخلق الإنسان، والحب يوسعه ويمد من حدوده وقد يضيقه ويختصره.



الزمن كله موسيقى عند المحب، ولماذا...
لصوت حبيبته.

والزمن كله ربيع فى رأى عينيه، والدليل؟
ورد خديها وشفثيها.

والزمن كله جمال فى نفسه، والبرهان؟
كلها كلها...

وهل أبدع الله الفم الجميل المبتسم بهندسته وتقسيمه إلا ليبدع هو
فى ابتساماته فن الروح حين لا تستطيع أو لا تريد أن تتكلم فترتعش...؟
كلام الفكر من اللسان، وكلام القلب من العينين، أما كلام الروح فهو
هذه الحركة البليغة وحدها! وحدها!

أليس تألق الماسة هو وحده لغة معدنها النفيس؟

والألفاظ تجيء وفى نطقها معانيها، ولكن ابتسام الحبيبة هو
يستخرج معناه من محبتها!

واللغة رابطة بين النفس والمادة، وأما الابتسامه فرابطة بين الحس
والقلب إنها الروح تأخذ عن روح أخرى فى حالة من الحالات النفسية
الخالقة، تحول كل شيء إلى لغة حتى اللحم الدم.

ورب ابتسامه على شفثى حبيبته هى خطاب لكل حواس محبتها.



عندما تبسّمين أشعر بحرارة أفكارك فى دمي..

وفى تضرّج وجنتيك لا أدري احمرّازًا ولا خجلًا ولا حياءً، بل أرى
قلبك يتكلم بلون خديك!

إن للقلب أربع لغات يتكلم بها: واحدة منهن بالألوان فى الوجه والثانية
بالدلال فى الجسم، والثالثة فى النظر بالمعاني، والأخيرة، وهي أسهلن
وأبلغهن. يتكلم بكل ذلك فى ابتسامه.

ومع ابتسامه الحب يأبى فم الحبيب أن يلفظ كلمه لا يقبلها فم حبيبه
يالها فكرة ملائكية معلقة على فم...!



جواب الزهرة الذابلة

" وتلقى منها ذات يوم كتابًا، فلما فض غلافه لم يجد فيه إلا زهرة ذابلة فكتب إليها".

قرأت يا حبيبتي هذا الكتاب الذى لم تكتبيه... وتسمت شفثاى ذلك السر الذى فيه" وكدت أقول إنها هى نسمات عطرها سحرتها فى هذه الأوراق بسحرها، ولكنى تأملت الأوراق الذابلة فخييل إلى من ذواها وطيبها، أنها أجسام قبلات حارة احترقت على شفثى حبيبها...!

وفهمت من العطر أن الرسالة مكاشفة بالحب أو مناسمة: ولكنى فهمت من الذبول أنها معاتبه فى الحب أو مخاصمة،
وقالت لى الزهرة يا حبيبى:

"بل أنا كوكب عطر من يدها الجميلة فى فلك زهرى غض، ثم انتشرت من فلكى وذبلت لأنى انتشرت من فلكى...!

وقد نشأت فى روضتى على أملود ناعم ريان، فلما صرت فى أناملها على أغصان اللحم والدم فى روضة الجمال، أحسست أنى بت قلبيًا يحب ويعشق ومرضت لأنى بت قلبا يحب ويعشق...؟

"وكنت أنفح بالعطر والشذى الفياح، فلما لمستنى شفثاها لمسة عدت أفوح بالحب، وهجرتنى لأنى عدت أفوح بالحب..."



"وكنت تمثال النشوة والفرح: فلما رفت بي على خدھا رفتين، صرت
تمثال السكر والعريدة، واطرحتي لأنى تمثال السكر والعريدة...
"وكنت بملء النضرة أفيض منها على الكون فلما وضعتنى ساعة على
صدرھا التھيت كشعلة هوى، ونبذتنى لما أحست بي على صدرھا كشعلة
هوى..."

وقلت للزهرة يا حبيبتي:

إنما أنت كلمة أيتها الزهرة الذابلة، وما ذبولك إلا سحابة على نور
معنى من المعانى.

أفمن لغة القيلة أنت، وقد جئت رسالة من شفيتها إلى فانكمشت من
حياء وخفر؟

أم من لغة الابتسام، وقد جئت تحية من وجهها وفيك ذلك المعنى من
غموض الدلال، فأنت موجهة إلىّ ولست موجهة إلىّ؟

أم أنت من لغة اللمس، وقد جئت سلامًا من يدها وهذا التجعيد فيك
شدة حب وضغطة شوق؟

أم أنت من لغة النظر، وقد جئت ذابلة متناعسة لأن فيك نظرة من
غرامها تنظر ولا تنظر؟

أم أنت من مادة العناق وقد جئت هالكة ضمًا من انطباق صدرين
تحتها زلزلتنا قلبين ترجفان؟

أم أنت...؟ أه؟ أم أنت من لغة النسيان، وجئت رسالة هجر منها، وهذا
الذبول الذي فيك هو مرض الجفاء ترسله إلى قلبي؟
ولكن ماذا قلت أنت للزهرة يا حبيبتى؟
أما إنك قلت لها: إن كتابة العطر لا تقرأ...؟
إن كلام النية لا يتكلم...!
إنى أضن عليه بكلمه...!



بالجمال .. رسالة الجاذبية

آه لو أستطيع أن أخرجها من زمانى، إننى لا أستطيع
آه لو أستطيع أن أدخلها فى حياتى، إننى لا أستطيع
قدرت قدرتها فى.. فلا أستطيع قدرة لا أستطيع...
كل من يكذب فى الحب قدر^(١) إن أطاق الحب- واللّه- غدر
وصحيح الحب حبه هدر كل ما يستطيع أن لا يستطيع؟

فى عينيك يا حبيبتى سحر ظاهر بمعانيه يلقي الحب على من ينظر
إليه.

أهو سر الضرورة الذى يشعرونا من معانيك الرحيمة بمعانيك القاسية؟
أم هو روح اضطراب مجهول أودعتك القدرة إياه ليخلق حولك
العواطف القلبية؟

أم هو استبداد الجمال الذى خصصت به ليكون قلبك وحده فى قوة
القلوب كلها؟

(١) المحب الصادق لا يقدر إلا على أن يحب والكاذب يقدر على ما يشاء..

أم هو ذلك المعنى الخالق الذي يفيض على جمالك تمييز جملتك
البديعة فى شىء شىء وفى حسن حسن؟

أم أنت أنت وذلك السر فى عينيك معنى "أنت"؟

دائمًا يضيف وجهك إلى كلامك بلاغة إلهية:

ولو نطقت بألفاظ القوة التى تشبه أجراسها صلصلة السلاح^(١) لخرجت
من شفطيك متنهدة.

ولو تكلمت بأشد ألفاظ القسوة لذابت فى حلاوة شفطيك ومتى نطقت
باسمى خرج من فمك سكران...

أى سر هذا الذى يجعلك على كل أحوالك تفيضين بالقوة كأنما بنيت
على شكل لا يزال يجمعها فى نفسه ويبثها من نفسه؟

إنه ولا ريب طابع الجاذبية على القوة.

وأى إبداع هذا الذى يظهره فى محاسنك مظهر كون خلق كله من
الزهر، وهو جميل فى مجموعه بأجزائه وفى أجزاءه بمجموعه؟

إنه ولا ريب طابع الألوهية على المعجزة.

حولك ما نحسه ولا نعرف منه إلا أنه حولك وحسب، والجو الذى
أنت فيه ينعكس عن جمالك فى صورة سحرية، فلو أننى طفت العالم
كله لرأيت من حولى أينما كنت، وأبصرت وجهك دائمًا أمام عيني كأنى
محدود بك فى حدود مسحورة تدعك حيث أنت وتمضى معى حيث
أكون!

(١) الأجراس: الأصوات، والصلصلة صوت وقوع السلاح بعضه على بعض.



وما الوجود إلا انسياب قوى المادة بعضها فى بعض، وفى هواك
تنساب القوى من روحك فى روحى، فالأصل الذى بنى عليه الكون فى
منافعه بنيت أنت عليه فى محاسنك، كأنما هو يعرض قوانينه التى تحس
ولا ترى فى صورة منك تحس وترى، وتزيد على الرؤية أنها آخر حدود
العشق، وعلى العشق أنها أول حدود العبادة.

أما والله لو ناديتك بغير اسمك يا حبيبتى لما وضعت لك إلا اسماً من
معانيك، ولو سميتك بهذه المعانى لما ناديتك إلا بهذا الاسم العظيم:
يانسوية العالم...!

نارية فى غير نار آه من يفهم هذا؟ ولكنى أحسه منك حتى لا أرى
جسمك إلا مضيئاً مشتتلاً بالشباب والجمال، وتالله إنى لأحسبك فى
بعض سبحاتى ناراً مدمرة كأنك تقذفين على قلبى منفجرة، فيه ويشيد
بى الوجد وأضيق فما أظن الحب إلا عداوة ساخرة تهزأ بالناس فتجنيهم
متلطفة فى غير أسلوبها وعلى غير طريقتها ومن غير أهلها، من الحبيب...
من الحبيب على أنها عداوة...!

أتلك يا قلبى نار وتدمير وعداوة؟ أم أنت ترتجف من جاذبيتها
على زلزلة لا تهدأ ولا تقر ولا بد لها أن تتم عملها بطريقتها العنيفة؟ إن
فيها حركة الجذب، وإن فى حركة المقاومة، فأنا المتألم بطبيعتى لأن
انجذابى إليها إن هو إلا اصطدام معانى بمعانيها، واندفاع ما يتحطم
إلى ما يحطمه ولكن يالها من عجيبة، إن هذه هى بعينها لذة الحب،
إذ كان تحطيمه فىنا هو تغييره فىنا، وبذلك يجدد الحياة، أيامها
وأشياءها ومعانيها ويضع فى كل أمر غراماً، ويجعل لكل شىء عيناً
كحيلة...

وراءك يا حبيبتي فكرة مختفية كأنك أنت عملها على حين كأنما هي
من عملك. أيكما يا ترى الخطر المستور بجماله؟

مع جاذبية الألوان والعمود في ثيابك وحلاك جاذبيه أعطرك وأزهى
فى ملبس معانيك من العواطف، وفى ملبس روحك من الدلال ولا يعدلك
فى هذه الفتنة الكاسية إلا السماء فى فتنها للرجال الإلهيين، حين تليس
حرائقها من شفق الصبح.

يا للجلال! إذ تفسر الطبيعة نفسها الغامضة بامرأة جميلة، لتحقق
بها فى النفس العاشقة وهم الكمال الإنسانى المستحيل الذى يخيل لها
اندماج الكون بجلاله العظيم فى ذاتية إنسانية، ذاتية المحبوب المخلوقة
على مساواة وتقدير من محبها لتجذبه وتفتنه، فتخرج به من حكم عقله
فتنفذ أقدارها فى أقداره، فتعقد على أطراف حياته بعقدة عاطفية
واحدة تستطيع بها تلك المرأة أن تهزه من كل نواحيه بأيسر لمسة؟

إنما الكون كهربائية، ولا بد فى الكهربائية من سلب وإيجاب فمن يدرى
لعل كل متحابين هما مظهر كهربائى لا يحوطهما إلا جو النفس المحترقة
تشعل بالضحكات كما تلتهب بالدموع! لأن هذه وهذه مادة حب ساطعة
فى مظهرين! كاللهب؛ تكون فيه مرة شدة الانبعاث فكأنما يضحك، ومرة
فترة الانطفاء فكأنما يبكى، ويقع الإيجاب فى السلب فيحدث الحب،
ويحدث فتكون الجاذبية، وتكون فإذا إنسان يعانيه قد احتل إنساناً
فى مادته فتتفاعل أجزاءهما، فلن يكون الحب، والبغض منهما إلا فوق
الاعتدال، إذ فى واحد تتهارب أجزاء من أجزاء، وفى الآخر يفنى بعضها
فى بعضها.



إنما هي قوة تلبست الصورة لتعمل بها عملا في نفسها، وتدل بها دلالة في غيرها، فحبي المخلص الشديد معناه فيك أنت الحسن الخالص الفاتن، وتفكيرى فى محاسنك معناه فى أنا: خلق لغة الأشياء الجميله ليتصل عقلى بحقيقتها.

وإحساسى بك وحدك معناه فى الوجود إحساسى بجماله كله.

والآن وأنا أكتب إليك. تتمثلين لى فأرى تقاسيم الحسن فيك فأقول: وما هذه التقاسيم البديعة؟

ألا رفقا بالقلب الذى أجابنى إنها تركيب المغناطيسى الغرامى وتوزيعه فى أماكنه على هندسة الجاذبية: رفقا بالقلب الذى تلمسينه من جاذبيتك بالنظرة والكلمة والفكرة كأنه حولك لأنك حوله...! بالوحى، والخيال، والحسن:

من أجل الإبداع؟ والسمو، والحب.

أنت فى نفسك، وأنت فى معانيك، وأنت فى!



الأشواق

هأنا ذا يا حبيبتي أجلس لكتاب الشوق، وفي يدي القلم، ومعانيك قريبة تكاد تحس وتلمس على تباعد ما بيننا، لأن كل ما فيك هو في قلبي. وهذه عينك الظاهرة دائماً بمظهر استفهام عن شيء، لأن وراءها نفساً متعنتة تأبى أن ترضى. أو حائرة لا تكفيها معرفة، أو غامضة تريد أن لا تفسر، أو على الحقيقة لأن وراءها نفسها فيها التعنت والحيرة والغموض، إذ عرفت أنها معشوقة.

هذه عينك من وراء البعد تلقى على نظرات استفهامها فتدع كل ما حولى من الأشياء مسائل تطلب جوابها من حضورك ومرآك لا غير وبذلك يهفو إليك القلب بأشواق لا تزال تتوافى، فلا تبرح تتجدد، فهي لا تهدأ ولا تسكن، وكأن غيابك سلب الأشياء فى نفسى حالة عقلية كانت لها، كما سلبنى أنا حالة قلبية.

وآه من تباريح الحب! إنها لو حوش من الأحزان ثائرة، فكل راجفة من رواجف الصدر^(١) كأنها من حر الشوق ضربة مخلب على القلب؟
الشوق؟ ما الشوق إلا صاعقة تنشئها كهرباءة الحب فى سحاب الدم يبور ويضطرب ويصدم بعضه بعضاً من الغليان، فيرجف فيه حين الرعد القلبي يتردد صوته آه آه آه...!

(١) رواجف الصدر هنا: كناية عن الخواطر الغرامية التي يضرب لها القلب العاشق



والآن يا حبيبتي ألفت عينك الساحرة على نظرة استفهام أخرى
بالصباية ورقة الشوق، فأحسست بروحي كالغصن المخضر أتقله
الزهر وقد طفقت أزهاره تتفتح وتسلم النسيم ودائع الجنة من نفحاتها
وتسليماتها عليك.

وأشعر بالقلم في يدي، وكأن له شأنًا مع الكلمات التي أكتبها إليك، فهو
يخطها حرفًا حرفًا، ويقبلها كذلك حرفًا حرفًا... وكأنه الساعة ذو هيئة
إنسانية (الريشة)، التي فيه تمتد إلى الكلام امتداد الشفة الظمأى بالقبلات
الكثيرة المخبوءة فيها!

وأشعر بالقرطاس وكأنه قد علم أن سيحمل أشواقى وأسرار قلبى فلا
يعد صحيفة ورق تموج بالألفاظ بل صحيفة صدر مלאها جو من التنهد
آه آه آه.

وبظرة استفهام أخرى من عينك أشعر بحقيقتك النسوية من حولى
حافة بي، فمرتجة فى صدرى، فملقية على قلبى المسكين من كل خطر،
شوق لسعة ألم:

نعم إنك يا حبيبتي ترسلين الأنوار فى هذا القلب، غير أنها لم تكن
أنوارًا إلا من أنها شعل مضطربة، والمحب الذى يضيئه عشقه ويظهر
للجمال، وجوده الغرامى، إنما ينيره احتراقه وفناء وجوده الذاتى، كل
قدر من النور بقدر مضاعف من الاحتراق.

وكذلك البطل العظيم فى الحرب: تنهش من لحمه السيوف ويثقب
فى عظامه الرصاص، وما مزقه الموت بهذه ولا بتلك، ولكن مزقه مجده!
أما إنك يا حبيبتي لو ضربتني بسيف لقتلتني قتلة معطرة!



أما إنك يا حبيبتي لو ضربتني بسيف لما كنت قد زدت بسيفك وضربتك على أن تكوني خلقت الحس في نظرة قاسية من نظرات عينيك.

وهكذا علمتني حقيقتك أن الحب إن هو إلا تفسير كل شيء في العالم تفسيرًا من القلب!

أنت ممزوجة بالآمل، والآمل منك هي أشواقى، وأشواقى إليك هي أفكارى، وأفكارى فيك هي معانيك فى نفسى، ومعانيك هي الحب، ولكن ما هو الحب إلا أن يكون آملى وأشواقى وأفكارى ومعانيك فى نفسى؟ ولروحك أنفاس تناسمنى^{١١} فأستنشقها مهما انصدعت المسافات بيننا، كأن ماملأ النفس يملأ الكون، فمن شعورى الدائم بانسكاب روحك فى روحى ينبعث غرامى ويرصد بهواك لى فى منفذ كل معنى إلى نفسى، ومن هذا تنبعث أشواقى الحزينة ما دمت لا أراك. وإذا كان الغرام هو سكر الروح بالروح، فما الشوق إلا التمرد العنيف من حواس الجسم المحب إذا حرم أن يسكر بالجسم الذى يحبه.

فى بعدك لا أشعر بالزمن يفنى من الساعات والأيام، بل منى ومن حياتى، فأنا فى بعدك أذوب، أذوب فناء، أى أذوب شوقًا، وأفنى صبرًا وعمرًا بين كل ساعة وساعة!

وفى الحياة يفنى الوقت زاهبًا فيما نحن بسبيله من واجباتها وممكناتها وتعبًا بها وقتًا وراحتنا فيها وقتًا آخر، فكأنه لا يمسننا نحن بل يمسن أعمالنا، فنحمله بذلك ونطيقه على ذلك ولا نحسن أننا نموت فيه يومًا بعد يوم، بل نشعر بالحياة تبدأ فىنا ولا تزال تبدأ، أما فى الحب على امتناع الحبيب أو هجرة أو فراقه، فحاضرنا هو الماضى ويومنا هو أمس،

١١) أى أجد نسيمها كأنها بمحضر منى، وقد مر تفسيرها فى المقدمة.



إذ لا تزيد فيما يكون إلا مراجعة ما كان فيقع الزمن على قلوبنا ويعتمل فيها ويأخذ منها ولا نشعر به إلا موتًا في صورة حياة ممتعة علينا ومن ثم تائرة كلهفة الشوق إلى الحياة من مريض وقذه المرض ورس على جسده السقم^(١) فمات أكثره وبقيت منه البقية الذاهبة نفسًا في نفس، ويشعر بالموت يبدأ فيه ولا يزال يبدأ!

يارحمة للمشتاق حين يكون فيما حوله وهو بعيد عنه، وقد يتكلم بالكلمة وهو مسيرة شهر من معناها...^(٢) ويعيش في سكوت مألوفه أرواح ألفاظ محبوبة تريد بما وسعه أن تتكلم ولا يمكن أن تتكلم، إذ الفم الجميل الذي ينطقها بعيد في وداعة النوى، ويروى أنه هو وحببيه ناحية فكرية من نواحي الدنيا بعيدة عن الناس والأشياء، كأنهما معتكفان في عزلة، ومع ذلك فالحبيب عنه بعيد، فكأنما المسكين غريب في دنياه وفكره معًا، ويحس الآلام لا تنتهي، إذ كانت هي أشواقه الدائمة الحنين إلى من يهواه، فالألم دائمًا فيه يبدأ ولا يزال يبدأ!

ومن كل ذلك فأشواقى لك يا حبيبتي دائمًا تبدأ ولا تزال تبدأ، أنها دائمًا فى أولها!

آه ما هذه الأفكار الحزينة التى جاءت تبحث عن دموعى. وما هذا المعنى النارى الذى يطير فى دمى.

وما هذا الرعد القلبي الراجف يتردد صوته: آه آه آه...

(١) أضناه المرض وثبت على جسده.

(٢) يريد أنه ذاهل، أو أن كل كلامه يكون على حبيبته وهى بعيدة عنه، أو أن مركز معاني المحب لم يعد فيه هو، بل فى حبيبته، فالحوادث ليست عنده على نسبة من حقائقها السارة أو المؤلمة، بل السرور والألم على نسبة بعده هو أو قربه من حبيبته أو رضاها وهذا كله يكون من تخليط الحب، فسيأتى مثل هذا المعنى على وجه آخر.

كتاب رضا

كتابها قد جاءنى حاملاً
والتمعت فيه نجوم المنى
وأعرف القبلة فى موضع
وكم به سطر إلى آخر
وكم به معنى أنام الجوى
سألته كيف رأى وجهها؟
قلت: وذلك الخد لما استحى؟
قلت: وذلك الشجر ما أمره؟
يا ثغرها، فيك نسيم الندى
لقلبي الخفاق قلباً خفق
فى أسطر مثل سواد الغسق
يلوح لى كالزهرا لا كالورق
كالصدر للصدر دنا فاعتنق!
وكم به معنى أتى بالأرق!
فقال: جل الله فيما خلق
فقال: مثل الفجر فيه الشفق
فقال: لما ذكرتك "انطبق"^(١)
فكيف قلبى فى نذاك احترق؟



(١) كأنها تقبل اسمه حين ذكرته.

قلت: وانظر التعليق فى ص ١٠٩ من كتاب "رسائل الأحرار".

رواية القلم...

أشعر أحيانًا أيتها الحبيبة أن لقلمي على خلافًا، وكأن فيه عاطفة ترميه بنوازعها، فهو يجاذبني نفسه لا يريد أن يكون في بناني ولا أن يقر معي.

وهو الساعة مرتبك متبلد تمشى به يدي وكأنها الشيخ المتهمد الفانى يدعم على عصا^(١) يراه الناظر إليه مترجرجًا فيحسبه يرتعش ولا يمشى. وإن يكن بهذا القلم شيء منى فما به إلا الضجر مما يمليه قلبى الذى يهابك فى رسائله كما يهابك فى حبه، فيقذف لقلمى بالكلمة من الكلام يكتبها عنه وإن القلب فى ذات نفسه ليزمزم^(٢) بمعنى ليس فى هذه الكلمة، بل فى كلمة غيرها قد أخفاها وضمير عليها.

أحسب قلمى يا حبيبتي لا يتمنى إلا أن يكتب بغير يدي على أن لا تكون الرسالة يا ذات قلبى إلا من قلبى أنا، وهذا معنى لو كشفته لكان هكذا.

يود قلمى أن يكون فى يدك أنت ليكتب بيدك إلى... كأنه يعقل ويتلو معى رسائلك ويعرف أنك دائمًا هاربة... ويتلهف مثلى على كلمة مقبلة^(٣). وهيبه الآن فى يدك الرخصة الناعمة التى أودع الله فيها سر ثمرة من

(١) أى يقوم بها كأنها دعامة

(٢) الزمزمة، صوت خفى لا يكاد يفهم.

(٣) الكلمة المقبلة: المخصصة من المعنى الذى يحبه: والمدبرة: المجذبة.



أحلى وأنضر ثمار الجنة فتذاق منها حلاوة الجنة بالتقبيل، إنه يلمسك...
إنه تحت أنفاسك يرتقب كلام شفتيك... وربما فكرت قليلا فأطرقت
إطراقة فلمست به خديك. وربما أغمضت عينيك ليسعدك فكرك العميق
بأسلوب مقلوب... فإذا أنت في ذلك قد الصقت القلم بشفتيك ولبثت
ساكنة ولبث ساكناً!

ويك يا قلمي الخبيث! أتريد أن تدعنى... لكأنك والله نفس معلقة في
أصابعى تحب وتشتاق!

وماذا عسى أن يكتب إلى قلمي وهو ذاهل في راحتك، سكران من
أنفاسك، مضضع من لمسة خديك، مترفع على الوجود كله بموضعه من
شفتيك، وهو كالميت من إفراط هذه الحياة كلها عليه؟

أحسبه يكتب إلى من يدك هذه الرسالة:
"سيدي الأستاذ الفيلسوف".

"لم يخالجنى الريب قط في أنك من نزعاتك الروحانية ومن ذهولك
الرباني كأنك في جو كوكب... لا في جسم إنسان، وكأن عناصرك المطهرة
قد أنضجها اللهب القلبي الذي يحرق الإنسان ورغائبه وأهواءه في شعلة
متقدة تفنى منه شكله الأدنى لتوجد منه شكله الأسمى وتدعه ذؤابة نور
ترتعش.

"وإن الساعة التي قرأت كتابك فيها لتكاد تشعرنى بأنها من غير هذا
الزمن، فكأنها خلقت لى تأتيني مع بريد من الملائكة حين يوافق البريد
بكتابك".

"وتالله أن كتابك يا سيدي لزهرة من روحك تحيتها عندي في تأملها
والإعجاب بها، أما بلاغته فبالله أحلف صادقة ما رأيت أكمل منك لسان



قلم.. ولا أذكى مع هذا القلم.. قوة طبع، ولا أبلغ طبيعة نفس، لكأن قلمك... مهبط إشعاع تلتقى إليه سبحات روح الجمال المنبثة المائلة هذا الوجود مما بين أزهار الأرض، إلى كواكب الفلك إلى حدود الحور في مقاصير الخلد.

”وسألتنى اللقاء ولكن قلمك.. ساحر قدير فهو يستطيع أن يحملك إلى دائماً في رسائلك البليغة، ولو شاء هذا القلم الساحر.. لجعل من الصحيفة روضاً يفرشه تحت أقدامنا نثار الورد^(١) وقد جلسنا فيه تحت خيمة من الندى مطرزة بشقق عريضة من حرير الشمس، وثلتقى وإن كنا لم نلتق! ”وأها لقلمك... يا سيدى واهأ؟ وسلمت للمعجبة بآيات هذا القلم المعجز..“

على أن هذا القلم الخبيث لو استملى من نشوته وسكره هذا الكلام المعربد فى قلبى وركب ذلك الفن من الغيرة وأخذته هذه الرجفة وكتب إلى بيدك تلك الرسالة لقرأتها أنا هكذا:

”يا من أنا سيدته!

”لم يخالجنى الريب قط فى أنك- من حبك- نفس تحترق بذاتها كالكواكب، فعناصرك الملتهبة تلفنا معا فى شعلة غرام تفنى منا شكليين لتوجدتهما فى الحب شكلاً واحداً، وتدعه كذؤابتى نور معتتقين.

”وإن الساعة التى قرأت كتابك فيها لتكاد تشعرنى أنها منك أنت لا من الزمن، لأحيا فيك وأنا أقرؤك.

(١) نثار الورد: ما تناثر منه فى المجلس وحين ينتثر فى المجلس يسمى الجلسان بضم الجيم وسكون اللام.

”وإن كتابك لمن روح أيها الحبيب لا من كلام؛ فإنى لما نشرته فى يدي
أحسست كأنه غمز يدي.

”أما بلاغته فبالله أحلف صادقة لقد نقل إلى الكلمة التى لم تكتبها
وسألتنى اللقاء.....

آه ما بالك جمدت الآن أيها القلم الخبيث وقطع بك؟ فكأنك تغار حتى
من موعد مزور..!

هذه يا حبيبتى رواية قلمى فما رواية قلمك؟

إنك لتنظرين إلى نظرات ناعمة من ذلك النظر الرطب فأجد لها مسًا
كمس يد الحبيبة الفاتنة؛ فلماذا لا تكتيبينها؟

وتبسمين أحيانًا ابتسامات معنوية تهرب إلى فيها بعض قبلاتك،
فلماذا لا تكتيبينها؟

وأرى على نور قلبى أحرفًا مختبئة فى قلبك هى: ألف، حاء، باء، كاف
فهل تكتيبينها؟





نار الكلمة

تقولين فى كتابك أيتها الحبيبة. ولعمري إنى لأستحس وهجاً من حرارة الجذوة التى فى قلبك، وأشعر به ومن بينى وبينك عرض المشرق^(١) ولقد عرفت هذه النار وآمنت بما قلته لى مرة من أنها اتصال الشعاع الأزلى بالقلب الإنسانى ملطفاً فى وسيلة إنسانية، مخففاً بجمال، مزخرفاً بلذة، معبأ برغبات كثيرة كيلا يمحق محقه الذى كان أخفه وأيسره أن تجلى للجبل فجعله دكا^(٢)، لكن أيها الصديق...

ولكن بأية نار تشعل ألفاظ رسائلك؟ وكيف ينبض القلم فى يدك هذه النبضات الحية المتمثلة حتى ما يخالجنى شك فى أنه لو وضع على كتابك ميزان الحرارة لجاءت درجته فى حرارة قلب؟

أتجهلين...؟ يا بعد ذلك!

أتعرفين...؟ يا حب ذلك!

إنما تأتى رسائلى أيتها العزيزة من تحول الكهربائية التى فى قلبى إلى ألفاظ، إذ يدفعها الشوق أن تكون عملاً منى بعد أن كانت عملاً منك

(١) يعرف القارىء من رسائل الأحزان، أن صاحبة هذه الرسائل سورية

(٢) كان الحب إحساس فى الروح بشعاع أزلى، ولكن هذا الشعاع ملطف فى وجه جميل ومعان جميلة، ولولا ذلك لأهلك وانفجر به القلب من ساعته وفى قصة موسى عليه السلام: **﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾** قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا بَجَلَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا ۝



وهي كالنور، لا يرى حتى يلبس ما يرى فيه، فتلبس الكهربائية أفاظي وتتراعى.

وإنما تأتي المعانى التي أبدعها فيك من تلك العواطف التي تخلقينها أنت في، وكما لا ينطق فم الإنسان من شفة واحدة: فكذلك لا بد للحب من اثنين ليتكلم فم الحقيقة بكلام الحب!

وما أكتب لك حرفا حتى أراك قبل في مرآة نفسي، وأتمثلنى فى مرآة نفسك، ثم أضع بيننا مرآة اللغة فتعكس منى ومنك أجزاءً وصورًا تكون هي كلماتي.

ولو رأيتنى وأنا أتلو رسائلتك؛ لرأيت أنك لا تكتبين لى كلامًا، بل تزرعين فى الورق زهر أنفاسك فيأتينى فأقرؤه. أى أقطفه... وبهذه الطريقة أكتب كلماتي، أى أزرع تنهداتي يا حبيبتي؟

والخائف من شيء يرى لاسمه بعض عمله من تأثير الخوف على أعصابه، فاسم الشعبان عند من لدغ مرة هو لفظ كالإبرة يمس مكان اللدغة؛ كلمة الذئب تعض... وكلمات الحب يا حبيبتي تتألم.

لست أشعل أفاظي ولا ينبض القلم فى يدي نبضات حية، ولكن هذا وذلك غليان دمي على أربع نيران، هي خيال، وغرامى، والفكر النارى الذى هو أنت والجمال الذى أحمى على شبابك حتى بلغ درجة الاحمرار فى خديك وشفتيك!

هو الوجد، ذلك الوجد الذى يوحى لكل عاشق بأنه إن امتنع على الفم أن يلقى فى القبله أنفاسه الحرى على وجه الحبيب، فليقابل وجهه بألفاظه الحارة فى رسالة...

هو الجمال، ذلك الجمال الذى يريد التعبير عن نفسه تعبيرًا صادقًا

حيًا، فيتخذ العاشق هيئة فكر مثقلة بالآلام وتباريح الصباية والشعر
والخيال عاليًا عاليًا إلى الحكمة، أو نازلًا نازلًا إلى الرذيلة، أو هالكًا هالكًا
إلى الجنون!

إنما أضرب على أوتار نفسك ألمسها بأفكارى ونظراتى وأشواقى،
وبأفراح المعرفة الغرامية وآلامها، وأخرج من ذلك أنغام حبي التى هى
رسائل!

وإذا كنت أنا المتكلم فمعنى ذلك أنك أنت المتكلمة بى، وفنك يا
موسيقى الجمال هو فى تركيبك الجميل وانطوائك به على أسرارك،
ولكن فنى إنما هو فى لمساتى عنفًا ورقة^(١)، وكلماتى كالأزهار تخلق فيها
مادة ألوانها وأعطارها وديباجها، لأن أرواح أغراسها تنكسب فيها، وحين
يلقى الشعاع كلمته الغرامية فى قلب كل شجرة من ذوات الزهر، تفكر
الشجرة مدة ثم تزهر وتتفتح، أى تجيب بأسلوب نسائى فى ظرف ورقة
ولون وعطر وحرير وتبرج.

ولست أشك أن الجمال فى هذا الوجود مظهر مؤنث، حتى إن
معرفة الأسد^(٢) لتظهر كشعر امرأة... ومن ذلك ما تبدو الأشياء الجميلة
فى خيال العاشق المتدله كأنما فى كل نظرة أنثى... أنثى جعلت قلبها
نحوه^(٣).

إن لم تغلبى على الكون يا حبيبتى فقد غلبت على نظرتى إليه! فكل
جمال فى الكون هو رسالة منك إلى، وبذلك أصبحت للعالم خلقه أخرى

(١) الحبيبة كأداة من أدوات الموسيقى، فنمها فى تركيبها الخاص ولكن فن العازف فى لمساته إياها
رقة وعنفاً وما بينهما.

(٢) شعر رأسه.

(٣) أى مالت إليه بقلبها وأقبلت عليه.





فى مخيلتى، عليها أترك الغرامى، وكأنما نحن عنصران منبثان فى كل ما حولنا فما نمس شيئًا أو ننظر شيئًا إلا وضعنا فيه روحانية القلب.

ولن يكون الحب عشقًا ما لم يرتفع بالنفس عن ذاتها، ولا تسمو النفس عن ذاتها ما لم يعل نظرها إلى الأشياء، والنظر الإنسانى لا يعلو بشيء إلا إذا ألبسه معناه الإلهى.

أىكون الحب تنقيحًا فى معانى الكون بالنفس وخيالاتها، أم فى معانى النفس بالكون وحقائقه، أم كليهما؟

أم إنى لأستروح أنفاسك وقد ناسمتنى كرويحة الفجر عذبة باردة فما تزيدنى إلا ضراما، كأنما تهب منى على جمرة ذاكية. ولا يكون الشعور بالحب ناريًا ما لم يكن الحب نفسه مزجا للنفس العاشقة بالكهربائية السارية فى الكون، المائلة لنواحيه وأطرافه، النابضة بكل ما فيه.

وإذا كان هو الشأن فالوجود مقفل حتى تفتحته للرجل امرأة ويفتحه للمرأة رجل، ولا تزال معانى جماله فى قناعها، وزخارف حلاه فى أستارها، كمتاع القصر من وراء باب القصرالمقفل على ما فيه، حتى يدور فى قفل الكون مفتاح الحب.

النهار يفتح بالشمس، والليل يفتح بالكواكب، وأما الحب فلم يفتح إلا بوجهك يا حبيبتى.

والشمس والكواكب نار؛ ولكنها على الدنيا نور، أما وجهك فنور، ولكنه

على قلبى نار!

أتجهلين...؟

أتعرفين...؟



المتوحشة...!

"وكان يومًا في مجلسها فامتد بينهما كلام قالت له في آخره: أنت (متوحش!) وقال لها، وأنت (متوحشة!) فلما ندر من مجلسها ذهب فكتب إليها هذه الرسالة:"

ماذا أقول في (متوحشتي) الجميلة: وما ظهرت منها على عيب أعيها به إلا رأيته عند نفسى شكلاً جديداً من أشكال جمالها، أو فتاً بدعاً فيما حنيت عليه ضلوعى من هواها، إذ ليس بينى وبينها حدود تجعل منها ألفاظ النقد حدوداً لمعانيها، بل كل ما فيها من أشياء قلبى ولو قالت لى: "أكرهك" لما وقفت الكلمة عند هذا الحد، لأنها من أشياء قلبى، فيكون معناها: أكرهك لأنى مكرهة أن أحبك، أكرهك لأنك أخضعتنى وجعلتنى مكرهة أن أحبك، أكرهك لأن كلمة "أكرهك" هى التى أظن أنها تخفى أمام نفسك تواضعى لك فى نفسى!

ووالله خالق الجنة والنار، لو كان فى سواء الجحيم^(١) غرفة من الجنة بنعيمها وزينتها، أو كان فى سرارة الجنة^(٢) قاع من جهنم بعذابه وآلامه- لكانا معاً أشبه بما أجد منك، فإن حبك لذة من لذات الجنة، ولكنه يتضرم فنوناً على قلبى. وإن الشوق إليك عذاب كالنار ولكنه ينفذ من الأمل على روحى: مثل الطلل والتدى.

(١) فى وسط الجحيم.

(٢) سرارة المكان: وسطه.

إلا إنه ليس فى الحب نصف حب أبدًا، فليس فى الحبيب أبدًا إلا كل الجمال، فليس معانى الجميل إلا أنها كلها جميلة.

والوجه الذى نعشقه هو من كل ما خلق الله الوجه الموسيقى الذى لا ينسجم غيره ولا يتطابق مع فن الروح فى عاشقه: فإن أطرب أو أشجى^(١) فبلذة أشجى وبلذة أطرب.

وإن لمست يد الحبيب بأناملها لمسة حب، فهى يد الحبيب أفلا تكون هى بعينها يد الحبيب، إن قرصت بأظافرها قرصة حب...؟

قلت أيتها الحبيبة إنى (متوحش) فإنى كذلك، وإنى لمتسعر الدم من حبك بفضاعة تجعله كأنه دم وحش فائر تتنذى به نوازيه للوثبة، ولن يكون الحب القوى إلا متوحشًا لأنه ثورة قذفت فى الدم الإنسانى فيرتج فيه تاريخ القتال الوحشى الذى ينام فى دماغنا من إرث أجدادنا، فإذا معركة مرسومة لامتلاك الحبيب لم يصنع فيها العاشق أكثر مما يصنع القائد إذا نشر خريطة حرب كانت عنده مطوية.

ومن العجب أن هذا الوحش النائم فى الدم لا ينبهه إلا أجفى المعانى وأغلظها فى سورة الغضب وجنون الغيظ، أو لطف المعانى وأرقها فى جمال الحب وخلاعة الجمال.

فالعاشق الرقيق على فرط رفته، هو لفرط رفته وحش فى عاطفة الحب: ما منه فكر لو فتش عن معنى يفترس إذ يشعر بالحياة فى نفسه لاغذاء لها إلا بمعانى حبيبته، فيأكلها حتى بالنظر ويفترسها حتى بالخاطر!

(١) الشجى: خاص بالنغم المحزن لا كما يستعمله الناس من قولهم: الأنغام المشجية وهم يريدون المطربة.



ولو أننا تمثلنا أسدًا غرثان يطوى البر أيامًا وهو يهفو على أثر خيال من أحياله جوفه ولكنه لا يجد الفريسة، حتى إذا انصفق جنبه على جنبه الآخر من الجوع فتقت له الهواء رائحة ظبية من قريب ثم تمثلنا مع هذه الصورة عاشقًا مجفوا نالته نسمة من قبل حبيبته أو نفحته رويحة من عطرها ثم ترجمنا ما أفض الأسد من معاني الظبية إلى ترجمة إنسانية، وكانت وحشية الليث في هذه الحالة هي بصورتها لهفة العاشق ولوعته، إلا أن ذلك معنى فى وحش وهذا معنى فى إنسان.

ويخيل إلى أن محبًا لو قبل حبيبته بتلك اللفهة، أى بتلك الوحشية، لجاز لها أن تتهمه قانونًا بتهمة الشروع فى أكلها^(١).

وقلت لك: أنت متوحشة، وإنك لعلى ذلك، فإن جمالك لهو أرق الوحشية وأدقها وأخفاها، ولا برهان لى عليك إلا أنك دائمًا تساوريننى فى قلبى مساورة ظهرت فى قلبى جراحاتها... وعلى كبدى منها الصوادع^(٢).
ولك صولة على وحشية وأنت بها غالبة أبدًا، حتى لا أستطيع فى مغالبتك أكثر من أجعل خضوعى أحيانًا فى صورة مقاومة...!

والحياة تدل بالوحش على أنها آكلة هاجمة مصممة غير رحيمة وأنها الشدة تحت مس لين، وأنها القوة الغازية معبأة فى إهاب، وأنها أسلحة قاطعة من اللحم والدم، فياليت شعرى عنك، هل دلت الحياة بجمالك الفتان إلا على رقة قاتلة، ولين مهلك، ولطف معذب. ومعان كالأسلحة فى لحمى ودمى؟

لا أثبت لك حبى إلا لتثبتنى لى كبرياءك، ولا تقوم هذه الكبرياء

(١) فى القانون: تهمة الشروع فى القتل، وهى التى ولدت لنا هذه التهمة الظريفة.

(٢) أى ما يصدعها ويفطرها من آلام الحب.

ولا تثبت إلى بتعذيبى، والأساليب التى تخفين وراءها حيك بطبيعة
الاحتراس الغريزية فيك، هى بعينها التى تعذبنى بطبيعة الجرأة التى
فى. وما قالت امرأه مثلك عن تهواه: إنى أحبه! إلا وكأنها قالت: إنى
أعذبه!

ولقد تركتنى وما أظفر منك بساعة رضا إلا رأيت فى يدي معجزة
وكأنى أمسكت من الزمن ساعة كانت هاربة فى الأبدية! يا حرة قلبي
منك^(١) ويا رحمتاه لكل من عشقوا.

إن الحبيبة على أنها سرور محبها وليس له عنها مذهب إلى متاع أولذة
فى كل ما وسعت الدنيا، فإن سرورها هى بالمحب لا يهنئها إلا أن تراه بها
معذبًا ولها صباً وفيها مدلها^(٢) وقد أحرقه الوجد وأضناه التيم^(٣) وأهلكه
حزن الهوى، إذ لا تكون عند نفسها معذبتة إلا من أنها حبيبتة، ولا تثبت
لنفسها القدرة عليه إلى بمحق المقاومة فيه ولا تتم كبرياء أنوثتها إلا
بتمام الدل عليه ولا يتأله فيها الجمال يعذب ويثيب إلا بتحقيق العبودية
فيه تخاف وتطمع، فتبدع ما تبدع فى إيلامه وتعذبه ولو تتابعت له
بالسوء لأن ذلك هو عمل كبريائها وسرورها.

وقد تعذبه فى بعض دلالتها أشد العذاب وهى تحبه حبًا ليس عليه
صبر، كما كانت تفعل لو أنها كانت تبغضه بغضًا ليس فيه مبالاة وبذلك
تجمع عليه الشبهة والحقيقة، وما أمر عذاب من وجد الضرورى له
مستحيلًا عليه.

(١) الحرة: العذاب الموجه.

(٢) التديله: ذهاب العقل من الهوى.

(٣) تامته وتيمته إذا استعبدته بهواها.



فأوجاع المحب وأحزانه كآلام الفريسة وأوجاعها، كلاهما بالغة السلبية فى الحبيبة والمفترس: وصف كامل لسطوة وحش...

وإنى لأحسب طبيعة الفرار التى ركبت فى المرأة^(١) قد خلقت فيك أنت على الضعف، حتى لأراك دائماً كالهاربة عنى وإن كنت إلى جانبى، وحتى إن معانى كلماتك فى الحب لتفر من كلماتك، وكانك تحترسين بغريزة وحشية بالغة فى وحشيتها^(٢).

وإن حقيقتك لا تزال وراء آلاف وآلاف من ظنوتى، كأنما لها هى أيضاً معنى اختباء الوحش فى ألفاف الغابة وأشجارها فإذا أنت رضيت فأيسر ما توصفين به أنك جذابة إلى حد فطيع فى التأثير، بل متوحشة فى الجاذبية والسحر والفتنة.

وإذا أنت هجرت فأحق الكلام الذى توصفين به أنك فى الهجر بلا رحمة ولا شفقة، متوحشه... متوحشه...!



(١) هذه الطبيعة من كونها أنثى، أى محل المهاجمة، ولذا فلا أسمح فى الدنيا من انعكاس هذه الطبيعة فى المرأة وانقلابها هى مهاجمة للرجل.

(٢) من أسلحة الوحش غريزة الاحتراس فيه، وكذلك هى من أسلحة المرأة والتى تعرف كيف ينبغى أن يكون الحب، تشخذ هذا السلاح وتجعله ذا حدين وتضاعف احتراسها، أو كما قالت حبيبة هذه الرسائل فى بعض رسائلها التى لم تنشرها 'تمشى فى كل خطواتها بالمقادير والمقاييس' فتأمل...

أما قبل

”كتبها إليها بعد أول مجلس كان لهما يصف ذلك المجلس“:

لم يقولوا فى لغتنا (أما قبل)، كما أقول أنا يا حبيبتي ، ولم تخطر لأحد قط ولا يصححها وجه ولا تعليل، ولكنى أضعتها من أجلك، وما أشك أنها ستكون عبارة معشوقة من أثرك وأثر الحب عليها: وأقولها لك ولا ارتاب فى أن السنة المحبين سترمى بها فى كل زمن مراميها عند كل حبيبة. إنها كلمة حنانة، فيها الحب والذكرى، وفيها من نفسى ومن اللغة ومنك وهى غريبة باللغة الغرابة لأنى صنعتها صنعة قلب لا صنعة لسان، ففيها الفن أى سر الحسن، أى حروف التصوير، أى المجلس الذى كان لنا أمس.

ويد المصور الملمح الحاذق لا تمر على الصورة بحركات الرسم وخطوطه، بل بحركات الفكر والقلب، ورعشات اللذة والألم، مستيفضة بالوحى الذى من لغته الخطوط والأبعاد والظلال والألوان. فما الرسم إلا بالوجه الممكن لاتصال الإنسانى من الفكر بالإلهى فى الأشياء لخلقها مرة ثانية. وكذلك ليست (أما قبل)، إلا الوجه الممكن عندى لاتصالى بأمس، وانتقال قطعة كانت من وجودنا فى وقت إلى وجودنا فى كل وقت وخلق ما كان من قبل خلقًا تصويريًا فى كلمة.



قالوا (أما بعد) وسموها فصل الخطاب^(١) وأنا أقول (أما قبل) وأسميها وصل الماضي؛ وبها نجعل لما فاتنا مما نحبه أو نؤثره لساناً، ونعيد إليه الصوت، ونفتح له باب الساعة التي نكون فيها، ونخترع للمحبين لفظاً سحرياً لم تستطع حواء بجنة خلد أن توحيه لآدم، وأوحيته أنت لي بمجلس حبك في لحظة!

”وأما قبل...“ فماذا أصف مكاناً للحب كأنما مر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه نقصاً من العمر بل زيادة عليه، وكانت يا حبيبتي كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنما بعض الفكر والحس لا بعض الزمان والمكان؟

بماذا أصف الوقت الغض الذي كان ينبت لساعته رطباً ندبا كأنما انبثق من قبلتين، لأنك مر بهواء حجرتك التي أنت فيها، ثم جعلني أعرف بعد

(١) للعلماء كلام كثير في معنى (أما بعد)، وإعرابها وتوجيهها يبلغ من التحذلق أحياناً أن يكون مضحكا و (أما) عند بعضهم اسم، وعند بعضهم حرف، وإذا قيل (وبعد) قالوا و، عند بعضهم نائبة عن (أما) وهو المشهور، وعند بعضهم للاستئناف، وعند آخرين للعطف و(أما) في (أما بعد) حرف تفصيل ولكنها في (أما قبل) حرف توصيل ولا يجوز عندنا أن تستعمل (أما قبل) إلا في الحب أو البغض، فهي خاصة بالتفات النفس للذة أو ألم كما لا يجوز عندنا أن يقال منها (وبعد) كما قالوا (وبعد) لأنها حينئذ لا تكون كلمة مخترعة. ولا تدل على أكثر من الظرفية، وإنما الاختراع وتام الإشارة وتام الظرف، في التركيب الذي وضعناه، فليذكر كذلك في اللغة، وليكن وضعاً جديداً من أوضاعها لخصوص ما يحب ويكره دون غيرهما، ويجوز أن تقول (أما قبلاً) بالنصب والتنوين، و(أما قبل) بالرفع والتنوين، قياساً على ما أجازته القراء في: (أما بعد، ولكن ذلك في كلمتنا يكون ظريفاً إلى غاية الظرف بين الحبيين.

وقال سيبويه في (أما بعد): إن معناها (مهما يكن من شيء) ونقول نحن في (أما قبل) إن معناها (لقد كان ما كان...)

واختلفوا في أول من قال: (أما بعد، فقيل إنه كعب بن لؤي، وقيل بل قس بن ساعدة الخطيب وهو الأقرب. ولا اختلاف في أول من قال: (أما قبل).



أن فارقتك ولقيت الناس أن الزمن قد يكون من جذبه في أنفاس الناس
حطبا يابسا وهشيما؟

وبماذا أصف مالا يوصف ولا يوجد بيانه في اللسان مع أنه حي قائم
في العين والضمير: إذ أشعر بك في ذلك المجلس وكأن أكثر معانيك
الإنسانية تتهارب من حوله لتسبغ عليك من اللطف معاني ملائكيه سامية
تتكلم بوجهك كلامًا هو شعر الحب؟

وإذا أشعر من شدة ما وجدت بك ووطأة حبك على قلبي أنه لو حل
في كرسيك شخص من معانيك لما كان إلا ملكًا موترًا في إحدى يديه
قوسًا محنية من صاعقة وفي يده الأخرى سنان يمور كالشعلة، وهو
يرمى ويطعن وما يرمى ويطعن إلا لحظًا وابتسامًا؟

بل بماذا أصف مالا يوصف إذا أردت بلاغتي أن تكون على مقدارك
وأنت تلجين على قلبي من كل جوارحي، وأراك أمام عيني تحولًا مستمرًا
في خواطري ومعاني، فلا أملك أن أفكر في شيء ثابت، كأن دلالك
قد سلبنى حتى قوة التحديد، ويأتي لك أن يخضع لى منك شيء ولو
بالمعنى للفظ في الذاكرة...؟

”وأما قبل...“ فلقد كنت وما أحسن منك في جملة ما أرى إلا أن الجمال
الرائع في معانيه الإنسانية إنما هو قدرة في بعض النساء على اختراع
أمثلة أرضية من الجنة.



وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنى بإزاء سر وضعنى فى ساعة من
غير الدنيا وحصرنى فيك وحدك، حتى ليس لك من نظرة ولا كلمة ولا
حركة إلا خيل لى أنها لم تكن فى امرأة من قبل حتى ولا فيك أنت،
وشتى بعد ذلك فرق بينهما فيك وفى كل امرأة، إذ لا تواسمك فى الحسن
امرأة؛

وهاجمتنى من يقظتى واقتحمت على من حذرى، وتركت بعض
أفكارى من بعض كالمجروح يمشى على المقتول فى معركة، ورمتنى بما
لا أجد له اسمًا إلا أنه زلزال روحى عنيف كان فى قلبى أو كأن يداً امتدت
إلى قلبى فنالته فضغطته؛

وخليتنى وعينيك وخليتنى وما كتب على.
وضاعفتك رهبتك فى نفسى فكثرت وكثرت، وضاعفتنى أيضًا فزدت
وزدت، حتى إن مع كل قوة فى عادت فكرة حبك قوة أخرى.
واتسعت روحى لتشملك؛ فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين
فى غرفتك ولكن فى داخل نفسى؛

وكان نور الكهرباء وهو يشع فى وجهك يغمغم أيضًا بكلمات من النور
لتلك الشعل التى اضطرت فى قلبى.

وملأت حياتى بك وعرفتني من ذلك أنى كنت من قبل حيًا من
الأحياء الفارغة...

وأشعرتنى أجمل السعادة، سعادة نسيان الوقت، كأنى فى هنيهة
خلقت لى وحدى تجرى بى وبك فوق المقادير.



ثم دفعت بى إلى ما وراء السعادة، إلى منطقة الأحلام التى لا يكاد يصدق الإنسان فيها أن الحقيقى حقيقى!

ثم رفعتنى إلى حس خالق، فإذا أنا أرى كيف تخلقين فى خلق معانيك لتعود معانيك فتخلقك كما أحب وأهوى^(١) وتحقق بجمالك فن عواطفى وتنشئ بعواطفى غرامى.

"أما قبل" فقد كنت موجودة معى ولكنك ضائعة فى، إذ كنا من وراء الشكل الإنسانى كالعطر والنسمة الطائفة به.

وكنت أمامى ولكنى أحتويك، وما أدرى كيف كنت مملوءًا بك وأنت أمامى؟

وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق ويلثم بعضها بعضًا من حيث لا تراها إلا عيناي وعيناك.

وكنت أقطف الحياة بالتنسم من هواء شفتيك، وكان هذه الأنفاس هى فرع ممدود من شعاع الشمس فى روحى.

وتراعت النفسان فملأنا المكان بأفراح الفكر، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة، هو عطرها للنظر.

وقلت لى بجملتك: أنا...، وقلت لك بجملتى وأنا!

(١) أى تطابق معانيها صور الفن الكامنة فى مزاجه وروحه، فتنبه فيه هذه الصور، فكانها خلقتها، ثم تعود الصور فتزين الحبيبة فى خياله بأهوائه فى الحقيقة لا بجمالها ولذلك قال شاعرنا صاحب الرسائل، لحبيبتة يوماً فى رسالة لم تشرها، ما أذلتنى بأنك كما أنت، بل بأنك كما أشتهى.



"وأما قبل..." فقد رأيت عندك الفجر وأخذت منه نهارًا أحمله في روحى
لا يظلم أبدًا.

وخالطت عندك الربيع وانتزعت منه حديقة خالدة النضرة فى نفسى
لا تذبل أبدًا!

وجالست عندك الشباب وترك فى قلبى من لحظاته ما لا يهرم أبدًا!
واجتمعت عندك بالحب وكشف لى عن مخلوقات الكون الشعرى الذى
تملؤه ذاتى فلا ينقص أبدًا!

ورأيتك يا فجرى، وربيعى وشبابى، وحبى فلن أنساك أبدًا...!

"وأما قبل..."



جواب غريب

حدثنا الصديق قال: لما بعثت إليها برسالة (أما قبل، لم يكن جوابها غير أن أهدت إلى كتابًا مطبوعًا ولم تزد على أن كتبت على غلافه هذه الكلمة "أما بعد فأليك يا صديقي جواب: أما قبل، والسلام!"^(١).

قال صاحبنا: فقرأت الكتاب سطوره وبين سطوره... وأعنت نفسى فى تأويل كل عبارة وتعرف سببها الذى أتخيله، وتبين موقعها الذى أتمثله، وجعلت أتوجه بالكلام مستقيما تارة وملتويا ثم لا أجد الكلمة التى هى من جوارحى، ولا التى يقف عندها قلبى، ولا التى تقول لى أنا من لغتها، ولا الأخرى التى عليها أثر عينيها... وكنت فى كل ذلك أرى الكتاب كأنه بين يدى يموت ويحيا من كثرة ما أقول: ليست هذه بل هذه، ولكن هذه... وجعلت لا أكاد أنس بكلمة حتى أجد الوحشة فى التى إلى جانبها، وقدرت أن الجواب ربما كان جملة قصيرة أو كلمة مفردة، فصدعنى ذلك تصديعا ذا فنون وكان مؤلفة الكتب كانت تعلم من علم الغيب أنها ستضرب بكتابتها يوما هذه الضربات على قلب إنسان من الناس، فكانت فى تأليف كلامها تصد وتعرض، وفى ترتيب مقالاتها كأنها ترتب ثورة غيظ من سببها إلى اهتياجها نشأتها إلى عنفوانها.

قال الصديق: ثم كأنى كنت دائما فى ليل طويل وطلعت على وجهى الشمس ضاحية، فإذا أنا كنت أجتهد فى غير طائل، وإذا الجواب فى آخر

(١) قلت: هو كتاب (ظلمات وأشعة)، وفى كتابنا حياة الرافعى زيادة بيان.

الكتاب صفحات متلاحقة، فضلا عن صفحة، فضلا عن جملة، فضلا عن كلمة؛ فكان هذا من ظرفها ومكرها معًا، انتهى.

وهذا نص الجواب^(١)!

لقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم للضحك من سواهم حينًا والضحك بعضهم من بعض أحيانًا.

أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوعنى، لأنى إنما أقلدهم لأريك وجًا منى جديدًا؛ وأنت، أتجاريهم بمثل قصدى أم الهزؤ والاستخفاف فيك طوية وسجية؟

ولكن رغم انقباضى للنكتة منك والظرف؛ ورغم امتعاضى للتغافل منك والحبور، أرانى وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر فى لحظات الكتمان والعبوس والتأثر.

بنظرك النافذ الهادىء تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به، فرصت ما ذكرت إلا ارتدت نفسى بثوب ففضاض من الصلاح والنبيل والكرم، متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق.

لى بك ثقة موثقة، وقلبى الفتى يفيض دموعًا: سأفزع إلى رحمتك عند إخفاق الأمانى، وأبتك شكوى أحزانى، أنا التى ترانى طروبة طيارة وأحصى لك الأثقال التى قوست كتفى وحننت رأسى منذ فجر أيامى أنا أسير محفوفة بجناحين متوجة بأكاليل!

وسأدعوك أبى وأمى، متهية فىك سطوة الكبير وتأثير الأمر وسأدعوك قومى وعشيرتى، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين

(١) لا تحسب هذه الرسالة من كتابتنا لأنها اقتباس ولولا السبب الظريف الذى جاء به لاطرحناها، على أن معانيها من أحسن ما تكتبه امرأة،

وسأدعوك أختي وصديقي "أنا التي لا أخ لي ولا صديق، وسأطلعك على
ضعفى، واحتياجى إلى المعونة، أنا التي تتخيل فى قوة الأبطال ومناعة
الصناديد!

وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان، ثم أبكى أمامك وأنت لا
تدرى وسأطلب منك الرأى والنصيحة عند ارتباك فكرى واشتباك السبل،
وإذ أسىء التصرف وأرتكب ذنباً "سأسير إليك متواضعة واجفة فى
انتظار التعنيف والعقوبة، وقد أتمد الخطأ لأفوز بسخطك على فأتوب
على يدك وأمتثل لأمرك... وسأصلح نفسى تحت رقابتك المعنوية مقدمة
لك عن أعمالى حساباً. لأحصل التحبيذ منك أو الاستنكار فأسعد فى
الحالين، سأوقفك على حقيقة ما ينسب إلى من آثام فتكون لى وحدك
الحكم المنصف.

وما يحسبه الناس لى فضلاً وحسنات فسأبسطه أمامك فتنبهنى إلى
الغلط فيه والسهو والنقصان.

سنقومنى وتسامحنى وتشجعنى وتحتقر المتحاملين والمتطاولين
لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جنانى: كما أكذب أنا وشاية
منافسيك وبهتان حاسديك، ولا أصدق سوى نظرتى فيك وهى أبر شاهد
كل ذلك وأنت لا تعلم^(١).

سأستعيد ذكرك متكلماً فى خلوتى، لأسمع منك حكاية غمومك
وأطماعك وآمالك، حكاية البشر المجمعة فى فرد واحد، وسأسمع إلى
جميع الأصوات على أعثر فيها على لهجة صوتك، وأشرح جميع الأفكار

(١) فى هذا الأسلوب تظهر الروح النسائية الحية الكاملة، إذ تعتبر الحبيب وجودها كله كما ترى، ونبيه
القارئ إلى أننا لم ننس ألفاظ هذه الرسالة

وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاطم تقديري لأرائك وأفكارى وسأبتين
فى جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هى شاحبة تافهة
لأنها ليست صورة تعبيرك ومعناك، وسأبتسم فى المرأة ابتسامتك فى
حضورك، وسأتحول عنك إلى نفسى لأفكر فىك، وفى غيابك سأتحول
عن الآخرين إليك لأفكر فىك!

سأتصورك عليلاً لأشفيك، مصاباً لأعزيك مطروداً مرذولاً لأكون لك
وطناً وأهل وطن، سجيئاً لاشهدك بأى تهور يجازف الإخلاص، ثم أبصرك
متوقفاً فريداً لأفاخر بك وأركن إليك.

وأتخيل ألف مرة كيف أنت تطرب، وكيف تشتاق، وكيف تحزن،
وكيف تتغلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة
إلى الانفعال النبيل؟ وسأتخيل ألف مرة إلى أى درجة تستطيع أنت
أن تقسو، وإلى أى درجة تستطيع أنت ترفق، لأعرف إلى أى درجة
تستطيع أنت أن تحب!

وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخورا، لأنك أوحيت إلى ما
عجز دونه الآخرون.

أتعلم ذلك، أنت الذى لا تعلم؟ أتعلم ذلك، أنت الذى لا أريد أن تعلم...؟
هناك فى تلك الزاوية الضائقة، حيث أقام القدر من دواهيته على
صدرى جدران الحديد ومعازل الرصاص، وهنالك قرب حلول الشفق،
برزت فجأة أمامى، وأخذت تتكلم عن معانٍ اختفت طى المعانى؛ وأشياء
توارت فى الأشياء، وممكنات حجبت فى المستحيلات.. وكانت يدك
تتحرك متريئة متأنية فبدت الإشارات سحرية ساهية، كأنما هى انعكاس
إشارات خفية على المرايا المتبحرة فى مهجور القصور، وضاء الجو

حولى بلألاء الشرف والأبهة والسؤدد، ومشى نظرك توا إلى يكتشف فى
جديد العوالم!

نظرت فعلمتنى إعزاز الوجود، وأدركت أنى ما تخليت أجلى عند
حينه إلا لأ تشدد وأتحفز لوثة كبيرة، كما يتنفس المتسابقون منتعشين
متجددين قبيل خطير الأشواط.

فارتدت الحوائط قليلا قليلا، وتنحت الحصون مسفرة عن المروج
والرياض، واتشحت الكائنات بنقاب وسيم لا تنسجه سوى يد الوجد على
زعم المتيمين! ولكن، أنى جاء الوجد؟

أنت لم تكن تهتم بى وأنا لم أكن أهتم بك، ولكن علام تشل أوصال
روحي للذنو من مكان حلتته؟

وعلام اضطربك وارتعاش يديك إذ تلمح خيالى عن بعد؟

أنت لم تكن تنظر إلى، وأنا لم أكن أنظر إليك، ولكن لماذا كانت تتبلبل
خواطرى وأهرب عند قدومك؟

وأنت إن لم تستطع السكوت فلماذا يخرج صوتك متقطعًا متهوجًا
كأنك تجاهد لتقهر تأثرًا ما؟

أنت لم تكن تعبأ بوجودى. وأنا لم أكن أعبأ بوجودك ولكن لماذا كنت
أخاشنك متعملة الإعراض وعدم الانتباه؟ لماذا وأنت مثال الوداعة
والتهذيب، كنت تكفهر لحضورى وتنقبض كمن يود أن يتجنى على أو
كمن يخشى أن يرمى بالبشاشة والمجاملة، ثم يعود نظرك فى المرة
التالية يستصفحنى عن زلته؟ أنا التى كنت أغتفر لك وأتناسى قبل أن
تحدث نفسك بالاستغفار!

أنت لم تكن تفكر فى، وأنا لم أكن أفكر فىك، ولكن لماذا كنت أحميد عن

طريقك لثلا ألتقى بك، وأنا التي أود أن أبحث عنك فى كل مكان؟ ولماذا كنت تتقن خطواتك إذ تعلم أنى أراقبها، وتنغم نبرات صوتك وتنوعها إذ تعلم أنها واصله إلى؟

أنت لم تكن لى شيئًا، وأنا لم أكن لك شيئًا ولكن وجوه القائمين حولك كنت أراها متألفة بنورك، وأنت كانت تدهشك كل حركة منى كأنها لم يأتها قبلى إنسان!

أنت لم تكن لى شيئًا، وأنا لم أكن لك شيئًا، ولكن أليس أن إرادتك حلقت فوق خواطرى كيد أمره، فتقت لأجلها إلى الطاعة والخضوع؟ أو ليس أنك كنت تحاول إرضائى وإثارة إعجابى حتى ارتفعت بذلك فوق ذاتك المألوفة فتجليت بهيّا عظيمًا؟

من أنت؟ وماذا كنت؟ أكنت وحيًا من فيض شاعريتى المكتظة، وطيقًا من أطياف شوقى وعذابى؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرت فى أفق حياتى مرور السفن فى البحر إلى الشواطئ النائبة؟

لقد كنت وحيًا من فيض شاعريتى المكتظة، وكنت طيقًا من أطياف شوقى وعذابى، أنت حقيقة محسوسة مرت فى أفق حياتى مرور السفن فى البحر إلى الشواطئ النائبة.

يا مهذبى..!



كذب مصور

يا حبيبا إذا حننت إليه حن فى رقتى عليه حنينى^(١)
أنت شخصان فى الفؤاد ف شخص عند ظنى، وآخر فى يقينى
واحد كيف شئت أنت، وثان كيفما شئته أنا و ظنونى
لا بهذا رحمتنى أو بهذا بل بعقلى عذبتنى وجنونى!
أملى فىك كالخيال على المرأة كذب مصور للعيون



(١) أى لحنينه فى الرقة والوجد حنين أيضا، كأنه صوت عليه معانى البكاء

لماذا .. لماذا؟

وكتب إليها^(١):

قرأت كتابك وهو أسطر قليلة، ولكنها إما ساحرة أو مسحورة فلقد خيل إلى أنها تنتهي، إذ كنت فيها كأني أطارد معنى فأرًا مذعورًا لا تمسكه الألفاظ فلا يبرح فوق السطور، إذا بلغ آخرها وثب إلى أولها فإذا كان في أولها عاد إلى آخرها، دوايك بدءًا وعودًا^(٢) ويتلجلج مثل ذلك في صدري فلا ينتهي حتى ينتهي عنه.

تقولين يا حبيبتي: "أى شىء عندك هو جديد فى؟ ولماذا لا ترانى رؤيتك غيرى؟ وكيف بعدت فى نظرات المسافة بين وجه امرأة ووجه امرأة أخرى؟ وهل فى وجوه النساء طريق متشعبة تذهب برحل يمينًا وتلتوى لغيره شمالًا تتوافى إلى غاية وتتفرق عن غاية؟ ثم ما الذى جعلنى عندك لغزًا لا تفسير له، وجعل النساء من دونى وأضحات مفسرات كألفاظ الحياة الجارية فى العادة والواقع، المبدولة بمعانيها لمداولة الأخذ والعطاء، على حين تزعم أنى كالعبارة العقلية التى يضرب فيها الظن على وجوه شتى، وأنى كما تقول: كلمة بسرها؟

"لا أكاد أفهم يا صديقى معنى "كلمة بسرها"! ولا معنى قولك الذى قلتة لى: إن الحب فىك أنت كتعتيق الخمر: يضيف إليها الوقت كل يوم أسرارًا

(١) من ظرفها أنه لقبها بعد هذه الرسالة، فابتدرته ضاحكة وقالت: هل أحضرت معك لماذا!..

(٢) دوايك: أى مرة بعد مرة.

وقوى وخيالاً وعملاً وسطوة ورقة وأراه فى سواك كتعتيق الماء...^(١) لماذا
لماذا ليس عندى جواب كلامك وإنما هو عندك، إذ تجاوز قدر معرفتى يا
صديقى، فلماذا لماذا؟

”وأما قبل... يا صديقتى فلا أزال أقول لك ماقلتة: إن من النساء فى
مقابلة أشعة النفوس معانى فمعنى كحائط، ومعنى كمرأة: وواحدة نمسخ
ظلاً طامساً أرانى فيها تحت الشعاع كأنى ظل ممدود على التراب،
والأخرى تبرق وتلألأ وأرانى فيها سويًا كاملاً كأنما خلقت فى ضوءها.

ومن النساء فى مقابلة أهواء القلوب معان فمعنى كالقفر، ومعنى
كالحديقة، وواحدة يكون وجودها حول فراغها... والأخرى وجودها
القلب فهو حولها.

”لماذا لماذا“ لأن الإنسان غامض وتفسيره ليس فيه، ولا بد من تفسيره
وإلا كان كل شىء عبثًا. إن الوجود كله مفسر للطفل تفسيرًا صغيرًا مثله
فى حب أمه وحنانها، وقد يكون ثدى الأم مثالاً مصغرًا من الكون كالمثال
المصغر من كرة الأرض فى تعليم الجغرافيا، بل الأم تفسير على قدر
العقل لرحمة الألوهية نفسها.

وكذلك تبدأ الحياة من أول أنفاسها بالحب، ولعل أول قبلة على وجه
الطفل من أمه ساعة ينفصل منها إنما هى استقبال الحب لهذا الإنسان
الجديد ومسه من شفتى أمه بالطابع الذى لو قرىء نقشه لكان هكذا: أنت
وحدك

فإذا كبر الوليد فلا بد من تغيير فى أسلوب التفسير حالاً بعد حال،

(١) تعتيق الخمر هو إحيائها وإصلاحها وقوتها، وتعتيق الماء: إماتته وإفساده وضعفه.

ولا يزال كذلك تغييره الأشياء والحوادث حتى يبلغ أسلوب الفلسفة العليا إذا انتهى إلى العشق، وحينئذ تكون قبة الحبيبة إنما هي استقبال الحب لهذا الإنسان المتجدد ومسه من شفتى حبيبته بالطابع الذى لو قرىء نقشه لكان هكذا "أنا وحدى..."

لذلك أنت يا حبيبتي الفلسفة العليا، وأنت "كلمة بسرها"، أما غيرك من النساء فجمالها عندي: جمال الشكل لا جمالُ السر.

ومن ثم فهي مفسرة واضحة، إذ يرى قلبى فيها ما يعسر فهمه ولا ما يبحث عن تفسيره ولا ما يفسر لى شيئاً من المعانى.

ومن ذلك فليس الجمال المعشوق إلا انطواء الجميل على أسرار مبهمة، وبذلك فكل نظر فى المرأة لا يرجع إلا بزيادة الوضوح فيما يعلو منها وما ينزل^(١)، على حين كل ما فى الحبيبه يزيد على تكرار النظر غموضاً كأنه شيء جديد، ودائماً شيء جديد، ويأبى جمالها أن يفسر، إذا كان تفسير الشيء إنما هو إضافته إلى ما فزعت النفس منه، وبهذا وذاك فما دام الحب قائماً فكل ما فى الحبيبة من تكوينها وأوضاع جسمها وشمائلها ومعانيها إنما هو (مضاعفات) للمرض بها.

"لماذا لماذا؟" لأن الحب يريد أن يثبت أنه الحب، وأنه تحقيق كل إنسان روحانيته فى غيره، ليشعر بما هو أسمى من شعوره الإنسانى، وأنه امتلاء حياة بحياة لندرك معنى الكمال. فلا يكون الحب إلا كمال الوجود الإنسانى لشخص ما فى وقت ما بمعنى ما.

(١) أى فى محاسنها ومقابحها، فترداد النظر يزيد ذلك وضوحاً فى النساء إلا الحب، فهو لا يزيده إلا تأويلاً، كأن هناك معنى لا يستقر.

ومتى حققت الروح وجودها فى روح محبوبة وامتلات حياة حياة صار لها عالمها الخاص بها، وعادت قوانين عالمتا هذا لغوا هناك، وارتفع الحب على أن يكون صلة أو اعتبارًا. كما يقع بين الناس فى الوجود الإنسانى الذى يسع الخلق جميعًا- إلى أن يصير حقيقة وحياة يعملان بقوانينهما فى الوجود القلبى الذى لا يسع إلا اثنين من الخلق.

إن جمالك أيتها الحبيبة ليس جمالك كما تظنين، وإلا شركتك الحسان فيه: لكنه بكلمة واحدة فن قلبى أنا!

والحياة التى تفيض عليك تملؤك وتملؤنى معًا، ولذلك فكل معنى منك له معنى آخر فى.

وأنا لا أعرف الحب إلا أن أفيض من وراء حدودى فأنفذ بروحى إلى جمالك ومعانيك، وأنفذ من معانيك وجمالك إلى كل ما يتلقانى فى هذا العالم بجمال أو معنى، فكأنك أنت السر، وكأن جمال الوجود ليس شيئًا من ناحيته إلا معرفة أن لكل صورة معناها، فإذا هو جاء من ناحيتك فلكل صورة معناها ومعنى زائد فيها كما أراها بنظر الحب، وبهذا يرجع العالم وإنه فى نفسى عالم تعبير فتتسع به ذاتى وتتطور الإنسانية فيها وتدنو من أصلها الإلهى، وأكون قد أحببت والمعنى أنى استضأت بالقبس الأزلى الذى أضرم الشمس والكواكب، وأصبح دمتى لا يجرى بل يشتعل ويتوهج، وعاد قلبى لا ينبض بل يرتج ارتجاج الأفلاك فى مداراتها.

وأكون بالحب قد وجدتك، والمعنى أنى وجدتتى، إذ كانت نفسى تنقصها المرأة التى أراها بها رؤية قلب وأكون قد عشقت والمعنى أنك أدخلت على قلبى حاسة تشيع السكون كله فى أو تشيعنى أنا فيه،

حتى لا أفرح ولا أحزن إلا بمقدار يملأ الوجود، حين بك وحدك أفرح
وأحزن!

"لماذا لماذا؟" لأن الحياة فى هذه الأرض الثقيلة المستوحمة هى
مثلها مادة، مهما تنوع بقى لها أصلها الجاف الثقيل، كالشجر: مهما
يكن عمله من تحويل التراب فيلبس من الأخضر والأبيض والأحمر
وغيرها من الألوان، ويثمر بالحلو والمر، فإن جذوره على ذلك لا تعرف
الأخضر ولا الأحمر وليس لها إلا شيئان، ترابها وعفن الأرض... فلا بد
لهذا المنجم الترابى الإنسانى مما يغلى قيمته ويشعره أن فيه ألماً
أو ذهباً أو فلذة من أفلاذ الجمال كائنة ما كانت، وهنا عمل الحب
موضعه سحره فهو يأتى بالمعشوق ويمكن لمعانيه فى القلب وبيضع
ابتسامات ولحظات وكلمات وحركات يكشف من قلب العاشق عن كنز
عظيم من الأحلام الجميلة التى تخفق خوافق السماوات والأرض^(١)
فإذا القطعة البشرية العادية من النساء والرجال قد تحولت بالحب
إلى قطعة فنية نادرة لا نظير لها فى جمال الكون وعلى ما يصف
الواصف لا يبلغ ما هى أهله فى رأى محبها، إذ هى تخلق فى نظره
ضوءاً لها خاصة يرفعها فوق المادة وفوق الحقيقة، فكل ما تبصره
العين الإنسانية وإنما تراه للفكر أو للعاطفة وحسب، أما هذه فتراها
عين محبها للفكر والعاطفة، ثم للجمال والفن، ثم للشهوات والآمال،
فلو أن جنة الله تحيا على الأرض فى امرأة ما عدتها.

بل يرى المحب كأن سر الحياة أخذ يتجلى له ويعمل أعماله على
عينيه: فكل شئ من الحبيب جديد مع أنه هو هو من قبل، وكل ما يصدر

(١) أى تملأ ما بين السماوات والأرض.

منه ففيه روح وخلق ينبثق لساعته، إذ كأن سر الحياة هو الذي يتحرك في كل هذا ويستعلن به للنظر للعاشق.

ومن هذا تتغير الطبيعة نفسها في أعين المحبين، إذ لا يكونون منها في الحقيقة- بعمل ذلك السر- إلا بإزاء قصة عشق ممثلة في الطبيعة ولها ممثلون وممثلات من الأنهار والأطيار والأشجار والأزهار والألوان والأصوات والنجوم والشمس والقمر وما في السماء وما في الأرض، على حين ليس في الطبيعة لغير المحبين إلا مناظرها!

ألا إنه بالحب وحده يحيا الإنسان أكثر من حياة إنسان، وتكون الطبيعة أكثر مما هي ويزيد كل شيء في حس العاشق لأنه هو زاد بحبيبه.

تسأليننى "لماذا لماذا" لأنك لأنك... يا حبيبتي؟



كتاب لم تكتبه...

"وانقطعت كتبها عنه مدة، فرأى أن يجرى فى طريقة بعض الأساليب السياسية التى تخلق الواقع متى شاءت كما تشاء، فتوهم أنها كتبت إليه كما يجب... ثم رد على رسالتها".

وصل كتابك أسرع... مما قدرت، فعلمت أن قلبك أشفق على وحشى أن أتألم إذا انتظرت، وتناولته فأحسسته فياًصاً بمعانيه إذ كان فى يدي كأنه لهفة قلب مجسمة، حتى ما شككت أن كل كلماته كانت خفقات.

وفضضته فطالعتنى منه صحيفة تضطرب بأشواقها كأنها رجة صدر عاشق أمسكت فى زفراتها وطويت وختم عليها وجعلت رسالة! ونظرته فإذا هو ترجمة شخصك فى حسنه وجماله وظرفه، وابتدرتنى منه جملة باسمه أمطرتها لثماً، إذ خيل إلى إنها ترجمة عن شفتيك.

وقرأته بفكرى كما أقرأ نظراتك وابتساماتك ورجفات الدلال على جسمك حين تتناثر أفكارى عليه فإذا فى موقع كل فكر على هذا الجسم الفاتن خطرة دلال أو اختلاجة صباية أو انشاءة تيه أو هزة نشوة، وإذا معانى الجسم تجوب معانى الفكر، وإذا روح الجمال ترتعش بك من لمسات الحب.

وفهمته كما أفهم حسنك الذى جعله الحب من أسرار قلبى، فجعله القلب من أسرار روحى، فجعلته روحى من أسرار الكون، فأظهره الكون كأنه ومضة من النور القدسى أحبت أن ترى رؤية وله وعبادة فكان

سطوعها فيك أنت، وكان الخشوع لها في قلبي أنا، وذهبت بي كل مذهب تقديسًا وخضوعًا ومحبة ووقف الهوى بي عند قولك... وهو كلام كما أرفهته لحاظك تفتحت له جراح قلبي وانصب يكلمها فتجاوبه ألقًا ودما. وعند قولك... وهو كلام كما عرفت عليه أنفاسك احتر إليه صدرى الهائم فاقبل يتخطفه يتنفسه يقطف منه الحياة. وعند قولك... وهو كلام كما رنت فيه ضحكاتك طربت له روحى فاهتزت له هزة حسبتها تناولت الكون أو تناولها.

وعند قولك وهو كلام كما غرت فيه نغماتك انسرقت له حواسي^(١) فكدت أظن أن فرحة من الخلد لم تجد على الأرض إلا هذه النغمة من صوتك تحملها دون أن يتغير مدار تأثيرها السماوي.

ثم انتهيت يا حبيبتي إلى قولك... وهو كلام لم أجذك فيه^(٢) كأنه كان بدء اليقظة من حلم الكتابة إلى محبك، وأول تباشير البياض الذى ينتهى عنده سواد الأسطر.

وعجبت يا حبيبتي من قولك... وهو كلام إن كانت ألفاظه وجدت فمعانيه غير موجودة، وإن كانت فى هذه الأرض من له روح تفتح وتغلق^(٣) فهو أنت، ولقد جعلت كلمتك الأخيرة كأنها باب أقفل فى وجهى...

ولكنك لما بلغت اسمك يا حبيبتي ارتدت عنه الحاظى مكرهة من قوة فى نفسى، وبهذه القوة التى أغمضت عيني قرأت اسمك بشفتى.

(١) أى استرخت ذهولا، ويقال: انسرقت مفاصله، إذا ضعفت فاستعملناها كما ترى.

(٢) يريد أنه كلام كالكلام المألوف ليس عليه أثرها حبيبة ولا محبة، كأن تذكر حادثة أو تسأل عن أمر.

(٣) الظاهر... أنها اتهمته فى آخر كتابها... بالسلو بعد الحب ثم أظهرت غضبها من ذلك فى كلمة هجر.

ثم لم أملك نفسي أن قبلت الكتاب ألقًا وألقًا، حتى خيل إلى أنى أكلته وشربته، لما نظرت فلم أر فى يدي شيئًا تيقنت أنى أكلته وشربته... وأطيب ما كان فى!

يحاول لى ولخيالك! إنما أنا معه كالسياسى إذ يقبل سياسيًا بعد معاهدة بينهما، فيمسه بشفته مسة ليس لها إلا طعم ورقة مكتوبة...

وآه كم تتمثلين لى وكأنك لا تزالين فى ذلك الموقف... تحاولين بذلك وألفاظك أن تدخلى إلى نفسى من غير أن تدخلى وأراك وما أراك إلا روحى الخارجة عنى، فأحاول بأساليب الحب الكثيرة أن أردّها إلى وهى لا بد لها أن تبقى خارجًا لأنها جسم آخر! وأنا لا بد لى أن تكون فى لأنها روحى الأخرى.

خلد على قلبى ذلك الموقف منك، فلا بد لك ولا بد لى، وبينهما لا بد ثلاثة، لا بد من تألمى وعذابى!



١١١ أنى انتهى عند أذ ما فيه.

قالت وقلت

هذه رسالة تجمع من كلامها وكلامه مما كان يتساقط به الحديث بينهما، وقد دونها هو في مجالس شتى، وكل فصل من هذه الفصول كان يصلح أن تبني عليه رسالة طالت أو قصرت".

فى بعض القصص أن لإحدى الغابات ملكًا يحكمها، وكان من شريعتها أن لا يتبوأ عرشها إلا من يذبح الجالس عليه... فالملك فيها أبدًا يقظان منتبه عيناه من سلاحه، ولا يزال السيف فى يده مصليًا ولو أن فى كل إصبع من أصابعه سيفًا قاطعًا ثم غفلت عيناه غفلة لما نفعته عشرة أسياف، ولكانت إغماضته الموت لا محالة، ومع هذا الشقاء الحى فإنه يأتى إليه من يذبحه ليجلس فى موضعه، أى لينتهياً للذبح!

أما والله إن عاشق بعض النساء... لكالجالس على هذا العرش كل لذته من بلائه أنه لم يذبح بعد...!

الموت ينتزع الروح، والهجر يترك الروح كأنها منتزعة، فهو موت لا ينتهى!

أىكون الحب فى الحقيقة هو قدرة شخص جميل على تزوير نفسه وتزوير الكون فى نظر شخص آخر؟

قالت له: لم أعدك شيئًا!

قال: نعم لم تعدينى بلسانك، ولكن وعدت بما فيك من الشفقة ما ترين
فى من الاضطرار!

لو ائى سميت النهار ليلاً والليل نهاراً لا نتقل السواد والبياض إلى
اللفظ بسهولة، ثم لا يكون ليل الله ولا نهار الله، فاجعلى لى منك دقيقة
واحدة واقعة على زمنها وخذى الثلاثمائة والستين يوماً كلامياً، دقيقة
إنجاز ولا ولا سنة مواعيد!

أأنت تخطينين؟ أما إنك لو تكلمت خطأ صرفاً لكان وجهك وحده
برهاناً وحجة!

ألم أرمثل هذا الفم الجميل: إذا أفتر أفتر عن ابتسامه، وإذا انطبق انطبق
على هيئة ابتسامه، هو دائماً إشارة أو تعبير، هو دائماً تعبير أو إشارة.
عند ما أراك لا أتمالك أن أطرب وأهتز، أفهناك ألحان من جمالك تنطلق
فى؟

قالت له: كلماتى لا تتم بمعانيها ولكن بفهمك أنت لمعانيها!
وقالت: إن ساعة كتابتى إليك هى ساعة من الحياة معك وإن كنا على
بعد!

ليست المسكرات ولا المخدرات هى ما يعدونه من كذا وكذا، بل ومنها
النظر إلى بعض الوجوه، والفكر فى بعض الناس!...

إنك تتكلمين ولا تعرفين أن وجهك ينقح فى معانى كلامك.
فى الحب درجة من درجات الملائكة يرتفع إليها من قدر أن ينسى
من حبيبه المادة الإنسانية وهى مائة عينيه وحواسه، أه أشق أن يتحول
العاشق فى حبه إلى شريعة، ولكن ما ألد أن يتحول!

من العجيب ألا يكون المحزن فى الحب إلا وسيلة لزيادة جمال
الحبيب باهتياج محبه والتياغه، فهموم الغرام أشبه (بعلميات) جراحية
فى العواطف لترقيقها وإرهافها، كيما ترى أحسن مما كانت ترى، وتحس
أكثر مما كانت تحس!

هل الطبيعة الإنسانية بتأليفها بين حبيبين تضرب المثل على إمكان
هذا الائتلاف بين الجميع؟ أم على استحالة إمكان التألف الصحيح إلا بين
اثنين فقط من الجميع...؟

العقل يدل على نفسه بالنظر فى الكون ويعبر عن ذلك بأفكاره. والقلب
يدل على نفسه بالنظر فى الحبيب ويعبر عن ذلك بأشواقه.

كل كلمة فيها معناها، وحين تكون الكلمة منك يكون فيها من معناها
ومنك...!

قالت: أنا فى نفسى كما أنا، ولكنى فى حبك كما أرى، فأنا أكتشف
نفسى الجميلة فىك، وبهذا أجد حبك من عظمتى وسرورى!
إن مواعيدك من الكلام الذى يموت دائمًا بمرض النسيان!

قالت: ينصح علماء القوة والرياضة للرجل القوى ألا يغضب فيذهب
على الأقل نصف قوته، وأنا أنصح لك أن تغضب فتزيد قوتك على الأقل
بقدر نصفها...!

أساس الحب شىء خاص لا يعرف إلا بالشخص الذى هو فيه، وحينئذ
فليس فى الوجود كله مثل الشخص الذى هو فيه.

كمال لذة الحب حين تتأخى الإرادة مع الإرادة، لا حين تتنافر أو
تتعدى.

ليس فى الحب مسافات، فالمتحابان مجتمعان دائما فى فكرة وإن كان أحدهما فى المشرق والآخر فى المغرب.

قالت له: إذا كنت تريدنى سماء تستوحىها وتستنزل منها ملائكة معانيك فلماذا تنكر على أن يكون لى مع أنوارى سحاب وظلمة ورعد وبرق؟

من تأله الجمال أن الحبيبة لا تريد الحقائق من الطبيعة إليها بل من الطبيعة إلى محبها أول، ثم من المحب إليها بعد... تريد فى حقائق الكون شعور تقديس الله وشعورًا آخر بتقديسها هى أيضًا! دولة ضعيفة: ولهذا لا يكون معه أبدًا إلا كالمستعمرة...



الغضب^(١)

تحير قلبي وهو ممتلىء بها كما يملأ المرأة ناظرها ظلا
بأى مكان فيه قد حل شخصها وأى مكان شخصها فيه ماحلا؟

لقد غضبت وكر هجرها على وصلها، وانشق لزمن زمين، أحدهما
مثلها غضبان مبتعد وكأنما كان لها خاصة، فلما ذهبت لحق بها.

إنه الحب يخلق بها خلقاً فيَّ وبزمنها خلقاً فى زمنى، ليشعرنا بهذا
التغيير الخالق المتصرف أننا لا نتحاب فى ذات نفسينا، بل فى الجلال
الأعظم الذى منه نفسها ونفسى، فإذا تغاضبنا وقسمتنا أهواءنا رجعنا
قطعتين من المادة ليس فى كليهما إلا قانون الثقل... وزادت عواطفنا
وزناً جديداً من الغيظ!

أين زمنها؟ لقد فرغ وقتى منه حتى يخيل إلى أن اليوم الذى هو أربع
وعشرين ساعة لا يكمل لى بعدها عشرين وأربعاً. وأنظر فى ساعتى فإذا
كانت السابعة مساءً والتي إليها والتاسعة التى معها^(٢) شبه لى وغم على
وحسبت أن فى هذه الساعة منطقة خارجة عن الزمن تخطاها العقرب
ولا يشير إليها.

(١) لما تغاضبا كتب هذه الرسالة فيما كتب لنفسه، لا ندرى ماذا كتبت هى.

(٢) كانت ساعات اللقاء بينهما على ما يظهر.

وإني لأحمل في غضبها من الهم ما لا أرهق بأوجع منه لو عاداني كل من معي وجفاني كل ما حولي، ولكانت والله قد هانت لو أنها غضبة عدو، ولكنها غضبة حبيب هو بحبه فيها.

يا ظلام القمر كيف تكون ظلامًا وقد تعلقت بمخلوق النور؟^(١)

كلا كلا! لقد غضبت لتزيد في أسرار حبيها سر الماضي، ولتتمر على أيامها اللينة بمسحة من القسوة تخلق فيها إلى جمال الحقيقة جمال الذكرى.

وكانت... وتريد أن تأتي في الحب من وراء ما كانت فذهبت وهذا في فلسفتها هو المجيء من وراء ما كان. فما غضبت إلا لتعطيني الرضا من بعد.

الفرح بالجمال لذة تقتل نفسها، ولا يمسك على الجمال روح النعمة خالدة في القلب إلا الحزن به أحيانًا: كيوم الغيم، ترى في سمائه قطعًا كأنها الهاربة من الليل، تختبئ الشمس فيها ثم تسطع من بعد سطوعًا يخيل إليك أنها ما توارت في خيمة الغمام إلا لتنضو غلائلها الشفافة وتتعري.

يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنا، إذ كان بذله يفنى منه على قدر ما يعطى فإذا هو امتنع وعز مناله كان جمالاً في نفسه بمعانيه وجمالاً فينا، بالمعاني التي هي فينا، وكان له من اجتماع الحاليتين حالة جمال ثالث هي في ألم الرغبة المستمرة أو ألم الغيظ المجنون،

(١) أي تعلقت بالقمر.

ومتى خلق لنا الجمال من قصر الزمن طول الزمن، ومن المتاع بالحسن العذاب بتمنيه، ومن الحبيبة الراضية حبيبة هاجرة، ومن الحاضرة غائبة، فقد ارتفع عن إنسانيتنا وجاءنا من ناحية سره الإلهي.

كلا كلا! لقد غضبت لأحبها صورة مبهمة ليس فيها إنسانة بل حب إنسانة وانتزعت نفسها منى بعد أن انتزعت لنفسى كل معانيها التي جعلتها ما هي^(١).

ألا يا ثمرة أفرغت في قلبي عصيرها الحلوا! لئن بقيت ثمرة في لغة نفسك فإنك القشرة في لغتي أنا...

إنه ليس معي إلا ظلالها، ولكنها ظلال حية تروح وتجن في ذاكرتي، وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كائن لا يفنى وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجمًا إلى لغة عينيه أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فائن مترجمة بجملتها إلى لغة فكري.

كان لها في نفسى الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه، ثم خضوعي لها خضوعًا لا ينفعنى... فبدلتني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله، ثم خضوعها لخيالي خضوعًا لا يضرها.

وما أريد من الحب إلا الفن فإن جاء من الهجر فن فهو الحب...

كلما ابتعدت في صدها خطوتين رجع إلى صوابى خطوة!

(١) أنه لا يحبها إلا إذا انطبعت معانيها فيه وأصبحت كالأجزاء من حياته وفكره فإذا هي تركته بعد ذلك فلن تنزع منه شيئًا مما جعلها عنده هي

كلا كلا! فلا صواب مع مادة الفتنة، وهل يفتتن الإنسان إلا حين يظهر
مجنوناً بأسمى ما فيه من العقل؟

أنا عاشق أضم الطبيعة فى مهجتي مصغرة فأنا الأكبر... إن هذا لجنون
ولكنه عقل... وأنا عاشق أفسر الطبيعة فى هذه الحبيبة فهى الأجل... إن
هذه لعقل ولكن جنون!

وقد كانت لهذه الحبيبة نظرة معنوية هى مفتاحها فى قلبى وهأهى
نى غضبى نافرة لا أراها ولا ترانى، ولكن المفتاح لا يزال يدور فى قفله...
أجنون هذا أم عقل...

وهى الحبيبة ولكنها كالعدو: صورة من أقسى ما فى الطبيعة جاءت
تمضى فى قانوناً من عقوباتها؛ أعقل هذا أم جنون؟

لن يقال فى الذى تحمله عاصفة وتطير به: إنه مسافر فى طيارة...
ولا فى الذى رأى صورة دينار فى مرآة فحطم المرآة ليأخذ الدينار: إنه
وجد شيئاً...

ولكن يقال فى الذى دلّه الجمال وشفه الحب^(١): إنه فى نعيم الهوى.
وفى المحب الذى يحطم الذى يحطم قلبه على امرأة إنه وجد الحب...

كلا كلا يا قلبى! إن الغضب يجمع جنون الحب من شخصين فى
شخص واحد: هأنذا يحوطنى الآن هدوء الأشياء، وابتسام الجمال
الأزلى المفتر عن نور الدنيا: أنا فى كل ذلك ولست فى هدأة ولا ابتسام
غريق فى البحر ولا بيتل...!

(١) التدييه، ذهاب العقل من الهوى، وشفه الحب: إذا لدع قلبه.

لعمري لو غضب قاع الأقيانوس غضبة حب لا نتفخ به الغيظ حتى
يعلو فوق الماء جزيرة جافة فلا يتندى ولا يبرق ولا يعود إلا حلقة غيظاً^(١).
فليكن ما طاوع منى هو الذى يأبى، وما أحب هو الذى يبغض ولنأت
على الحب غابرة الدهر وآخرة الليالى^(٢) ولو ترامى بها غضبها إلى قتلى
لوعة وكمدًا!

لقد أصبحت أرى ألبين العطف فى أقسى الهجر، ولن أرضى بالأمر الذى
ليس بالرضى، ولن يحسن عندى ما لا يحسن، ولن أطلب إلا فى عصيان
الحب؟ أريدها غضبى، فهذا جمال يلائم طبيعتى الشديدة، وحب يناسب
كبريائى، ودع جرحى يترشش دما، فهذه لعمري قوة الجسم الذى ينبت
ثمر العضل وشوك المخلب، وما هى بقوة فيك إن لم تقو أول شيء على
الألم...

أريدها لا تعرفنى ولا أعرفها، لا من شيء إلا لأنها تعرفنى وأعرفها..
تتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوتى. صمت ضائع كالعبث ولكن له فى
القلبين عمل كلام طويل...

أما والله ما أدري أحاجتى فى حبها كانت إلى عزيمة أم إلى الصبر أم
نسيان أم خضوع؟

يا رواجف صدرى! كل ذلك ليست منه فائدة ترجى، فإن حاجتى ألا
أكون عرفتها من قبل!

(١) أى ينقلب قفراً متحجزاً كأنه حلقة غيظ وهينة عناد.

(٢) كناية عن انتهائه وذهابه فى الزمن.

ويا قلبى، ما هى المعجزة التى يمكن أن تمنع الأمر الذى وقع بعد ما وقع...

كلا كلا! ما ذهب الحب، وإن الذى يكذب حبه بإظهار غيظه من الحبيب ليكذبه الغيظ، وإذا انتهى أمر من الأمر وبقي فى نفسك حبًا فما انتهى. كلا كلا! ما استوفيتك يا رسالة الغضب فما أكثرك عندي فنوتًا وما أوسعك معانى فى نفسى.

كلا كلا! فلو أنى كتبتك ملء ليل مظلم طال على محموم. ثم اطلعت هى عليك فاغضبته ثم جاءت... جاءت تسألنى... تسألنى. أنت كتبت هذه؟

آه، تالله إن أجبتها إلا! كلا كلا!...

ولست أطيل فى زينتك يا رسالة الغضب، فإنك كالنعش: لا يزيينه قوم إلا ولهم ميت!... كلا كلا!



هدية شتم...

نشرت مرة في بعض المجالات الفرنسية مقالا فهم منه القراء كلمات نبيلة، وفهم هو منه كلمات شتم فكتب هذه الرسالة^(١):

في الحب يتكلم قلب المرأة العاشقة بمنطق فصيح من أعمالها، فأعمالها عندها على طريق اللغة والتعبير قبل أن تكون لعدة أخرى من العلل، فإذا أنت حملتها على ظاهرها وكنت المقصود بها فقد جزت بها عن طريقها وأخطأت سحرها وجمالها، بل تكون قد أهنتها وابتذلت المعنى السامى المخبوء لك فيها ليكون لك وحدك.

قد تشتمك من تحبها لأنها تحبك وتعزك، ويأبى لها شعورها بكبرياء الحب إلا أن تنبذ لك بلفظة متكبرة وهي قد وثقت أنها تخصك منها بمعنى ما... وقد تعرض عنك من دون الباقيين لأنك وحدك الأمر الناهى المتسلط عليها، فهي تخصك من إعراضها بهدية... وقد تعالنتك بأشد البغض وتدع قلبك يشبهها لك مراغمة جافية متعسرة غليظة الكبد، لا من بعضة ولا جفاء ولا معاصرة ولا غلظة، بل من أنك أذلتها بهواك، فكل ما تشتمك به إنما تتأوه فيه... والكلمة التي تفصل عن المرأة في مثل هذه الحالة من سرها المجروح: لا تتراد لتكشف عن معنى يكون فيها، بل لتغطي على معنى يكون في غيرها...

(١) قلت: انظر ما أو مانا إليه من قبل عن وسائلهما في المراسلة.

وهى كلمة وتاريخ وشعور فى وقت معًا، وهى كالموجة: تحتها التيار وفوقها الريح، وشرحها وأسبابها فى هذين لا فيها، تشتمك لتقول لك إنى أعلم أنى أحبك أحبك، فإياك أن تظن أنى أحبك...

وما أشبهها بالشمس وهذه المسبة منها كالغيم أثقله الماء فإذا الشعاع على قطراته رأيت فن الشمس لا فن الغيم، وإذا قوس قزح فى سبعة ألوان جميلة زاهية يذوب بعضها فى بعض تبرًا ولجيتًا وجواهر شتى.

وكلمة الشتم من العدو تنزل من القلب منزلة الدملى يأكل موضعه ويتسع ليأكل مواضع أخرى، ولكنها من الحبيبة تضاف إلى دواعيها فى القلب، فإذا هى كالورقة الجافة فى شجرة خضراء ذوت هى ومنبتها حى، فما أسرع ما ترف فى مكانها ورقة أخرى أزهى وأنضر.

الآن أذكر قولها إذ سألتنى مرة: هل ترى قيمة الدينار فى يد ملك أو أمير أكثر منها فى يد مفلوك^(١) أو صعلوك؟ وأذكر جوابى إذ أجبتها: إن الدينار فى نفسه ملك يحكم الملوك والفقراء، فهذا من رعيته، وهذا من رعيته، وهو فوقهما فلا يعلو به من يعلو ولا ينزل به من ينزل وكذلك دينار شتمها: هو على كل حال فى يدي كما هو فى يدها ولو أنها جعلت قيمته فى يوم غضبها مئة لعنة لما منعنى ذلك أن أصرفه منها هى فى يوم رضاها مئة قبيلة!

أصحيح أن شتمها كلمة حب محرقة، وأنها عبارة ذات تأويل قبل أن تكون عملا ذا صراحة، وأنها من باب قول المرأة لمن تحبه: أبعد عنى إياك أن تصدقنى وتبتعد...؟

(١) المفلوك: الفقير المدقع، والفلاكة: الفقر، ومن الكتب كتاب (الفلاكة والمفلوكون)، وقد طبع فى مصر: ولللمة أصل فى الاستعمال لا محل لذكره هنا.

وذلك صحيح لا ريب فيه، ولقد قالت مرة في أمر سبق إلى قلبي منه
شيء فعاتبتها: إنها مسألة لا تهتم.

فقلت لها: نعم لا تهتم، ولكنها تدل!!!

فقالت: نعم تدل، ولكن معها الحب فلا تهتم ولا تدل!!!

عندها أن الحب يغير كل شيء، وقد فهمنا من قبل أنه يغير المرأة
المحبوبة في نظر محبها لأنها زائدة على النساء رغباته وأوهامه ويغير
الرجل العاشق في نظر حبيبته إذ هو زائد على الناس إما برغباتها وإما
بحمقه وجنونه وغفلته ويغير الطبيعة في نظر العاشق لأنها مع الحب لا
ترى إلا زائدة لونه النفس، ولأن فهمنا أنه يغير الكلام أيضًا إذا صار الكلام
زائدًا تفسير الحبيبة المتكلمة وانضاف إلى ظاهره مكنمها.

ذلك صحيح، لأن هذه الشاعرة الفيلسوفة تشعرني في كلمتها الجافية
بأثر من الرقة والظرف يدل على أن قلبها مر في بعض مواضع من مقالاتها
وحقق على موضع وأن في موضع.

ذلك صحيح بلا ريب، والحب كالحرية: هذه تأتي أهلها بالثورة
المدمرة وفيها أسباب من الحياة لها ما بعدها، وذاك يهدى الشتم وفيه
أسباب من الدلال ولها ما بعدها!

يا صباحا أهدي الضباية دكنا. فغطى الضياء منك^(١) ظلالك أنت
أهديتها، وأنت أذبت الظل منها، فتم منها جمالك!!!

(١) استعمل ضمير الخطاب بعد ضمير الغائب في (أهدى) لقوة الالتفات وبلاغته في هذا الموضع،
والمعنى أن شتم الحبيبة كضباب الصباح، يسوقه ظلالا سوداء ليقطره بعد قليل ندي يتم به
جماله.

متى يا حبيب القلب

ألا يا نسيم الفجر سلم على فجرى
تضىء الليالى بالنجوم وبدرها
وقفت وماذا أستطيع بوقفتى
أدور بعينى نحو كل شعاعة
فيا ويخ قلبى! ماله حن كلما
متى يا حبيب القلب هجرك ينتهى
ألا يا نسيم الفجر إن جزت فى الربى
وقامت عذارها للقياء ثنتى
وفتح نوار الغصون جفونه
وأصبحت كالسلوى ترفرف نازلا
فجئنى بسر الزهر والماء والندى
فقد غاب فى الليل الطويل من الهجر
وليل الجفا من غير نجم ولا بدر
حسيراً، وأقدار الغرام بنا تجرى؟
على الأفق فى نجم، أو الأرض فى زهر
ترأى له شبه ابتسام على ثغرى؟
ومن أول الأيام فيه انتهى صبرى؟
خفياً كتسليم الحبيبة فى سر
دلالاً وتيهاً فى غلائلها الخضر
وفيهما البقايا الناعسات من السحر
سلاماً على قلب الغدير أو النهر
لعلى بها أطفى جوى الحب فى صدري



(١) قلت وكان من أصدقائها المرحوم إسماعيل صبرى باشا...

صلاة في المحراب الأنخص شجراته

" ولما غضبت ويبس ما بينهما، ضاق بهجرها، فانصرف إلى شجرات كان يخلو إلى نفسه في ظلها ونضرتها ونسيمها وما فيها وما حولها وظن أنها تنبت شيئًا في جذب الهوى أو ترمي بظل على رمضاء القلب فكان في وهمه كالذي يحاول أن يجد نساء من الشجر... وهناك كتب هذه الرسالة في الربيع، ثم التي بعدها في الشتاء."

لى صديقات من الشجر أعرفهن ويعرفننى منذ سنوات، وهن ينزلن منى بعض الأحيان منزلة الحب، لأن فيهن شيئًا من دلال النساء الخفريات أجد أثره فى قلبى ولا أجد برهانه فى لسانى، فإذا هممت أن أبين عنه وأبتغيه بالعبرة أخفته العبارة حتى لا يزيده البيان إلا غموضًا وسوء معرض، ولكن إذا مضيت أفكر فيه تبينته أشد تبين فأحسست فى ظلهن المستحى ونسيمهن المتلهى وغصونهن المتشبية- شمائل حبيبة إلى نفسى، ورأيت لها معانى لا تقع إلا فى القلب، ثم لا تقع منه إلا فى الموضوع الذى مسته يوما نفحة أو قبلة أو تنهد.

وإنما قيمة الأشياء بما فيها من أثر القلب أو بمالها فى القلب من الأثر ولرب شىء تافه لا خطر له ولا غناء فيه، ثم يكون فى يد محب من حبيبه النائى أو الممتنع الهاجر فإذا هو قد تحول بموقعه من القلب إلى غير حقيقته، فأطلعته الهوى من مطلع آخر ليس فى الطبيعة، فيرتفع ثم يرتفع، حتى كأنه عند صاحبه ليس شيئًا فى الدنيا بل الدنيا شىء فيه،

ويكون ما هو كائن ومع ذلك تنبعث منه روح ذات جلال أقل ما فيه أنه فوق الجلال الإنساني.

هذه صفات الحياة متى خالطها أثر القلب أصبحت في الحياة أكبر كباثرتها، كأن قلب كل إنسان هو النقطة المحدودة له من الكون، والكون كله مبعثر من حوله. فلا بداية لشيء ولا نهاية لشيء، ولا قرب ولا بعد، ولا صغر ولا كبير، ما يكن له قياس إلى القلب. والحب قدرة إنسان على قلب إنسان فهو من ثم قدرة على الكون المتصل بالعاشق، وهو بهذه القدرة أشبه بألوهية لو ساغ في الظن أن توجد ألوهية عاجزة عن كل شيء، إلا عن التصرف في مخلوق واحد، وهو بكل ذلك إما حقيقة كبرى وإما سخرية كبرى.

تقوم شجراتي على مسيل من الماء في قاصية بعيدة من المدينة، وتراهن فوق الماء صفًا إحداهن إلى إحداهن كأن هناك بقعة من الجنة قامت فيها قصور الزمرد على طريق أرضها من الفضة البيضاء المجلوة.

وأراهن كل سنة يتجردن من الأوراق ليكتسين أوراقا مثلها لا تخلفها في شيء من الهيئة ولا تباينها في معنى الطبيعة، ولكن بين ما يخلعن وما يلبسن تزيد فيهن الحياة وتشب الروح وتتجدد القوة فتلقى الشجرة أوراقها وتستقبل الشتاء مقشعرة جرداء، لتظهر في الربيع كاسية، جميلة جديدة في حسنها، تنبرج بروحها قبل ثيابها، كالحسناء الفاتنة أو ما يتحرك في دمها الحب...

كذلك لا تنبرج الروح إلا خارجة من شقاء أو مقبلة على شقاء، وما أشبه الحب في الناس بهذا الربيع في الشجر: هو الطريق الأخضر يمتد

إما إلى الجذب واليبس والألم، وإما إلى غاية منسية مهملة في الجفاء
أو السلوة!

وذهبت في ضحوة النهار إلى صديقتي أحبيهن كعهدي بين حين
وحين، وما أكرمه عهدًا لمن لا يختلفن من ملل، ولا يتغيرن من كذب،
ولا يتبدلن من خيانة، فلما جئتهن تخفين بي وتناولن قلبي يمسحنه
ويتحبين إليه، وأقبلن يغازلنه ويأخذن فيه مأخذ من تحب فيمن يحبها،
حتى لم أشعر منه إلا ما أشعر من زهرة فيها أرجها العاطر؛ أو ثمرة فيها
ماؤها الحلو، أو نبتة فيها لونها الأخضر...

... ونبهن فيه برفقهن هذه القوة المتواضعة المظلومة التي تتوجه
بالإنسان إلى ربه فتكون عبادة، وإلى الناس فتكون رحمة؛ وإلى "بعض
الناس" فتكون الحب، فإني لتحت ظلالهن الوارفة وكأني من السمو
تحت أجنحة الملائكة، وإني لمع أغصانهن النضرة وكأني من السرور
أداعب أطفالًا صغارًا تبسم لي، وإني لبين أنفاسهن وكأني من النشوة مع
الخيال الذي أتخيل...

تجلت على القوة التي تحول الشعاع إلى ظل؛ والهواء إلى نسيم
والزمن إلى ربيع، والنظر إلى حب، فكنت في الشجر الصامت شجرة
متكلمة، وأنسلت من طبيعة إلى طبيعة غيرها، ووقفت بين عفو الله
وعافيته في هذا المحراب الأخضر؛ ومن قلبي المتألم أرسلت إلى السماء
هذه التسابيح زاهية مع تغريد الطير.

يامن غرسني في الحياة كهذا الغراس بين الماء والنور، ولكنه جعل
جذوري كلها مستقرة مثله في الطين!

يامن لا يؤتيني معنى شريفًا ساميًا على هذه الأرض إلا إذا عرفت

بإزائه معنى وضيعةً سافلاً، ولا ينضج ثماري ويحليها إلا بعد أن تنبت
فجة مرة لا تذاق!

يامن خلقنى إنساناً ولكنه قضى على أن أقطع الحياة كلها أتعلم كيف
أكون إنساناً، كالبذرة: تقضى عمرها فى إخراج شجرتها ونموها حتى إذا
اكتملت الشجرة قطعت لأغراض أخرى غير التى من أجلها نبتت.

يا من وهب عبادة العقل بين هذه النواميس التى لا تعقل، حتى لا يتم
أبداً عقل إنسان، ولا تكمل أبداً حكمة حكيم، فيظل باب الخطأ مفتوحاً
لأكبر العقول وأصغرها، وتكون الحيرة قاعدة من قواعد العقل، ليخرج
من ذلك أن يكون التسليم قاعدة من قواعد القلب!

يا من جعل شفائنا بالعلم داء آخر من العلم، حتى لا يرتفع المضر من
الأرض ولو صار أهل الأرض كلهم علماء!

يا من جعل الناس فى الحياة كأوراق الشجر، من اليابسة التى
تتصف إلى جانب الخضراء التى ترف، ثم إذا الناس جميعاً كالأوراق
جميعاً. يبست فأرقت^(١) فطارت بها الريح تذروها فلا يعلم مستقرها
ومستودعها إلا هو!

ويا من خصنى بهذا القلب العاشق الذى يتألم ويضطرب حتى عندما
ألمس كتاباً أعرف أن فيه قصة حب، وهو ذلك يتكبر على كل آلامه ولا
يخضع أبداً إلا جواباً على خضوع آخر، فكأنه لا يدنى ممن أحبهم إلا
لأعرف ما أكرهه فيهم، وكأنه من فرط رفته آلة إحساس جامدة لا قلب
حتى.

ويا من جعل هذا القلب فى كجناح الطائر: لا يطير ولا يرتفع ولا يسمو

(١) أى تفتتت، ومتى يبس النبات وأرقت سمي ذراوه (بضم الذا) لأن، الريح تذروه.

ولا يتقاذف إلا إذا نشر هو وجناحه الآخر، فلا أبحث عن الحب لأجد الحبيبة وجمالها وحبها، بل قوتي وسموي وكبريائي.

يا إلهي! تقდست وتباركت! إنى لا أنكر حكمة آلامى، فما أنا إلا كالنجم: إن يسخط فليسخط ما شاء إلا ظلمة ليلة التى تشب لونه^(١) وتجلوه، ولولاها لما رأت الأعين شعاعة تلمع فيه.

لم تعطنى يارب ما أشتهى كما أشتهيه ولا بمقدار منى، وجعلت حظى من آمالى الواسعة كالمصباح فى مطلعته من النجوم التى لا عدد لها ولكن سبحانك اللهم، لك الحمد بقدر ما لم تعط وما اعطيت، لك الحمد أن هديتنى إلى الحكمة وجعلتنى أرى أن المصباح الضئيل الذى يضىء جوانب بيتى هو أكثر نورًا فى داخل البيت من كل النجوم التى ترى على السطح وإن ملأت الفضاء!

سبحانك اللهم! إن هذا الشجرليتجرد ويذوى ثم لا يمنع ذلك أن يكون حيا يتماسك ويشب، وإنه ليخضر ويورق ثم لا يعصمه ذلك أن يعود إلى تجرده ويبسه. فما السعادة أن تجد الزينة الطارئة، ولا الشقاء أن نفقدها وما الشجرة إلا حكمة منك لعبادك تعلمهم أن الحياة والسعادة والقوة ليست على الأرض إلا فى شيء واحد، هو نضرة القلب!

سبحانك! إن الساخط على الحياة والحياة منك، ليسر إلا كورقة فى شجرة قد بدالها فسخطت شجرتها وعملها ونظامها ولونها فانترعت نفسها وهوت فى التراب لتخلق أوهامها وتخرج من نفسها على ما تحب شجرة جمال ولون وثمر، فإذا هى أهون على الأرض والسماء من أن تكون إلا ورقة يابسة قد هلكت حمقا وأرقت رغما وهوانا وضاعت فيما يضيع!

(١) يقال فى الحسناء التى تلبس السواد: إنه يشب لونها أى يجعله يتوهج ويتألق.

سبحانك سبحانك اللهم لا تجعل ما يرفعنى يقذفنى، ولا ما يمسكنى
يرمينى ولا ما ينضرنى يجفو بى!

ولما فرغت من ابتهالى، اتكأت إلى حبيبة منهن وجعلت أفكر وأنا
أحس كأن كل شجرة تضع قبلة ندية على قلبى، أو كأن غصنًا مطلقًا
ينفض ظل الصباح قطرات فى دمى.

وسألت نفسى: لم لا يكتسى الشجر كل عام جنسًا من الورق، فإذا
أخضر هذا العام احمر من قابل، ثم يصفر فى الذى بعده، ثم يكتسى من
الوشى الأزرق فى الذى يتلوه ثم يطلع فى الديباج الأسود، وهلم إلى عدد
الألوان خالصة أو متمازجة؟

أذلك لأن الطبيعة عاجزة عن التفتن، أم لأنها شحيحة مقتصدة؟ أم
لأن تركيب العالم قائم على أن تبقى الحقيقة كما هى لا تتغير؟ أم لأن
كل شىء يستمر على وتيرة واحدة ليظهر جانبًا معيّنًا من حكمة الله؟
فينشئ جانبًا معيّنًا من نوق الإنسان وفكره أم العالم كله كلمات صريحة
تقول لهذا الإنسان: إنك أنت وحدك المتقلب المتلون...؟

ثم مددت يدى فهصرت غصنا من تلك الأماليد الناعمة اللينة، فإذا هو
ريان تجد مس الماء فى قلبه، ولكنه أقبل فى يدى بعد قليل على الموت
وأنشأ يذوى مضحملاً، فجعلت أتأمله فلم أر جزعًا ولا خورًا ولا إشفاقًا
من أمر يأتى ولا حنيئًا إلى شىء مضى، فعلمت أن القوة كل القوة ألا
يجزع الحى فإذا هو لم يجزع يجبن، وإذا أمن الجبن لم يستنذله شىء

ولم يكن الشقاء فى رأيه شقاء بل مصادمة بالحياة لبعض نواميس الحياة، ومضى كما هو جزءًا على وضعه من الكل الذى هو فيه، فتساوق مع الكل وبقوة هذا الكل، فأمن المنافرة واتقى على نفسه آلامها فإن لم ينعم بشيء فقد نعم بأنه راض مطمئن، وما فى المهنا أكثر من الرضا!

قال لى ذلك الغصن الأملد وهو يموت فى يدي ويعالج سكراته: أيها الإنسان الضعيف! هانت ذا ترانى رؤية عين، وتعرف بى سرعة انقطاع الحياة، وتستيقن منى أن مايجىء بطيئًا يذهب حين يذهب سريعًا، وأن طرفه عين من ساعة الموت تمسح السنين الطويلة والعمر المتقادم وتثقل الباب على هذا العالم كله، فكن غصنًا فى شجرة الحياة، ولكن اعلم مثلى أن الشجرة لا تعرفك مثبتًا فيها بالمسامير ولا مشدودًا إليها بقوة أزلية: فلك منها المنبت على أن تكون قابلاً للكسر، ولك منها الزينة على أن تكون قابلاً للتجرد، وإنما أنت فيها كما أنت لتظهر فىك حقيقتها كما هى، فليس لك أنت حقيقة، أيها الإنسان! أن الشجرة تماثيل يرفعها الله فى كل مكان يوجد الإنسان فيه، لتقول له: كن دائما ذا فروع لتظل بأبنائك موضعك من التاريخ كريمة فى حياتك تعطى مما تأخذ، كن طاهراً تعرف كيف تستمد من كل شيء شيئاً واحداً يعيش عليك، كن مع جنسك مختلف الظاهر على جرتومتك وموضعك؛ فذو ثمر أو زهر أو شوك. ولكن ابق فى داخلك وعنصرك مع غيرك من الناس على قانون واحد.

يا شجراتى! ما أنتن إلا من بعض صور الحب، ولكن حبكن من
النعمة والعافية، إذ لا تنتهى فى النفس معانى شهواتها، بل معانى
لذاتها فقط...

أنتن المثل الهنىء الذى لا يؤس فيه ولا حظ، المعبد الذى تحمل إليه
الآلام والأوجاع لتتسى فيه هنيهة من الزمن، ولهذا يقبل عليكم الحكماء
وأهل النفوس الحاسة والطباع الرقيقة، يأتون بالأنفس الذابلة والقلوب
المتوهجة فى ضعفه وسأم، ليرجعوا فى هذه وهذه باللون الأخضر
وبروح النسيم فى قوة وعزيمة.

لا يؤس ولا حظ فى القاعدة المطردة التى تجرى على وتيرة واحدة،
ولكن حين تختار الحكمة الإلهية شخصًا بعينه لتجرى عليه حكم الشاذ
من القاعدة، وتهيب له الأحوال الشاذة، فهناك إما حقيقة البؤس وإما
حقيقة الحظ. وما أصل الهم والشقاء فى الناس إلا أن كل إنسان يتمنى
لنفسه أن يشذ من قاعدة ما!..



شجرات الشتاء

بممتهن اليوم فإذا هن ذابلات عليهن الضحى عرياناً وكن من ورقهن فى حلل الظل، وفيهن انكسار ذى العارية وكان يتجمل بعاريته ثم ردها فما يتوارى إلا من الأعين التى كان يتعرض لها من قبل... ويحس كأنه أصبح لحناً من خطأ فاحش فى لغة النعمة واليسار، لا يكاد يظهر نفسه إلا قيل له: يا غلطة تحتاج إلى من يصححها...

ورأيتهن واقفات فى مثل ذلك الحزن النسائى الغرامى الذى يخلط المرارة فى حلاوة المرأة الجميلة فتبدى عن عاطفة مسكينة لا يصورها لك إلا أن ... أن تتخيل جزع لؤلؤة تخشى أن تتحول إلى حصة.

ذليلات ذليلات كأنهن مطلقات الربيع!

وقالت لى صديقة منهن. لقد كنت فى جانب منا، أفمنحرف أنت إلى الجانب الآخر؟ وكان لك فينا من رأى الحب ما يكسونا مع كسوتنا، أفيكون لك من رأى البغض ما يجردنا مع كسوتنا، أفيكون لك من رأى البغض ما يجردنا مع تجريدنا؟ أم ستقول: طاووس أنسل ريشه الجميل فرده القبح دجاجة، وشجرة سليت زينتها فعادت كأن لم يخلقها الله ولكن أقامها النجار... أم أنت رادنا إلى المسخ فمجر علينا حكم الرجل على المرأة: متى قبحت فى عينه قبحت فى قلبه إذ لا يطلب إلا معنى فيها تحت الرونق

لمعنى فيه هو تحت الدم، فإذا هى لم تعد من إيمانه... كفى ذلك وحده أن يجعلها من كفره...

أظالمنى أنت فتعرف لى ذلا بعد عزة، وتصف لى خضوعًا بعد كبرياء، ولا تضع يازائى فى ميزان قلبك إلا المعانى الثقيلة التى تلقىها تزن بها ما تكره لكى تملأ نفسك منه بغضًا وكراهة؟

كلا يا صديقتى! إنما تتحولين لأجد منك معنى جديدًا فى نفسى. فكأنك تخرجين منى رجلًا فى الربيع ورجلًا فى الشتاء، وكأنى أعرف بك كيف أتحول فى بعض معانى الحياة من نسيم إلى عاصفة. أنت كالحبيبة المخلصة حين تبالغ فى إصفاء الود، فتمتنع وتهجر لتهب محبها الفكر فى جمالها كما وهبته النعمة بجمالها، فيصيب اللذة ومعناها، ثم يجد الشوق الذى يضاعف معناها، فإنى رأيت الذى لا يفكر فى معانى الجمال حين يمتنع ويبعد، لا يدرك كل معانيه حين يمكن ويدنو.

ومن امتلأ من فقد السرور، كان حقيقًا أن يكون هو الذى يمتلئ من وجوده. فاللذة لذة واحدة بنفسها، ولكنها تتعدد بموقعها وبحالتها وبمقدار فهمها وبقوة الشوق إليها. وما أشبه النفس فى هذا المعنى بقصر العروس. إن لم تتقدم العروس معانيها فتزين القصر وتزخرفه وتكسوه وتجعل فى كل مكان منه جمالاً يومئذ إليها وزينة تشاكلها وحسنًا ينمها أو يفسر منها. لم تكن العروس على القصر إلا أرملة...

كلا يا شجراتي، فلست ظالمًا فأجری عليكِ حكم المرأة في شتاء حبها، فإن المرأة متى بردت.. ظهرت كالسحب الثقيلة المطبقة بأرجائها السوداء: لها في سمائها لون الوحل قبل أن تستوحل بها الأرض... وبها من الظلمة ملء ليل طويل يموت فيه النهار الطالع وشمسه معًا، ويكلح بها وجه الحب ويبرد ويظلم لتكون في بلائها مادة إنسانية تقع منها صاعقة...!

آه لو أن شجرة لم تحمل كل أغصانها إلا من قشور الثمر المطروحة في الطريق، لكانت هذه المرأة أسخف منها، ولو أن شجرة حين أورت لم تورق من جذعها إلى بواشقها وأعاليتها إلا بأجنحة الذباب... ليتقدرها صاحبا، لأشبهتها هذه المرأة!

كلا يا شجراتي، فقد ذهب ربيعي مثلكن، ولم يكن ربيعيًا في قلبي، فسأقضى شتائي وأنتظر أنا وجذوري.. إنه عهد ليس أشقى منه لوعة ولا أسعد منه ذكرى إذا جعلنا نحن إلى حياة ليست في حياتنا، بل ذهبت عنا بحبيب نأى أو حبيب هجر.

عجبا! ماذا يحدث في الحياة من هنات وهنات؟ تمرض الشجرة فصلًا من سنتها وتشرق على الموت فصلًا آخر^(١)، ثم يطير فيها لهب الشمس فإذا هي تغلى بالشعاع وعليها ضبابة خضراء من غليان ألوان الشمس في جوفها^(٢)، فليس من جمال إلا وبعض مادته في أصلها من القبح كما ترى،

(١) أي تمرض في الخريف، وتشرف على الموت في الشتاء.

(٢) يسمى البخار المجتمع فوق القدر من غليانها: ضبابة القدر وكانما ورق الشجرة ضبابة خضراء فوقها.



يظهر لك فى الطبيعة الجميلة، لأنها عدوة التصنع، ويخفى فى النساء الجميلات، لأنهن عدوات الطبع، حتى أجمل ما فى المرأة الجميلة، لا تراه بعيدًا من أقبح ما فيها حتى دلال المرأة التى تحبها، فهو بعينه لو حققت، هو معنى ظريف رقيق من.. من.. من وقاحتها...

أين الجزء المسكر فى الكأس إلا مع غير المسكر فيها؟ وأين المرأة الجميلة إلا مع مكروهاتها يغرك منها ما يغرك؟

لهفى لأشجار المحبة مرفصل ربيعها
جد الهوى فى عرسها ليجد فى تقطيعها!
كل الفتوق لها الرقاع ترم من تصديعها
وإذا تمزقت المحبة حرت فى ترقيعها!



رسالة الطيف^(١)

ألم بي طيفها بالأمس. فاقترح بناء النسيان الذي رفعته بيني وبينها وألقيت كبريائي في أساسه حتى لا يرجف ولا يتصدع، وأعليته بهمومي منها، وشدته بعزائمي وثقتي، وجعلته بإزائها كالمعبد من الزنديق: إن يكن لا يسخر من ذلك إلا هذا فما يلعن هذا إلا في ذلك!..

ولم ينكشف الليل حتى رأيت معبدي أطلالا دارسة قد خلعتها روح السماء فلبستها روح الأرض، فتحول كما يتحول الزاهد في سمته ووقاره وتعففه إلى الشحاذ في تبذله وحرصه وإلحافه، وتصدع فنوئاً وتبدل أشكالا وسرى طيفها في نيتي مسرى الزلزلة الراجفة في بقعتها من أرضها: تشق في الأرض والصخر والجبل ما يشق المقرض في سرقة من الحرير^(٢) بل أسرع وأقطع وأمضى. ولو حدث بعد الذي فعل طيفها أن مدفعاً من المدافع ألقى ظله على الأرض فانفجرت من ظله القنابل تخرب وتدمر وتأتي على ما تناله والمدفع ذاته قار ساكت- لقلت عسى ولعله، وأمر قريب، ولعل المدفع كان امرأة.

(١) ألم به طيفها بعد الهجر، فاعتذرت إليه وصالحته وأعطته الرضا، فكتب هذه الرسالة.

(٢) الشقة من الحرير الرقيق، وجمعها سرق (بفتح السين والراء).

ولكن تحت أطلال نسيانى وما تخرب من عزيمتى.. انكشف لى كنز من الخيال دخلته وملكته، ولم أر فيه الدر والجوهر والماس والياقوت فى جسم الأرض، بل رأيت فيه الحبيبة تسطع من جسمها البديع، حقائق كل هذه الجواهر الكريمة، حتى لكأنها والله فى غرابة الحلم حسناء من در وماس وجوهر وأشعة تتلألأ، وما شئت أن أرى صفاءً ولا جمالاً ولا حسناً ولا فتنة إلا رأيت فيها.

ولكم كنت اتخيل إذ أجلس معها واقبل عيني فى محاسنها ومفاتها- أن أظافرها المصقولة الملمتعة إن هى إلا لؤلؤ من جوهر جسمها، وأن الحلى على هذا الجسم الجميل إن هو إلا شعل تتوهج من ضوء لحمها، وتورد دمها لا من ذهبها وجوهرها.

غير أنى فى كنز الخيال رأيت ذلك هو الحقيقة بعينها، وعلمت أنه لمعنى جميل تنجذب الحسان إلى الحلى الجوهر، إذ كانت من طبيعة أجسامهن. طيف جاء الروح المهجورة بالحبيبة فاستنشثها كأنما هى نسمة طائفة على روضة من الورود؛ ومر بروحى التى جفتها هى وجرحتها! مروراً أنعم من لمس الشفة للشفة، وغمرها بمحاسن تملؤها نوقاً وطيباً، وتحول هو معها روح قبلة مشتتة على انتظار طويل، فففيه مسها ولذتها وحلاوتها.

وفى الحلم يتجلى الحبيب لمحبه كما هو داخل فى نظام عقله وكما هو مستقر فى أمانيه، فيكون على ذلك كأنه من خلق النفس وتصويرها، فتفتن به أشد الفتنة وكأنها لم تر معانيه فى أحد قط ولا فيه هو نفسه،

ومن هذا قلما ناجى الحبيب حبيبه فى رؤياه أو طارحه الهوى أو الحديث
أو نوله مما يشتهى إلا انتبه المحب وكأنه لم يلم به من هذا كله شىء، بل
ذاب هذا كله فى دمه حلاوة روح لها طعم ومذاق!

يا للرحمة من طيف يعذب العاشق بالرحمة... إذ ينقل الحبيب كله إلا
الحبيب نفسه... ويحقق للمحب أمانيه إلا بهذه الأمانى... ويخيم على ظلمة
الصد بألوان من نهار يموت قبل النهار... وفى عالم معذب من الهواجس
والخيالات العاشقة المستلية إرادتها، ينصب عالم نعيم من الهواجس
والخيالات المعشوقة مستلب الإرادة أيضا، فكأنها سخرية النفس من
جنون صاحبها... يا للرحمة..!

وتحت أطلال نسيانى وما تخرب من عزيمتى... ظفرت بمقصورة
كأنها من مقاصير الجنة لها جو عبق نافج ملء من الإحساس الخالد
والشعور الطروب، كما ملء بالأسرار والألغاز، ترف عليه معانى
الضحكات والنظرات والابتسامات: تمازجه تعابير الصوت والموسيقى
والثياب الحريرية والروائح العطرة، يسبح فى كل ذلك جلال الحب
وجمال المحبوب وروحي العاشقة!

وارتفعت حقيقتنا كلينا إلى عالم من الكنايات والمجازات والاستعارات،
فكان الحب ثمة يتخذ شكله السماوى فيتسع بالإدراك فى كل شىء، إذ
يجعل الحاسية كأنها من حواس الخلود، فلا نهاية لمسرة تتصل بها، ولا
نهاية للذة تخالطها، ومن ذلك لا نهاية لأفراح قلبى فى الحلم؟

وكانت هي كل تقاسيمها تعبيرات معنوية، حتى لكأنها صورة متجسمة من أوصاف بارعة في الحب والجمال خصصت بعلمها أنا وحدي إذ لا يمكن أن يهتدى إليها إلا فيها وحدي، وكنت مع طيفها كأني ملقى في حالة من حالات الوحي لا في ساعة من ساعات الكرى.

ورأيت حبا رائعا معبودًا أشعرني إذ ملكته في تلك الخطرات أن الإنسان قد يملك من الجنة نفسها ملكا وهو على الأرض في دار الشقاء إذا هو احتوى بين ذراعيه من يهواه!

وقالت نفسها لنفسى: هلمى يا حبيبتي في غفلة هذين المقلين العدوين تهدم عليهما المنطق الذي يعذبنا بأقيسته وقضاياه وإنما نحن روحان فوق الأقيسة والقضاياء.

هلمى إلى حكم الحب في رقدة الفلسفة العنيدة القائمة بصاحبينا قيام محكمة بقاضيين جاهلين معًا مكابرين معًا، فلا يرى كلاهما إلا أن صاحبه هو الجاهل، وبذلك تتضاعف البلية منهما متى حكما!

هلمى، من وراء هذين المتغاضبين إلى شريعة الرضا، فليست إحدانا من الأخرى إلا كالصدي يجيب على الكلمة بالكلمة نفسها، إذ ليست إحدانا إلا الأخرى.

هلمى، فما منا إلا من ضاقت وأعيت بحمق هذين الأحمقين، أحدهما من أحدهما كالصخرة التي تريد أن تبتلع الجبل وهي قطعة منه!

هلمى نتكاشف بالابتناسمتين المخبوءتين تحت عبوسهما: الكاذب المنافق، فإن كذب العبوس متى لبس وجه الممثل والممثلة... لم تعد نهاية

فيهما بل في الرواية، ورواية هذين هي رواية العناد والتعنت التي تمتد من نفسها، لأن كل كلمة فيها إنما هي بين متقاذفين، فلا ترمى إلا ارتدت، ثم لا ترتد إلا لتعود فترمى...

هلمى يا حبيبتي، فإننا تحت هذا الليل نهار مع نهار في عالم بعيد عن الأشياء وبعيد حتى عنهما...

هلمى، فإننا الآن في جسدين روحيين لا تحدنا الحدود، وهذان الجسدان النائمان هما هم التراب الذي كلنا فيه، وهما قذى المادة، وهما الخصمان لا نحن، فهلمى يا حبيبتي.

وقالت نفسى لنفسها: هلمى يا حبيبتي فاجعليني في روح شبابك الذي ألبستى الضنى عليّ أنه لو نقل إلى الأجسام لأحيى الموتى. هلمى فضعيني في أشعة الخلود من نظرات الرضا التي في عينيك، لأقوى على هذا الفناء الماحق من هجرك، فإن قربك ليس قريبا بل هو إعطاء وبعدهك ليس بعدًا بل هو سلب!

هلمى فارفعيني بقوة منك على قوتك الأخرى التي تهلكنى بالخضوع والصبر.

هلمى فلنصالح بين الكلمة ومعناها، فإن هجرك هذا فرق بين ألفاظ الحب وأرواحها، فمسخها كما هي في كلام، وأنا أريدها كما هي في الحياة، وهل تحيا كلمة القبله في القاموس أم شفتيك؟

هلمى يا حبيبتي نرتفع فوق دنيا الحزن والألم ولو ساعة ليست في ليل ولا في نهار بل في وفيك: ساعة ليس فيها ستون دقيقة في كل

دقيقة ستون ثانية، بل فيها ستون عناقًا في كل عناق ستون قبلة، فهل
يا حبيبتي...

عاد الحب أكبر من كلمة، ورجع الرضا أكثر من ابتسام الشفتين، وصار
الأذرع حدودًا^(١) بعد أن كانت على فضاء وفراغ وحيًا طيفها وسلم.

حيًا وسلم ثم صافح تاركًا يده على الكبد التي أدامها

وأنى ليعتذر الغزال، ولجلجت كلمات فيه^(٢)، ففي فمي أخفاها

ودنا ليغترف الهوى، فتهاكت أسرارها، فرمت به فرماها

قلب الحبيب متى تكلم لم تجد كلمًا، ولكن أذرعًا وشفاهها

وانتهى حلم الصلح لتوه لحظة شعرت أنه ابتداء... فلم يكن هذا الحلم
"إلا عملية" حب جراحية مؤلمة في القلب الذي كاد يبرأ وينسى...

كأنما طفئت من الهجر مكواة كانت محماة على كبدي فجاء طيفها بما
معه ليضع مكواة غيرها!...

وأصبحت- والله- أعتقد أن الشيطان لي خلق مضاعفًا لما خلق إلا
امرأة معشوقة!...



(١) كناية عن العناق، لأن الأذرع تكون حدودًا على الجسمين المعتنقين.

(٢) اللجلجة: التردد في الكلام وتكرير بعض ألفاظه ومقاطعته قال الطيف: أنا أنا أنا لم لم لم... وهذا

التلجلج يكون من حدة العاطفة وإذهاها الفكر.

في العتاب

”وكتب إليها مرة كتاب هوى، فتفترت في الرد عليه تريد أن يطول به الانتظار فيؤلمه، أو تريد أن تزيد به الشوق فيؤلمه. أو كأنها تطمعه بألا تطمعه ليتألم!“

فلما انتهى فيه دلالتها إلى الضجر، كتب إليها هذه الرسالة يؤلمها بها وجعلها على طريقة السجع التي كان يتراسل بها فحول الكتاب في القرن الرابع للهجرة وما بعده، لأنها هي تكره هذه الطريقة وتجد لها ألقاً في نفسها، ولذلك مضى بها مسجوعة إلى آخرها، ليبالغ في إيلاهما والتهمك بها وبفلسفتها، وردت في الرسائل بكل ذلك إرادته على إرادتها، وهذه الرسالة^(١):

كتبت إليك من أيام يشفع لها قربك من نفسي فلا أقول إنها بعيدة وتمر قديمة ولكن ما في هذه النفس منها ومن آلامها يجعلها دائماً جديدة وكأنها تجري بي إلى الفناء فهي تطول إلى غير حد، وتأخذ معنى اليأس الذي يمضى به الأمس فتلقى به في معنى الأمل الذي يأتي به الغد، والأيام تعد بالأرقام ولكنك أنت جعلت هذه الأيام تعد بأنها لا تعد... وانتظرت رد

(١) هذا النوع من العتاب كالذي يقول فيه العباس بن الأحنف:

إن بعض العتاب يدعو العتد ب ويؤذي به المحب الحبيبا

فهو عتاب لمحض التهمك وأذى المحب، لا للاستعفاف، ولا الإسترضاء فإن هذا نوع آخر له أسلوب غير هذا، وكبرياء صاحب الرسائل أبت عليه أن يكتب في هذا النوع الأخير

كتابى، أو ورقة من شجرة عتابى، فما زالت تتقطع الساعة من الساعة
ويلتقى اليوم باليوم، ويذهب اللوم إلى العتاب ويجئ العتاب إلى اللوم،
وكتابك على ذلك كأنه مغمى عليه لا هو فى يقظة ولا هو فى نوم...

فسبحان من علم آدم الأسماء كلها لينطق بها وعلمك أنت من دون
أبنائه وبناته السكوت... والسلام عليك فى أزلية جفائك التى لا تنتهى. أما
أنا فالسلام على يوم ولدت ويوم أموت!

ما هذا يا سيدتى وليس خيط عمرى فى إبرتك، ولا ما يتمزق من
أيامى تصلحه "ماكينة الخياطة" بقدرتك، وإن كنت أنا أقل من (أنا)،
فلست أنت بأكثر من (أنت)، وما علمنا أنك مع القدر تحركت ولا مع
القدر سكنت!

أتحسبىنك لما خفت المحاكم، فى قتلى جعلت تقتلين بهجرك أيامى
ولما عرفت أنك من أشد سرورى أردت أن أعرف كذلك أنك من أشد
الآمى؟ أم أنت فى نورك وظلامك تريدان أن تنقصى من الأعمار، كما
ينقص منها الليل والنهار؟ أم تحسبىننا خلقنا بهذه الرقة لنعرف بها كيف
يتحجر قلبك ويجمد وأنبتنا الله فى مزرعة العمر ليجيئنا منك صاحب
المزرعة فيحصد؟ أم أنت خلقت فى يد الله إرادة ماضية وخلقنا عليك
اتكالا، وجئنا على الطاعة شكلاً واحداً وجئت أنت من يد الله فى الكبرياء
أشكالاً...؟

فإن كان قلبك يا سيدتى شيئاً غير القلوب فما نحن شيئاً غير الناس،
وإن كنت هندسة وحدها فى بناء الحب فما خلقت أعمارنا فى هندستك
للقياس، وهبى قلبك خلق "مربعا" أفلا يسعنا "ضلع" من أضلاعه، أو "مدرًا"
أفلا يمسكنا "محيطه" فى "نقطة" من انخفاضه أو ارتفاعه، وهبىه "مثلثًا"

" فاجعلينا منه بقية فى "الزاوية" أو "مستطيلًا" فدعينا نمتد معه ولو إلى ناحية...!

ما بال كتابنا يمضى "سؤالًا" من القلب فيبقى عندك بلا "جواب" و"نبيه" نحن على "حركة" قلوبنا فتجعلينه أنت "مبنيًا على السكون" ثم "لا محل له من الإعراب"... وما بالنا نقطع فى انتظار الرد مسافة من هجرك لو طار فيها البريد لانتهى بكتب الحسنات والسيئات إلى السماء، ولو طاف الأرض لتقدم حتى لا يبقى فى الأرض أمام وتأخر حتى لا يبقى من الأرض وراء، فإن كنت تضنين أن توجهى إلينا من عرشك خطابًا، أو تنزلى علينا من سماءك كتابًا، فقد أقفل باب النبوة من قبلنا فما هذا الباب، واحتجب الوحي من زمن بعيد فياسيدتى ما هذا الحجاب؟

لعلك تخشين إذا جاءنى كتابك الكريم أن يزعم الناس أن "جبريل أصبح فى الأرض من سعاة البريد، وأن السماء عادت تشرع لأهل الأرض فجاءت فلانًا من فلانة بكتاب جديد، أم لعلك تخافين إن تحرك فى يدك القلم الأعلى أن يتحرك به القدر العاجل فلا يحتمل التأجيل، ثم يجيئنى كتابك فتقوم قيامة العالم المسيحى، لأن هذا الكتاب صفحة ناقصة من الأناجيل...^(١)

لقد هممت أن أعاقب القلم الذى كتبت به إليك فأحطم سنه، وأجعله من ناحيتى فى خبر (كان) حتى لا يبقى من ناحيتك فى خبر (إنه)، وقلت: كيف- ويحك- سودت وجه صحيفتى بما هو فى سواده مداد مع المداد، وفى نفسه سواد أقبح من السواد؟ فقال: وهل أنا فى (نعمات) حبك إلا

(١) هى سوربة مسيحية كما يعرف الذين قرءوا «رسائل الأحرار» و«السحاب الأحمر»، وهما الكتابان الموضوعان فى فلسفة جمالها وحبها وبغضها.

"عود"، وهل صورت إلا حركات وجدك من قيام وقعود، وسل الدواة من أمدها، والصحيفة من أدها، وسل أناملك كيف كانت تضغط على كأنها تسلم على الحبيبة سلامًا، ولا تخط إليها كلامًا؛ وسل نفسك كيف كانت فى حركتى تضطرب، وقلبك كان من كلمة يبتعد وفى كلمة يقترب؟

فما ندرى يا سيدى وقد أحببناك أنعدك فى ذنوب الزمان أم فى أعذاره وهل نأخذك فى الحب من وقائعه أم فى الجفاء من أخباره؟ فإن أبيت أن تكونى منا إلا كالسما من أرضها، وأن تكون منك إلا كالسنة من فرضها، وأبيت وأنت "مفرد" الحسن إلا أن نعدك أنت وكبرياءك "مثنى" بألف ونون، وإلا أن تكونى على غير ما نريده ثم لا نكون إلا كما أردت أن نكون فإذا خاطبناك قلنا يا فلانتان... ويا أيتها الحبيبتان وياغضباوان وراضيتان وأنشدنا فى هواك: ولو كانت همًا واحدًا... ولكنه هم وثن...^(١) وإن أبيت إلا ما نابى ولم ترضى مع صدقنا فى حبك إلا كذبا، قلنا لك بلغة اليأس منك: لشد ما أصاب الزمان فينا وأخطأ فليصب بك أو فليخطىء، وكثيرًا ما أعطانا الدهر وأخذ، فلتكونى فيما يأخذ أو يعطى، ونقول: مع الذكر نسيان، وما عسى أن ينقص العالم بإنسانة أو إنسان، ومن ظن "بصرفنا" عن نفسه أنه كبير، جعلناه من "نحونا" فى باب "التصغير"، ومثلنا لا يتكلم إلا بفائدة. ولا يسكت إلا بفائدة. فإن أخطأنا معك فى واحدة اصلحناها واحدة. وما أكثر ما يجد الكاتب إذا عز عليه أن يعاتب، وفى ذكائك لا محالة: بقية الرسالة.

ولعلنا ولعلك... والسلام!

(١) جمبة من بيت شعر، وأصله:

ولو كان همًا واحدًا لا حتملته ولكنه هم، وثن، وثالث

فِي الْأَحْلَامِ

نصبت لى فى الكرى حباله
رأيت جسمى انتهى لحاله
فطرت فى النور أجتليه
ولا ضوء بلا شبيهه
فقلت: هل بى يا قلب فيه
ناجيت قلبى بذى مقاله
صرخت: ما للفضاء ماله
يا أفق هل خفت من شراره
أم سعر الهجر فيك ناره
أم يوم حب قضى نهاره
فقال: وجه نرى خياله
ارجع فلو أن ذى "الغزالة"

اصطاد صيدًا من الصور
تضىء كالشمس والقمر
محاسنًا تملأ السما
إلا حبيبى تبسما
لعلنى أطفئ الظما
فدمدم الأفق بالشرر
فقال: فى قلبك الخطر
تحت الضلوع اسمها الفؤاد
توقد من يابس الوداد
وحل من بعد السواد...؟
فى قلبك الحامل الضرر
تغازل النجم لا نفجر



في معاني التهذات^(١)

تسكنى قلبي رغبة ما أراها تتحقق له فيتخلى عنها.

ولا هو يتخلى عنها إذ لا تتحقق له.

هي بعض الممكنات الخيالية التي لا تخرج أبدًا من القلب، وكيف تخرج منه ولا مكان لها في الواقع؟

القلب وحده مكان المستحيل!

رغبتي كأنها حكم من أحكام الشوق النافذة على قلبي.

حكم عليه بأن يظل أبدًا يريد ويشتهي.

أى حكم عليه بأن يطلب ولا ينال...

يبحث في الموجود عن غير الموجود.

يراك ولكنه فيك أنت يبحث عنك أنت.

(١) لهذه الرسالة خبر يعد من الغايات في ظرف المداعبة: وذلك أنه قال لها يوما: إنى لأتمني أن أراك حين تفضين رسالة حبي وتقرئينها فإن الحب إن يكذب على إنسان لا يكذب على ورقة... فقالت: بل هذا ما أريد أنا لأرى كيف تكذب حتى على ورقة؟ ثم سألته أن يضع هذه المعانى فى هذا الموضوع الطريف لتنظمها قصيدة باللغة الفرنسية، فأتعب نفسه فيها وكتبها وبعث بها إليها، ولبت أياها ينتظر كتابا منها حتى جاءه، فلما فض غلافه رأى كلامه بحروفه ولكن... ولكن بخطها؛ أتراها تخاطبه بها أم كأنها نسخت له صورة من مقالته التى عندها بخطه فلا رسالة ولا خطاب أم تقول له: أنا كالذاهلة من الهوى.

وأنت كسبيكة الذهب: ليس فيها موضع أحسن من موضع ولكن قلبي
مع ذلك يظل يبحث عن الأحسن.

قلبي المسكين محكوم عليه، لا بالأشغال الشاقة، ولكن بالأمانى
الشاقة...

رغبتى ستبقى دائمًا بين معانى التهنيدات

فى مكان من القلب لا تتحرك فيه كلمات إلا تحركت معها كلمة آه!..!

أتدرى أيها الحبيب ما هى رغبتى؟

هى أن أراك حين تتلقى رسالتى وتتلوها.

لأرى حقيقتك كيف تكون وليس أمامك إلا حقيقتى، ولأرى بنفسى

كيف ترى نفسى مكتوبة.

ولأعرف برأى العين: أنا أرسل كلماتى أم خفقات قلبي.

ولأنظر كيف تخرج لك أسرار الكلمات من الكلمات؟ لأرى، وأعرف،

وانظر...

ولكن يا صديقى، لو رأيتك حينئذ لكنت أنت رسالة إلى، فلا تكون

ورقتى إلا ورقة، ويشغلنى عن رؤيتها أنى أراك، ويصرفنى عنها أنى

منصرفة إليك، ويكون عقلك قد استولى على عقلى، وتذهلنى أسرار عن

أسرار، فلا أرى، ولا أعرف، ولا أنظر...

ومع ذلك أتمنى أن أراك حين تتلقى رسالتى وتتلوها، لأرى كيف

تتلقانى من خيالك حين ليس معك إلا خيالى؟

ولأعرف رأى العين أن هواى جزء منك، وأن كلماتى هى لمسات من قلبى لقلبك، ولأنظر كيف أكون لديك فى صورة رسالة؟ وأضحك من رؤيتك الورقة وجهًا له فم تقبله... لأرى، وأعرف، وأنظر...

ولكن يا صديقى، لو رأيتك حينئذ لكنت أنت رسالة إلى، فلا تكون ورقتى إلا ورقة، وينسينى إياها أنك حاضر معى، وتموت الكلمات المكتوبة كلها فى كلمة واحدة تنطق أنت بها، وتحول معرفة دون معرفة، فلا أرى، ولا أعرف، ولا أنظر

إذن فرغبتى ستبقى دائمًا بين معانى التهنيدات، وقد تحركت الآن بكلمات الأمل، ولكنه الأمل الخائب الذى تأتى دائمًا فى آخر كلماته، آه. أه...!



أليس كذلك نظرة حب إلى الكون

إن شيئين هما أروع ما نعرف وما نجهل: أحدهما: ذلك المجهول الأعظم المنبسط وراء العقل يترامى قفراً في قفر إلى مالا نعقل من أسرار اللا نهاية، والثاني ذلك المعروف الأعظم المختبئ وراء القلب يتعمد صفة في صفة إلى مالا ندرك من أسرار النفس.

وفي ذلك التعقيد السماوي تلتمس الروح وضوح الألوهية ونعيم الجنة الخالد، وفي هذا التعقيد النفسى يلتمسون وضوح الحب ونعيم الحبيب المعشوق:

أليس كذلك يا حبيبتي؟!!

كل ما فى الكون هو من الضرورات لوجود الكون لأنه ممتلىء لا ينقص، وما كان ضروريًا فهو مذهب واحد ليس فيه ما هو أكبر ضرورة ولا ما هو أصغر، الكبير الكبير: كالصغيرة الصغيرة، ولو أن مكانا ليس فيه نفس واحد من الهواء لقتل الحى كما يقتله انتزاع كرة الجو كلها من مخارق هذا الفضاء^(١).

وكل ما فى الحبيب هو من ضرورات عشقه إن صح العشق، فكأنما هو يتجه أيضًا مع الكون إلى اللانهاية، بل كأن كل حبيب فى خيال محبه إنما

(١) أى من حيث ينحرق الفضاء، أى منه كله.

هو الوسيلة التي استطاع الكون أن يعبر بها عن جماله لإنسان في إنسان
ببلاغة تختلف مع الأذواق كما تختلف البلاغة الإنسانية، هذه يقولون في
تعريفها إنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتلك يقول الكون نفسه في
تعريفها إنها مطابقة الشكل الجميل لمقتضى الإحساس.

يضيق هذا الكون ثم يضيق حتى كأنما يجتمع عند العاشق في
المعشوق وحده، وبهذا لا تجد حبيبًا إلا بلغ عند محبه ما تنهى إليه
الحسن في أرضه وسمائه، حتى لهو الشمس والقمر وكل ما جرت
فيه أشعثهما من ذهب الجمال وفضته، وبذلك جمعت اللغات أحسن
ما في الكون وأجرته في تشبيهات الحبيب وألفت من ألفاظه لغة
الحب.

فهل يكون في العقل من هذا ومن ذلك إلا أن الكون قد تناول النفس
العاشقة حين ضاق ثم ضاق، فوسعها ثم وسعها حتى أفاضها من معاني
الحبيب على المعاني الأزلية، وجعل عهدا بالحب أيامًا في لذتها، أو
نكدها كأنها ليست من أيام هذه الدنيا؟ لعمري لو أمكن أن تأتي إلى
الأرض رسالة من إحدى الحور العين في السماء لما أمكن أن يتلقاها إلا
عاشق على شفتى حبيبته أو خدها، ولو بعثت الجحيم برسالة من زفيرها
وشهيقها؛ لما وقعت إلا في صدر عاشق يتلهف من هجران حبيبته أو
صدها!

أليس كذلك يا حبيبتي؟

في الكون حياة أبدية فياضة لا تفتأ تعمل بالسلب والإيجاب، كأن

هذا الكون العظيم يتحول فى كل لحظة لىخلق، فهو فى كل لحظة صورة جديدة، وما كان فيه سلبيًا فهو الذى يجذب فى مذاهبه وتصاريفه، وهو مبعث القوة المبدعة، وهو الذى يحقق أشكال الحكمة فى جلالها.

وفى المعشوق حياة فياضة تخيل لمحبة أبدية وهى إلى وقت، ولا تزال كذلك تعمل فى خيال محبه، بالسلب والإيجاب، وهى السر فى بقاء الحبيب طريقًا جديدًا ما بقى حبه، كأنما يتحول فى كل يوم لىخلق، فهو فى كل يوم صورة غير صورة أمس، وهو دائمًا معشوق الساعة وقد خلدت عليه النظرة الأولى، وكل ما تكرر منه من ضحكة أو كلمة أو نظرة أو ما إليها جاء لوقته كأن فيه حياة.

وكأنه مولود لا مصنوع، ولدته رغبتك ولم يصنعه هو، فأنت تتلقاه كما يتلقى الأب أو الأم أولاده وقطع كبده؛ لا يزال عليهم كل يوم طابع قلبه. وما كان فى الحبيب سلبيًا فهو الذى يفتن فى دلاله وامتناعه وهو مبعث سحر الجاذبية، وهو الذى يحقق من جماله الخيالى أشكالًا تتلطف عليها الروح لهفة الظمان الضائع فى القفر على تموج السراب وصبغة الرمل الجاف الملتهب بلون الماء البارد الصافى.

يمنعك الحبيب ما تشتهى منه، فإذا هو قد منحك الخيال ولذته وسحره، وإذا هو قد جعلك بالسلب كالمراة لا تتلقى إلا لتعكس. فأنت للحب والشوق، ولكنك أيضًا للتفسير والتعبير، وتجد فى قلبك من أثر ذلك النقص تكامل الحياة، ويصبح عندك فهم الجمال جزءًا من الخلق والفكر، كما هو فىك جزء من الحاسة والعاطفة، فإذا نار قلبك تحرق

المعاني، وإذا كل شيء يتفجر لك عن ضوء أو شعلة: ويحقق لك الحب:
أن الله نور السموات والأرض:

يا حبيبتي أليس كذلك؟

إذا لم يكن ما نعهده بغيضًا شيئًا مفصولًا عن الكون فهو- لا ريب- من ضروراته، وهو بهذا من أجمل جماله في معنى التكوين والإبداع، غير أننا لا ننظر منه إلى هذا المعنى، ولا نعتبر صلته بالوجود، بل ننظر إليه بمعنى التكوين الذي فينا ونعتبر صلته بنا، فلا يكون من هذا إلا أنه قبح وسمح من قبحنا لا من قبحه.

فالكون بما فيه من أثر الخالق هو اتساق واحد منسجم لا شذوذ فيه ولا تنافر ولا قبح ولا بغض، ولكننا نحن بما فينا من قوة الخلق^(١)، نتمرد على الانسجام والاتساق، إذ لا نملك من ضعفنا إلا خلق هذا التمرد، وتتطلع شهواتنا ورغباتنا إلى شيء ما فيكون جميلًا وحبیبًا، وتنصرف عن شيء ما فيكون قبيحًا وبغيضًا.

ومن هذا فليس في الكون إلا الحب والجمال والخير إذ سقطت الشهوات، إذ كل شيء حينئذ يكون مقصورًا على حقيقته التي لم يفسدها بتغييرها، لأن قبح شيء من الأشياء إنما هو صورة انحرافنا عن إدراك لا حقيقة وجهلنا بناحية اندماجه في قانون الاتساق الإلهي.

(١) لا تستعمل كلمة الخلق للإنسان إلا في إيجاد الأوهام والخيالات والصور الكاذبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾، أو في التحويل ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، ولا تجوز غير ذلك مما يستعمله ضعفاء الكتاب في هذا العصر.

أفليس بذلك يكون المعشوق الجميل كأنه تهذيب علمى لروح من بهواه، وتدريب له على الاندماج بفكره وعاطفته فى جمال الخليقة؟
أليس بذلك يكون المعشوق الجميل هو الوسيلة التى يتعلم بها العاشق علم قلبه. أى فن الارتفاع بالأشياء الجميلة عن سذاجتها الفطرية وإكسابها فى روحه الإشراق الإلهى؟

أليس بذلك يعمل العاشق فى جمال العالم، ويكون الجزء الإلهى فيه هو الذى تحرك للحب لينكشف حبيبه بمعانيه السامية، ويشهد جمال ذاته فى الصورة الجميلة التى يهواها، حتى ليستطيع أن يقول لحبيبه: يا نفسى ويا روحى! وهو يحس أنه على الحقيقة نفسه وروحه، إذ يرى أنه متعلق به تعلق الطفل بروحه الكبيرة فى أمه وأبيه؟

وهل غير الحب علم الإنسان كيف ينادى روحه ونفسه فى غيره؟

أليس كذلك يا نفسى ويا روحى...؟



النجوى

وبى زهرة فى جانب النيل قدنمت فرف عليها إذ يروح وإذا يغدو
لطاقته فى طبعها الحب والرضا وتياره فى طبعها الهجر والصد
ويحكى وفاء النيل فيض وعودها وياشد ما ينحط من بعدها الوعد
وفى زمن تصفو على كما صفا وفى زمن ما من "تكرها" بد
ووالله ثم الله، إن حلاوة من النيل للعينين فى فمها تبدو
وإنى وإياها على ظمى الهوى أنا الفم هذا الهوى وهى الخد
آه! وأنا حين أقول آه، أحسبها شعلة تتلوى ذاهبة ممتدة فى قلبى!
آه! وأنا حين أقول: آه، أشعر أن قلبى يمدّها طويلاً طويلاً لتصل إلى
قلب آخر!
آه! وأنا حين أقول: آه، أراى كأن روحى طارت إلى آخر مدها ووقعت!
وكنا فى يوم من أيام الربيع وكل شىء حولنا يتكلم بلغة الشمس فى
لمعة وضوء وجمال، وفى الأزهار معانيها الغزلية التى بها وحدها تظهر
الطبيعة فى رقة امرأة عاشقة.
وفى الهواء نسمات بليلة متعطرة قد خيمت فيها قبلة معترضة^(١)

(١) خيمت الرائحة فى الثوب أو المكان: إذا أقامت.

كأن الرياض فى نشرها الزكى^(١) مصانع يقلد فيها الربيع صنعة أنفاس الحبيبات.

وفى الزمن ذاتية واضحة اشعرتنى أن كل ما حولى هو تعبير بهم أن يتكلم. وكأنما سقط قوس قزح من السماء وماجت ألوانه بعضها فى بعض فغطى الأرض ألواناً شتى بأزهارها وأعشابها.

وكان السماء ما زجت قلبى تلك الساعة فأضاءته بنور الفجر الندى العبق بالنسيم. الملون بالشفق، المتحرك بالسحاب. وكنا فى صباح جميل يشعرنا بكل ما فيه أن شمس طلعت لنا وحدنا.

وكان كل شىء يرف ويزهر كأنه طبع بقبلة من شفيتها.

وبدا الصباح عليها بمعانى الرياض، وعلى الرياض بمعانيها هى، فاجتمع نشاط الكون ونشاط قلبى، وتقتلت كما تقتتل^(٢).. وقالت ضاحكة: لأحبك!

قلت: إن فيها "أحبك" وهذا يكفى!

قالت: وزادت فى ضحكتها: أعنى أبغضك!

قلت، ولكنه بغض من تضحك كما أرى...!

قالت، وزوت من وجهها وتكلفت العبوس قليلا: أعنى...!

فابتدتها أقول: إن تكلف وجهك ينطق بأنه لا يعنى...!

(١) النشر: الفوح الطيب.

(٢) يقال: تقتلت له المرأة، أى تعرضت له، هكذا فسروه، والتعبير من أدق ما فى لغات البشر قاطبة، ولا نظن أن فى غير اللغة العربية ما يقاربه ومعناه: أن المرأة الجميلة حين تتعرض لحب الرجل تبرز مقاتل أنوثتها واحدا واحدا، فكانها تقتتل له.. وهذا تعبير دقيق جدا إلى الغاية.

فذهب بها الضحك مذهبًا ظريفًا وقالت: الآن قطع بك^(١)، فلقد كنت أريد أن أقول "أعنى أحبك" فنفيتها أنت فانتفت!

قلت: بل الآن وصل بي... وما دمت قد قلت "أعنى أحبك" وأثبتها أنت فثبتت...

قالت واستطلق وجهها: إني والله أجد من سرورى أن أعجزك، ولكنك داهية لا تعجز، ولا يزال فى لسانك جواب ما أقوله وما لم أقله!

فقلت: وأنا والله أجد من سرورى أن أقدر، ولكن هل أقدر على ما هو مقدر؟ إن بعض كلماتك هى الآن كلمات، ولقد تكون غداً حوادث!

فاعترضتنى قائلة: أنت تنظر فى نور من خيالك مع نور الطبيعة، فترى أشياء كثيرة غير الأشياء.

قلت: ولكنه هو النور الذى يقيد الطبيعة كلها بمنظر واحد...

قالت: أهو منظر جميل؟

قلت: بل الجمال بعضه.

قالت: وما عسى أن يكون باقيه إذا لم يكن الجمال إلا بعضه؟

قلت: إن فى قلبى كلامًا يسمع من غير أن أتكلم به. وفيه جواب سؤالك!

فاستضحكت وقالت: وعلى هذا فهمت من غير أى أفهم... ألا قل لى، لماذا تكون لغتك هكذا؟

(١) انظر الرسالة السابعة من (رسائل الأحزان)، ففيها ما يشبه هذه المحاوراة الطريفة على طريقة أخرى، وهناك وصف مجلس كهذا المجلس

فقلت: لأن الحب يجعل كل سهل واضح فى الأشياء غامضًا معقدًا فى النفس، وهذا هو سره، وبهذا يرتفع عن الإنسانية ويجنح إلى التأله، وبسره وتألهه يخلق كل ما يمسه فى صورة ثانية مع صورته التى تقوم به، فيجعله بصورتيه من الكون، ومن النفس العاشقة أيضًا، وليس من شىء خلق مرتين، ولكن أشياء الحب كلها كذلك خلق ثم خلق.

ليت شعرى، أيعذب العاشق المسكين بهذا التأله الخيالى فيكون عقابًا شديدًا بطريقة غير أرضية؟ أم ينعم به فهو ثواب عظيم بطريقة غير أرضية كذلك؟

إنه لسر عجيب رائع فى قلب من تيمه الحب، يدل عليه انه ما من عاشق إلا وهو يرى أن رضاه عن جمال حبيبته، وتكوين أوضاعها وتناسقها ومشاكله بعضها بعضا، كرضا الصانع عن صنعته وأفتنانه بما أبدع واخترع وبما أتقن وأحكم، كأنه هو قدر وسوى، وسوى وخلق، ولو جاز أن يهبه الله القوة على أن يذرا ويبرأ، ثم أمره أن يخلق لنفسه امرأة، لما صنع إلا هذه التى أحبها بكل ما يحبه فيها، وإن لم يستطع الحب أن يخلق إنسانًا فهو يخلق إنسانية.

بذلك لا يفهم هذا الحب إلا فى أسلوب ملتو، لأن طرفا غائبًا وراء النفس، كالعود من الأعواد غمس أسفله فى الماء فلا يتراعى للعين فى صفحة الماء ملتويًا متشنيًا، ولا يعمل من ذات نفسه، بل بموضعه وبتأثير أحكام الضوء فى موضعه.

والحب يشبه ألوهية دون حدها، فهو بهذا مفهوم غير مفهوم، ويشبه إنسانية فوق حدها. وهو بهذا أيضًا مفهوم غير مفهوم، ولا نراه أبدًا إلا



مصرحاً غامضاً. إن صرح من جهة الحاسة غمض من ناحية الفكرة وكل دونه هو فى النفس يأتى من بعده فى الموضوع والقيمة والاعتبار، لأن فى الحب وحده المعنى الأكبر للحياة فى وهم المحب، على حين كل ما فى الحياة هو فى الواقع أكبر منه، ولن يعيش من لا يأكل ولا يشرب، وعلى أن من لا يحب نراه يعيش^(١).

قال وضحكت: بذلك لا يفهم الحب، وبذلك استطعت أن تجعل لغتك هكذا...

قلت: وبذلك أيضًا استطعت أنت أن تجدى مخابىء لغوية كثيرة تخبئين فيها الكلمة التى تريدين النطق بها ولا تنطقينها، فصارت لغتك عندي تفسر من معجمات كثيرة: من نظرة والتفاتة وخطرة وحركة، ومن شىء ومن لا شىء، وتقولين الكلمة بما شاء دلالك من أساليبه الكثيرة، إلا بأسلوب النطق كأنها تراغمك على أن تظهر وتراغمينها على أن تخفى. أتعلمين أنك كالدولة من الدول العظمى، حاشدة كل وسائل الحرب معدة لها فى كل وقت، فهى بذلك ظافرة غالبية من غير حرب، كأن وسائل الحرب تقا تل من غير أن تقا تل؟^(٢)

قالت: يا ويحك! فإذا قبلت منك أنى دولة عظمى، فكيف أقبل أنى "أكاديمية" عظمى... حتى تجعل لى معجمات كثيرة؟ وترى ما الذى يمكنك أن تفسره من معجماتى؟

(١) قالوا: اجتمعت أديبة بمحبها، وشغلها الحديث ومر وقت الطعام فقال: مالي لا أرى ذكراً للطعام؟ فقالت له: أما فى وجهى ما يشغلك عنه؟ قال: بأبى أنت وأمى لو أن جميلاً وبشينة اجتمعاً يوماً لا يأكلان ولا يشربان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وانصرفا.
(٢) تمنع الاعتداء فكانها تقا تل وترده الدولة المستعدة، إذ يقبها غيرها.

قلت: يا ويح غيرك!^(١) أمكننى يا جبارة المستحيلات ما أمكن الغزال من جبار الممكنات...

قالت: أسالك عن مستحيلاتى، ولكنى ما هى ممكنات غزالك؟

قلت: إن غزالى هذا كان فيلسوفًا لا يصدق إلا ما يقره، ولا يقرب مالا يمتحنه، على طريقة الفيلسوف (كانت)^(٢).. ولم يكن رأى سبغًا قط، وهولوا عليه فى أوصافه ورهبتة وسطوته، فلم يصدق شيئًا من ذلك إلا أن يراه ويديره درسًا تحليليا، كما تسمين أنت كلامك وفلسفتك قالوا فأطال الغزال الفكرة فى ذلك، ودبر أن يلقي الأسد ويديره ثم إنه قسم الدرس إلى أعمال خمسة على هذا النسق فالأول أن يتجسس مخالب السبع ثم يعجمها ويدق عليها بحجر ليعرف مبلغ صلابتها ويقف على سر تركيبها.. والثانى ألا يكتفى بمثل هذا الصنيع فى الأنياب، بل قرر أن يحطم واحدًا منها.. ليعلم ما سر قوتها ومضائها، والثالث أن يتناول عضلات الأسد فى زوره ورقبته وأعضاده فيغمزها غمزًا شديدًا لعلها من ورم أو شحم وما يدرى الناس، والرابع أن يجىء بالموسى فيحلق لبدة الأسد فيكشف عما تحتها ويرى منظره وقد عرى منها، فلعلها من شعوزته فى القوة واحتياله على مظهرها ورهبتها، والخامس أنه متى فرغ من كل ذلك حمله فى عينى الأسد ودرس

(١) يقول العرب: ويحك! واستعملها عدى بن الرقاع فى شعره: ويح غيرك، اضطرارًا لإقامة الوزن، ولكنها بذلك تكون فى غاية الظرف إذا وقعت فى مثل موضعها هنا.

(٢) هو الفيلسوف الألمانى الشهير المتوفى سنة ١٨٠٤، وكتب على قبره (الناموس الأخلاقى فى، وسماء النجوم فوقى، وكان فى دروسه يجعل الأخلاق والدين فوق كل شىء، ومذهبه فى البحث والامتحان أساسى التفكير المستقل.

ذلك اللحم المخيف من شعاعهما، فإن لم يبلغ من ذلك ما أراد علمه
وفلسفته اقتلع إحداهما وأسألها وبحث فيها ما شاء!

قالوا: ولما جاء العرين وأصبح من الأسد بمرصد وهبت رائحة لحمان
أجداده... قال: النجاة النجاة! ما هذا بالذي خلقت له فلسفة رأسى ولكنه
الذي خلق له عدو ساقى... ووثب يشتمد مع الريح^(١)!

ولكن آه من تعقيد الحب، إن الفيلسوف المتهزم الآن هو الأسد بلبدته
وأنيابه ومخالبه وبكل ما هو به أسد، والمنتصر هو الغزال بلينه ونعومته
وبعينه الكحيلة وبكل ما هو به غزال!
قالت: آه! ولم تزد.

قلت: آه! أنت يا حبيبتي فى، وأشعر بك دائمة الاندفاع والانصباب
فى نفسى، كأنك جمال لا ينتهى، كأنى عشق لا يمتلىء وأنت خارجة
عنى وبنى شوق دائم النزوع إليك، يخيل إلى والله أنه ملء الكون لا ملء
صدرى: وأنه لا يزال شاردًا متسحبًا على الوجود كله لا يجد ما يستقر
عليه، مع أنه واجدك، ومع أنه حائم عليك، وما ذلك إلا لأنك دائمة الدلال،
أى دائمة الانحراف عن لمسات قلبى، أى دائمة الاهتزاز بمعانيك الجميلة،
كيلا تثبت صفة منك على صفة منى، كيلا نتعانق حتى ولا فى المعانى.
أنت اثنتان عندى وليس فى يدي من واحدة شىء، وإذا كثرت الآمال

(١) ترى أمثالا من هذا النحو فى كتابنا تحت راية القرآن، وفى النية إن شاء الله وضع كتاب منها فى
معارضة كتاب كليلة ودمنة، فإن العربية خالية من كتاب فى ذلك تسميه كتابها وتقابل به ما فى
اللغات الأخرى، كما كانت خالية من رسائل الحب.

قلت: وانظر ما كتبنا عن ذلك فى ص ١٦٥ من كتابنا (حياة الرافعى)

لتكثر حسرات الإخفاق عليها، فلماذا لا تقول إن الأمل هو الاسم الصحيح للخبيبة؟

إنك لى كالرؤيا من الرؤى السماوية، فالتى هى أنت ليست فى التى هى أنت، وبذلك فالتى أحبها فىك لا يمكن ان أجدها فىك^(١)، كأنما نتلاقى فى عالم بعيد من وراء ظواهرنا.

كأنما قامت منا فى الحب حدود دولتين، فلن يتقدم حد منهما إلى حد ويكون بينهما سلم، ولا سلم إلا فى هذه الوقفة الثابتة، ولا إخلاص ولا محبة ولا ثقة إلا أن يدق مسمار الزمن فى كليهما فإذا هو من الآخر بعيد على قرب قريب على بعد!^(٢)

كأننا نعيش فى أمس، يجىء يلبس كل يوم من أيامنا لا قوة تناله فتزعه، ولا قوة تناله فتبليه، فما تزال تتجدد من تحته أيام الحب فى سر منا، ونعطى كل يوم عالماً ولا نأخذه ولا نتلقاه!

كأننا فى يوم هجر خالد علينا، فكل ما يأتى بعده من الأيام ميت فيه لا محالة، إذ أيام الحب إنما هى بنسبتها إلى الحبيب لا إلى الزمن.

كأن هذا الحب قد ضرب بيننا وبين الحقائق بسور ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، فكل ما رأيناه رأى العين من فرح الأشياء ولذاتها، علمناه فى علم أنفسنا أوجاع مكابدة وآلام حرمان!...

(١) أى هو يهوى التى يهواها ليجد فيها مسرات الحب، وهذه ليس فيها إلا عذاب الفسفة. كما يعرف من وصفها فى «رسائل الأحرار».

(٢) إذا كان السلم بين دولتين متجاورتين، فأبعد الأشياء مثلاً عن كل منهما حد جارتها الذى هو أقرب الأشياء إليها.

فأضجرت فلسفتها هذه الفلسفة فقالت وابتسامتها ظاهرة على قولها:
وأما قبل؟^(١)

قلت: وأما قبل فكأنما أنا المكان الحى الذى تثن فيه الأشياء أنينها
الباكى، وتبتغى فيه موسيقى الحب من أوتار متقطعة متبعثرة إن جاءت
بشيء فبأنغام موتى أو مرضى، وإنى لأحسب الدنيا كلها تصدح من
حولك تلقين فيها النغم ثم لا تحسبين الصمت إلا لى أنا وحدى.

قالت أف للشاعر من الشاعر نفسه! أنت كما تريد من الحياة مسرة
لابتسامك تريد منا آلاما لعبوسك الشعرى، وإذا لم تجد الألم أو جدته
واخترعته، كأنه لا بد لمن يصنع شعراً أن يصنع مقادير يفرح بها ويحزن!
ما أرانى أفهم عنك حين تقول: السماء والطبيعة وهى، الشمس والقمر
وهى، والخير والشر وهى: فأنت وحدك تفهم هذا، لأن للشعراء شياطينهم،
فلك مثلهم شيطان يحدثك وتحديثه، وترى ما اسمه.

قلت: اسمه "هى"...

وكأنما كان الشيطان غائباً فى سفر طويل ورجع عند ذكر اسمه، فلما
رآها هى اسمه ألقى فيها سحرًا من سحره فإذا على ثغرها برهان ثغرها...
وقالت: اسكت!

قلت: لقد عرفنا الشيطان باسمه...

قالت: اسكت!

(١) مرت رسالة (أما قبل) فانظر فيها وفى سبب هذه الكلمة ومعناها.

قلت: ما يسكتنى ولا الشيطان نفسه.

فمدت إلى نظرة طويلة كلها براهين على قوة هذا الشيطان الفاتن،
وقالت اسكت اسكت!

ثم لا أدري ما الذى أسكتنى حينئذ؟ أحسب أن الشيطان سد فمى
بفمه؟

آه! وأنا حين أقول آه! أحسبها شعلة تتلوى ذاهبة ممتدة فى قلبى!
آه! وأنا حين أقول آه! أشعر أن قلبى يمدّها طويلاً طويلاً لتصل إلى
قلب آخر!

آه! وأنا حين أقول آه! أرانى بعدها كأن روحى طارت إلى آخر مدها
ووقعت، آه!



هل أخطأت..؟

قالت له يومًا في أمر من الأمور: "قد أخطأت" و غضبت أو تغضبت فكتب إليها هذه الرسالة:

لقد قلت يا حبيبتي إنى أخطأت، ورميتنى بها كلمة مقفلة لا منفذ منها ولا مخرج، ولا أدرى والله كيف أخطأت، ولكنك لما قلتها وتغضبت فيها وتعتبت لها أثبت فى الكلمة معناها...

ولو أنى راجعتك فى ذلك مئة مرة، ولكل مرة برهان ومع كل برهان اقتناع، لما استطعت أن انتزع دلالك أو نعتك من هذه الكلمة. فأنا بدلالك أخطأت لا بعملى، وبرغبتك فى الإساءة إلىّ قد صرت مخطئًا لا بإساءتى، والتهمة ثابتة عندك لا بواقعة ولا دليل ولكن بشبوت حبى لك...! ولقد نظرت إليك حين قلتها ونظرت إلى، فكانت شفقتك تتهمان وعينك تعتذران، وكان لسانى يعتذر وعينى تتهم، وكانت الكلمة نفسها تكاد تقول: ما جئتك لأدل على معنى وقع منك أنت؛ بل على معنى وقع فيها هى.. وقد اعتدت منك فى بعض حالات قلبك أن لا تضعى المعنى فى اللفظ الذى هو تعبيره؛ بل فى الذى هو تعبير ما بينى وبينك، فمعنى قولك إنى أخطأت، يجىء فى تعبير آخر كأنك تقولين: تذللى.

لا تزال الكلمة كلمة من اللغة حتى تقوليها أنت، فإذا هى كلمة من الفن؛ وإذا فيها ذاتية وحياة ولها تاريخ؛ ولو بمرورها من شفقتك؛

أنا أخطأت لأنى لم أخطئ... فهى كلمة حب من معنك أنت لا من

معنى الخطأ اللغوى، ولذلك أقرها، فإذا قلت لك: نعم تجيء هكذا، هل ترضينى؟ نعم أرضيك! أأست تطيعنى؟ بلى أطيع! هل تتذلل؟ نعم أتذلل! هل أخطأت.. نعم أخطأت!

وأرضيك، وأطيع، وأتذلل: كلها بمعنى أحبك أحبك أحبك!

فما رميتنى بخطأ ولا أجبت بإقرار ولا بقيت للكلمة عقدة تمسكها فى معناها، ولو رأينا لرأينا الحب يضحك فى هذه اللفظة بمقدار ما تعبس فيها اللغة؛

وكلمات الحب كلمات يتغير عليها الحس فتفهم على أوجه مختلفة وتشاكلها معان كثيرة: وكأن طريقة قولها تخلق فهمها، فما هى من عام اللغة بل هى من خاصها، إذ اللغة بين أهلها جميعًا وهذه بين اثنين خاصة، واللغة ألفاظ مفسرة بما تلبسه، وهذه تفسر بما يلبسها، واللغة تشير إلى الموجود إذ لا يراد بها إلا التعبير للفهم، وهذه تشير إلى غير الموجود أيضًا إذ تريد مع الفهم العاطفة ولا بد أن يعطى فيها القلب إرادة.

ورب كلمة ينبذها إنسان لإنسان فإذا هى على قلبه كالريح السافية تعقد فى الظهيرة ضبابًا خانقا من تراب الأرض... فإذا ما لفظها حبيب لحبيبه نسمت على قلبه كرويحة الفجر فى ضباب من الطل والندى، على حديقة ملتفة، إذ كانت هناك فى منطقة اللسان وكانت هنا فى منطقة القلب، وكانت ثمة فى جو من عداوة قائلها وكانت هنا فى جو من حب قائلها!

أنت علمتني بحبك أن هذا الكون على اتساعه موضعا خاصا بقلبي وحده، فمهما اتسعت اللغة فى مذهب تعبيرها ففى قولك إنى أخطأت معنى خاص بى وحدى يا حبيبتى.

وأنت أريتنى أن الجمال هو تصوير الحياة بك، فكلامك لى هو تصوير اللغة بك وحدك أيضًا يا حبيبتي...

وإذ ابتسمت وقلت إنى أخطأت، فتلك ألفاظ متبسمة من دلالتها، وإذا عبست وقلت إنى أخطأت فتلك ألفاظ متعنتة من دلالتها، إذن فاعملى أن فى كلمات غضبك معنى كذلك أراه لى وحدى يا حبيبتي...

وكلام الكبير مع الطفل يكون بلغة واحدة وهو فى الحقيقة بلغتين لمعنى عاجز فى الطفل^(١)، وكلام الحبيب مع الحب بلغة واحدة هو كذلك بلغتين لمعنى قادر فى المحب: فالمعنى المفهوم من إحدى اللغتين فى قولك إنى أخطأت، هو يا حبيبتي لى وحدى وكما أفهمه أنا وحدى..

وإدراك على برهان خاصيتك منى، فلم لا يكون اتهامك إياى برهان خاصيتى منك؟

سأندلل لك يا حبيبتي وسأرضيك وسأطيعك و. وسأخطىء...



(١) الكبير قوى فى الإدراك محيط بصور كثيرة من المعانى، والطفل قليل الصور الذهنية فى إدراكه فيفهم من كلام الأول إذا فات قدرته عجائب وغرائب فى لغة ليس فيها عجيب ولا غريب، وكذلك المحب. يتأول الكلمة من حبيبه منها فيخرج منها تهاويل وتهاويل، وربما قضى ليلة إلى صباحها فى تفسير لفظة واحدة صحبتها إشارة أو لابتستها قرينة، وقد لا يكون فيها غير معناها ولكن العاشق يريد فيها رغبة لا معنى، فكانه من همه بها مكلف أن يخلق منها خلقًا. وهكذا.

قلت وقالت^(١)

قطرات الماء القليلة جدًا إذا أصابها الظمان الذي بلغ به الظمًا جفاف الروح، تحولت في تسعير خياله والتضرم على كبده قطرات من اللهب الأبيض.. وكذلك في ظمًا الحب، فإن القليل جدًا مما يداوى به الحبيب، هو الكثير جدا مما يمرض به المحب...!

قالت له: اغضب ما وسعك من الغضب وما وسعت منه، فإن غضبك هو نفسه من مقاييس الرضا! ألم تر إلى الحريق في البرق وإلى الصواعق في الرعد، أذاك من امتلاء السحاب بالنار أم امتلائه بالماء؟

الحب أن يخيم جو موسيقى على بعض أيام العمر ليتم فيه الانسجام بين نفس عاشقة وصورة جميلة، إذ لا بد لانسجام الجمال في الحب من أن يكون المعشوق عند محبه في مثل تناسق اللحن الفنى لا يخرج منه شيء عن الوزن والطرب، فإذا كان العمر صفحات مكتوبة فأيام الحب الصفحة المكتوبة بعلامات النغم، لا يقرأ شيء فيها إلا لحن ورن ورجع وصل^(٢).

وتعاتبنا مرة فغضبت، فقال لها؛ فلنفترق، فما في الغضب من شيء إلا أنه عناد الموقف، إن الموقف بين متكلمين أو متساجلين هو موقف حى، فما أسرع ما يثب القلب إلى القلب في لفظة غاضبة، فإذا اللفظة من ذلك

(١) انظر فصل «قالت وقلت»، صفحة ١٢٩. فهذا تكلمة لما هناك.

(٢) الصلصة: الصوت الرنان، والترجيع: أن يرجع بعض النغم على بعضه للتطريب.

كأنما ملأها الدم ومثلتها الحياة فأصبحت شخصًا غير الاثنين لا يبالي
بهما نفعًا ولا ضرًا!

فاستضحكت لهذه الفلسفة وفككت لكلامه. وما يعجبها شيء ما
تعجبها المعاني. ثم قالت: إذن يمكن الاتفاق وتقرير الأمر مع الكلمة. أي
مع الشخص اللفظي الغضبان لامعك أنت...!

وقالت له في أمر: أنا راضية بحكمك فاحكم.

قال: قد عرفت الحكم ولم أنطق به...

قالت: فهل الحكم عطر في منديك أعرفه من الهواء؟

قال: بل عرفته بنفسك الرقيقة الملهمة: وأما والله يا حبيبتي لو كنت
محامية لسرقت من أدمغة القضاة أحكامهم...

قالت: منزلة رفيعة ولكنها على سرقة وتلصص.

قال: يا عزيزتي يلذ لي أنها سرقة، لأتخيل لها قانونًا ومحكمة وقضاة.

قالت: ثم ماذا بعد قانونها ومحكمتها وقضاتهم؟

قال: أرافعك إلى تلك المحكمة وأتهمك بتهمة سرقة قلب...!

الحب طفولتنا الكبيرة كل ما تملكه أن تبكى وتضحك وتمكر وتناقض،
ومعنى ذلك كله أريد أريد! ولو أمكن أن يكبر الطفل ويبقى طفلًا لكان
هو العاشق بذاته، وكان حبه لأمه وأبيه مضاعفًا عند السنين التي كبر
فيها. هو العشق بعينه!

الدموع أوهى أن تهدي شيئًا، ولكنها تهدم صاحبها!

الدموع هي روح المحيط السماوي، ألا ترى أنها لا تسيل إلا مع الأقدار؟
متى نزل القدر نزل الدمع.

المعنى الذى يكون فى النفس أكبر من الكلام فى الحزن والفرح هو وحده تعبر عنه النفس بدموعها.

سألها مرة: ماذا يقول البحر لو سقطت فيه دمعة من مهجور؟
فقلت إنه يقول: إنسان أحرق أو مجنون يحاول أن يجعل له بحرًا من قطرتين...

قال: أراك يا فيلسوفتى لا تفهمين لغة الوجود!

قالت: فما ترى أنت؟

قال: إنه يقول عندئذ: تباركت يارب! أنا الجبار المالىء ثلاثة أرباع الأرض، قد ألمتنى دمعة محب متألم؛ فهل هو يحمل ثلاثة أرباع الهم فى الأرض!

فى نوح اللحن الشجى صورة الدموع التى فى أعيننا، وإذا حن كانب فيه شهوة نفس، وإذا جنح إلى الطرب كانت فيه رغبة واقعة. وليس فى الكون ما يجمع هذه الألحان الثلاثة المتبانية فى صوت واحد إلا زفرة الحب يأسى العاشق ويحن ويطرب فيقول: آه...

لو سألتنى: من أعظم أهل الفنون على وجه الأرض؟ لقلت لك: كل حبيب جميل هو فى عين محبه أعظم أهل الفنون؛ لأنه فى نظر هذه العين هو وحده الذى يخلق الجمال الحى الرائع ويضع معناه فى كل ما يتصل به، حتى لكان جمال تفرق على أجزاء العالم، أو كأن أجزاء العالم التفت على جماله.

وقالت له: أنا لا أشفق على آلامك! وهل ترانى أكره لك النبوغ والعبقرية؟ إن الألم فى رجل الفن العبقرى إنما هو (عملية) التصوير والطبع فى مخيلته؛ فمواهبه الحساسة تخزن الوجود فى، وكلما رأى جمالا أو



قبحًا أو سرورًا أو حزنًا غمرته ليتألم بمعنى ما رأى وحكمه ما أبصر، لأن جهة الفن في كل شيء هي معناه وحكمته، فيتألم، فينطبع المعنى.

فيكون في المخيلة مادة من مواد العمل الفني حين يعمل، فذلك ليس ألقًا في إنسان كما ترى، بل هو أداء طبيعي في أداة حية متخذة لهذا العمل خاصة، ميسرة له بكل حوادثها؛ ومن هنا فلا رحمة ولا مهاونة فيما يؤلم رجال الفن، إذ تعرف منهم الحكمة التي خلقتهم إلا آلات، آلات يجب أن تعمل حتى تتلف أو تتحطم...

تزداد الجميلة إشراقًا وجمالًا بالحب، لأن أثر نظرات محبها يلازمها، حتى إنها لتحس في غيبته كأن نظره واقع عليها من عينه لا من فكرها، وبذلك تتجرد معانيها النسائية لعلمها الفني وتدأب عليه، فلا تزال تجعل وتحسن ما دامت محبوبة معشوقة.

الحب إيمان النفس بكائن طاهر، والدين إيمانها بكائن خفى ألا يكون ذلك أسلوبًا في الطبيعة لحفظ الإيمان في الإنسانية؟^(١)

أشعر أحيانًا كأنه مامن رجل في العالم يحب امرأة إلا ألم بحس شيء من لذة هواه، فإن لم أكن أنا العالم كله فلقد جعلت حبي هو الحب كله!

أنت في، وأنا أنظر بك إليك، وهذه هي المشكلة التي جعلتك لغزًا لالحل له، فما أقرب الحب من العبادة، مادام هذا الحب هو تجلى نفس في نفس، وما أشبهه بدين يعبد فيه الجسم الجسم، فالمعشوق حالة نفسية متأهله معبودة، والعاشق حالة أخرى متولاهة عابدة؛

لو عشق أعظم علماء الدنيا لأيقن أن حيرة عقله في أسرار الكون

(١) تقدم وجه آخر من هذا المعنى فيما نقلناه من كتابنا «المساكين».





لها شكل أدق وأغمض مع أسرار الحب، ولعرف أن فى أعماق النفس الإنسانية مثل ما فى أعماق الوجود: مسائل لا حل لها، ألا يخرج من ذلك أن كل محب يقابل الطبيعة بقلبه أو إحساسه أعظم العلماء بعقله وآلاته؟ قد عرفنا أن لنا أعمارًا محدودة، يجوز أن ساعات الهناء والسعادة إنما كانت محدودة لأنها أعمار لأعمارنا؟ فبضعة أشهر من الجفاء أو البعد يكون عمرها هو ساعة اللقاء التى تتفق بعدها، وسنة كاملة من عمل يكون عمرها يوم سرور؟

إن كان هذا صحيحا فما أقصر عمرك يا عمري...؟

كل الأمنى التى لا تتحقق، هى وجود مخنوق فى القلب!

من تأله الحب أن أوقاته هى الأوقات التى تتغير فيها الأشياء فتلبس فى أفكارنا غير حقائقها، وبذلك يثبت الحب أنه أقوى من الحقيقة، إذ كان يخلق فيها خلقة ويغيرها فى الفكر، وأنه أقوى من الزمن: إذ كان يطول به على العاشقين ويقصر مع أن الزمن لم يقصر ولم يطل، وأنه أقوى من الوجود، لأنه دائما إما ينقص منه فى نظر العاشق وإما يزيد عليه.

إن المحب ليشعر أحيانا من شدة القلق والاضطراب أن فكره يدعو بين الأشياء والحوادث وراء الاطمئنان الذى فر من قلبه!

حين يجد العشق بصاحبه يحبس عليه الزمن كله فى نقطة هم ثابتة لا تتحرك، فتشتبه عليه الأيام حتى لا يشعر أنه يقضى يومين أحدهما يختلف عن الآخر.

للعيون التى وراءها ضروب الأفكار المختلفة، هى وحدها التى فيها ضروب التعبير المختلفة.

فى المحب لا فصل بين الصغائر والكبائر؛ إذ كانت قيمة الصغيرة

والكبيرة فى اعتبارها لا فى ذاتها، والحادثة فى الحب تكون بالحالة التى تقع فيها أكثر مما تكون بنفسها فالهجر وهو أشق وأعنت ما فى الحب، قد يكون لوعة مطمئنة إذا كان عن دلال أو سلوان من الحبيب ولكنه أشد الفظائع كلها وأكبر من القتل إذا كان سببه الميل إلى محب آخر، فهو فى سببه أكثر مما هو فى نفسه، لأنه خرج من المكان إلى الشعور.

الليل والفجر والشفق والأصيل، هى أوقات الجمال فى النفس؛ ولن يجعل لها سحرها الساحر إلا أن يكون ذات مرة قد وقعت دقائق ملونة... فى ساعة حب!

ما وقفت أمامك مرة يا حبيبتى أنظر إليك إلا قلت فى نفسى: من هنا يبدأ ما لا يدرك!..

أصل الحب العاشق اتساع الرغبات المنجذبة وخروجها عن حدها، وأصل الجمال المعشوق اتساع الأسباب الجاذبة وخروجها عن حدها كذلك، فمن ثمة لا أناة فى الحب ولا عقل ولا استقرار، إذ هو اجتماع فوضيين بائرتين على نفس ضعيفة!

هل تأملت مرة فى اسم حبيبك؟ وهل تعرف فى الأسماء الكثيرة التى تماثله ما يماثله؟

إن كل الأسماء من اللغة وهو وحده من النفس والأسماء كالأرقام الحسابية وهو وحده كالواقع المدلول عليه، تقول: مئة ألف، فتذهب كلمة فى الهواء ليس لها ولا حقيقة واحدة. ثم تعد الذهب وتقول: مئة ألف دينار، ففى هذه وحدها مئة ألف حقيقة!..؟

أنا يا حبيبتى قد تجاوزت المنطقة الإنسانية، التى يقع فى حدودها المدح والذم، فلا تأبهى لمن يذمنى عندك أو يمدحنى.

إنا فوق هذه الطبقة التي يتنفسون منها كلامهم، فإن ارتفع يريدني
أحد منهم فوصل إلى خنقه واصله إلى...!

فلان وفلانة، هو بدونها ناقص لأنه وحده، وبها ناقص أيضًا لأنه معها..
هي كالفصل له عن الكمال، وهذا أكثر عمل المرأة وعمل أكثر من النساء...!
أنت لا تحفلين أحببتك أم أبغضتك؟ ولا تدافعين عن شيء منك في
نفسى ولكن كل شيء منك يدافع في نفسى عن نفسه وينتصر ويتغلب...

هل تلبس الزهرة أوراقها ولونها إلا لتظهر عارية الجمال؟
هل تلبس الحبيبة كبرياءها ودلالها ولا لتظهر عارية الحب؟... ومع
ذلك فروح الشجر المر هو الماء العذب!



يا قلبى

كان لى قلب، فياعجبى
ضاع من فابحثوا تجدوا
ويحه قلبًا أعيش على
يرتقى كالنسر ثم ترى
ههنا قلب وحامله
ذاب ذوب العطر مذ وقدت
ضره ما كان منفعة
عابس كالليل. ليس به
وهنا قلبه وصاحبه
تقرص الآلام مهجته
والحديد الصلب تحسبه
... لم يلن لا بمطرقة
وسؤال لا جواب له:
لويبين الحلو خالقه

ليس فى جنبى سوى أثره
فى ابتسام الحسن أو نظره
صفوة عيشى على كدره
مرتقاء عين منحدره
ميت الأمن على حذره^(١)
لهوى نار على زهره
نفعه ما كان من ضرره
أمل إلا سنا (قمره)،
قد بنى الدنيا على حجره
مثل قرص الوحش من ظفره^(٢)
صورة عمياء من صوره...
من قضاء الله أو قدره
أى زين الحلو فى ثمره؟
كيف يسقى المر من مطره؟

(١) من كان حذرًا مستمرًا فى حذره كان ميت الأمن، إذ لو أمن لما حذر.

(٢) الإنسان لا يشعر إذا هو قرص فى ظفره الرقيق، فكيف بالوحش وظفره كمنحرف الإسكاف؟

البحر

"وكتب إليها من شاطئ البحر وكان قد ذهب إلى هناك مستشفياً من علة أصابته"^(١).

لقد كنت والله من وثاق المرض كالسجين المغفل: يحمل على أعضائه أعضاء من قيود وسلاسل، فلا يجد كل الأمكنة أوسعها و أضيقتها إلا جسمه والجسد الحديدي الذي فيه جسمه، وكأنه من الكرب لم يقيد وإنما أقفل على روحه من ذلك الحديد بقل يكف هذه النفس ويحول بينها وبين الدنيا.

فلما احتواني البحر جعلت سلاسل تذيب فيه شيئاً من شيء في يوم من يوم، ثم كأنها لم تكن إلا آثار لون أسود فغسلها البحر ومحاهها، أو كانت جمرات ألم أحمر فأطفأها وسال عليها.

ألا ما أعجب رحمة الله! فبينما هموم الإنسان في موضع هي أشد اندماجاً من الحديد، إذا هي في موضع غيره متخلخلة أسرع ذوباً من الملح المبتل: كأن مكاناً يلبس أنفوسنا ومكاناً يخلع عنها، أو كأن الأرض بتباين أمكنتها وبقاعها تقابل الأقدار في اختلاف عللها وتصاريقها، حتى يكون السفر من بلد إلى بلد أحياناً كأنه من قدر إلى قدر.

(١) كان صاحب الرسائل قد مرض مرضة طويلة بالنزلة الشعبية. فجذعت لمرضه، وكانت تعالجه بأسطر من بلاغتها كالدواء، وذهب إلى البحر متثقلاً فلما وجد خفاً من نسيمه وروحه كتب إليها هذه الرسالة، ولم ننشر رسائلها إليه في مرضه لأنها خاصة.

كان المرض يخيل لى أن هواء ناحيتى مستنقع معلق... فجئت إلى هواء البحر فإذا هو بحر ذائب^(١) يحس التنفس منه أن فى صدره مثل الموج على ما ركذ فيه مما تركته الأيام والليالى من أحداثها وهمومها، فإذا صدره جياش مصطخب بالحياة يفور بها ويضطرب، وإذا موجة من العافية قد اندفقت فى هذا الصدر فتلج وابترد وتنقى كأنما غسل ثم غسل إلى ملء بحر.

وأرى السماء هنا والبحر متدل منها، فكأنها مخيط أزلى وهذا البحر كله موجة واحدة وثبت من هناك عن ثبجها الأزرق^(٢) ووقعت إلى الأرض، أو هذا بحر سائل موار إذ هو يدفع أنفاس الحياة الأرضية الفانية فلا بد أن يجرى ويتحرك، وذاك بحر مستقر لثباته على الأزلية الخالدة، ويقع من أحد البحرين ثياب اليقين فى روحى ومن الآخر حركة الأمل فى قلبى، وتندمج بهما فى حياتى روح أيام زاهية مضيئة كأنوار السماء، وروح آمال بلية منعشة كأنفاس البحر.

وأرى البحر مائجًا يترشش ويتناثر وهو بارد، ولكنه يبدو كما يغلى الماء فى وعاء على النار يتقاذف من شدة ما يغلى، ويضطرب ويدوى كما يرجف الرعد ترددت هدهدته^(٣) يجاوب بعضها بعضًا، فكأنما البحر سحب عظيم قد حبسه الله فى الأرض فهو أبدًا تائر يضج ويرعد ولا يبرح ينازع الأرض أن يفر منها!

وأعرف للبحر فى نفسى كلامًا؛ فهو يوحى إلى أن تجدد تجد فى آمال قلبك كأماجى لكيلا تمل فتياس: وتحرك تحرك فى نزعات نفسك

(١) جو البحر: ظهره يكون مشبقًا من بخار مائه، فكان تلك البلة بحر ذائب فى الهواء.

(٢) ثبج البحر: ظهره؛ ومن ينظر إلى البحر فى آخر الأفق يتخيله كذلك.

(٣) الهدهدة: رجفان الرعد على السحاب.

كتياري لئلا تركد فتفسد، وتوسع توسع فى معانى حياتك كأعماق لئلا
تمتلىء فتتعكر، وتبحر فى جوك الحر كرياحي^(١) لئلا تسكن فتهمد.

كن مثلى جبار الحياة مجتمعًا من ألين اللين وأعنف القوة، كن مثلى
قديس الحياة واسع الروح نظيف المادة مستعينا لواحدة بواحدة^(٢) كن
مثلى جميل الحياة ثابتًا على الرقة والصفاء وإن من وراء شاطئيك
الرمال والحجارة وطين الأرض وناس الأرض... كن مثلى حر الحياة
محتفظًا بالسعة والحركة والعمق، كن مثلى إلهى الحياة ليس بينك وبين
السماء شىء يحجبك أو يحجبها وعلى وجهك دائمًا أنوار الشمس والقمر
والكواكب، كن مثلى شاب الحياة فلن تهزم أبدًا إذا تلجت روحك بالرضا
فتبلل شبابك بأندائها، فعمرك كله عمر الفجر!

ولكن أيها البحر! ما هذا البريق الذى تسطع به حتى لكأنك تحت
الشمس أرض من الزمرد والفيروز والماس؟

وما هذه الرقة فى هذا الأديم الذى تتعرى به حتى لكأن كل موضع
فيك عليه بضاعة وإشراق من جسم فاتنة عارية؟

بل ما هذا التوحش فى هذا الموج الذى تزار به زئيرًا يتردد فى كل
نواحيك حتى لتلوح كل موجة من كل موجة كأنما هى لبد أسود بيض
غاطسة فى الماء يحمل بعضها على بعض للقتال؟

وما هذا الهدوء ساعة تستقر فى جو خافت كهمس التسبيح فتبدو
كقلب المؤمن رسب فى أعماقه اضطراب الظن بالحياة وطفا على
اطمئنان التوكل على الله؟

(١) البحر: التشقق والتوسع.

(٢) كل واحدة من هذه المعدودات تعين على اكتساب الأخرى.

وما هذه الثورة ساعة تستقر فى جو كمعمعة المعركة، فتظهر كالمخبول
ثارت خواطره فهن كأمواجك مبعثرة طائرة وكأن زوبعة سكنت فيها؟

وكن أيها البحر! هل يقال لك : ما هذا؟ وما هذه؟

كلا، فما أنت إلا كذلك الجمال المعشوق: يسطع ويرق ويتوحش ويهدأ
ويثور، وله الأشعة الزاهية البراقة، والعرى الحريرى المخمل، والزئير
والهمس، والأعاصير والزوابع، ثم لا يسأل فى كل هذا ولا مرة واحدة: ما
هذا؟ وفى كل هذه ولا مرة واحدة: ما هذه؟

ورأيت يا حبيبتي هذا البحر مضيئًا ممتدًا كأنه نهار أبدى أمسكته
الدنيا لينير النور فى قلوب أهلها فإن النور يظلم فيها.

ورأيته كالمعانى الندية بثها الله من رحمته فى جفاف الحياة ومعانيها.
ورأيته استواء واحدًا فى وضع الجمال، ليس فيه موضع أعلى من موضع.
ورأيته دائم التراجع كأنه متهيئ أبدًا ليسكب معانيه فى فكر الناظر إليه.
ورأيته لا يحمل أن يوضع لإرادته حد فهو دائمًا يصدم الشاطيء كأنه
يقول له: اذهب من هنا!..

رأيت فيه كل هذا، لأن مثل هذا كله فى جمالك أنت وفى معانيك.

فأنت بجمالك المشرق لمعة من نهارى.

وأنت بعواطفك رحمة من الله لقلب لولاك لجف.

وأنت بحسبك لؤلؤة كلها وضع واحد فى الحسن.

وأنت دائمة التراجع فى خواطرى دائمة الانسكاب فى قلبى.

وأنت لا تحتلمين أن أضع شاطئًا لإرادتك.

وأنت، أنت، أنت..

فلسفة المرض

” لما برىء من مرضه كتبت إليه تسألته فلسفته فى المعانى التى ينشأ المرض لإيجادها فى النفس، فكتب هذه الرسالة وتجافى عن ذكر الحب فيها، إذ كان الشأن حينئذ شأن الحياة، وقد كتبها وهو فى أعقاب العلة، ولولا أنها هى طلبت منه هذه الرسالة وأنها أعجبت بها وعدتها من آثارها فيه لما نشرناها هنا“.

خلقت نفس هذا الإنسان وكأنها ثلاثة أنفس، إذا كان دأباً لها أن تكون طامعة متلفتة وثابة، فهى لا تسكن على رزق ترزقه، ولا تثبت على حال تحول إليها، ولا تقر فى منزلة تسفل بها أو تعلو.

وهى كذلك لا تبرح تنزع مما وجدته إلى مالم تجده، لأن الشوق أحد عناصرها: ولا تنفك متقلبة تجعل ما ترضاه يوماً هو ما تسأمه يوماً، لأن الرغبة إحدى طبائعها: ولا تزال تتخطى حدود الأشياء، لأنها من الأزل بنيت على الخلود الذى لا يقف على حد، فالشوق الثائر فى حاجة إلى فترة تكسر من حدته والرغبة المجنونة فى حاجة إلى ضعفه تهدىء من ثورتها، وخطوة الخلد التى لا تزال دائبة تتقدم، فى حاجة إلى عثرة بمعنى من معانى الفناء المعترضة فى طريق الحياة.

وبذلك يكون الإنسان دائماً فى حاجة إلى بعض الأمراض، لا ليمرض ولكن ليصح، إلا أنواعاً من أساليب الموت تسمى أمراضاً لا حيلة فيها

ولا يكن المريض معها إلا كالوعاء يشق ليحطم وينتهى، لا كالوعاء الذى يصب ما فيه لينظف ويملاً ويبتدىء.

فالمرض الرحيم وضع النفس فى وثاق يمسكها حيناً ليحبسها على تأمل حقائق الحياة المغطاة، ويكرهها على أن ترى الدنيا أهون من أن تصغر لها نفس، وأحسن من أن يسقط بها قلب واحقر من أن تتهالك عليها الأحياء، ثم ليربها رأى العين أن العالم مصبوغ بأخيلتها الوهمية التى نفضت عليه ألوان الجنة فأفسدته بهذا التمويه وتركت أهله يتكذبون فى أوصافه فيخطون فى حقائقه وجعلته كالقمر: هو فى ذاته حجر مظلم ولكن ذهب الشمس يجعله كله فضة بيضاء.

إنه لا يفسد الإنسان إلا الغرور، ولا يكون الغرور إلا من الطيش ولا يطيش بالرأى إلا سوء التقدير، ولا يكون هذا سوء أكثر ما يكون إلا بلاء العافية على الإنسان.. وإن من بلاء العافية ثلاثاً. عافية الجسم وعافية الهوى، وعافية المال، فأما الجسم فأقرب ما وجدته إلى الحيوان الضارى الخبيث أشد ما وجدته قوة وعافية وأما الهوى فلم يخلق الله شيئاً كل هلاكه فى قوته غيره، وأما المال فعافيته فى رجل واحد مرض فى ألف رجل إلى ألوف كثيرة، فهو حصر الدنيا كلها فى بعض أجزائها.

فكأنما تطوف الأمراض فى هذا العالم لتصلح نواحى الإنسانية فيه، فتضعف الحيوانية، وتكسر شررة الهوى، وتكف طغيان المال عن النفس حتى لا شهوة فيه ولا قوة له ولو جمعوا ما أصلحته الأديان والقوانين من أحوال النفس وطباعتها: ثم ما أصلحته الأمراض منها، لرأيت أن لله أنبياء من هذه الأمراض يرسلها إلى الدم الإنسانى، وأن "الميكروبات" السابخة

فى الهواء كالأملح الذائبة فى البحار: لولا هذه لتعفت الأرض، ولولا تلك لتعفت الإنسانية.

تأمل هذا المريض وهو حائر النفس، متخاذل الأعضاء، كاسف الوجه ميت الهوى، لا يتماسك مما به من الضعف، ولا ينبعث لما به من المخود؛ ولا يشتهى لما به من الفتور، ولا يتذوق بما فى روحه من المرارة، ولا يجرؤ لما فى حسه من الإشفاق، ولا ينظر إلى الدنيا إلا بملء عينيه زهدًا فيها كأنما بث المرض فى عينيه شعاعا ينفذ الأمور إلى حقائقها ثم يخترق الحقائق إلى صميمها... أفلا ترى هذا الإنسان قد عمل فيه مرض أيام قليلة مالا تعمل العبادة مثله فى أزهد الناس إلا فى السنين المتطولة؟

إنما هى ثلاث وسائل للجميع بين الإنسان وحقيقته العليا: العبادة القوية، وقد عجزت إلا أفراد قلائل، والحكمة الصحيحة العالية وهى أشد عجزًا إلا فى الأقل. ثم لم تكن الوسيلة العامة التى تتناول الناس جميعا ولا يستعصى عليها أحد ممن أطاع أو عصى، إلا المرض...!

يوجد الإنسان ليمحى ويزول، ولم تتمكن الفضيلة الإنسانية من نفس إلا إذا تمكنت هذه الفكرة منها فإن الزائل يرى ليومه ما بعد يومه، ويعلم أن حقه على الناس ليس شيئًا أكثر من حقوق الناس عليه، ويحتاج إلى العمل لروحه كما يعمل لجسمه، وما يكون زاد الروح إلا من آثارها فى الأرواح الأخرى ومن آثار هذه الأرواح فيها، فإذا كانت حقوق الأجسام تدفع الناس إلى التنازع على البقاء فإن حقوق الأرواح تقابل هذا الناموس بما يصلحه، فتزيد فى الناس إلى القوة الرحمة، وإلى الغنى الإحسان، وإلى العزة المروءة وإلى كل طغيان ما يمازجه فيكف من جماحه ويجعله إلى الخير أو من الخير.

وإن أعجب ما فى الإنسان أنه يرى الموت والموتى بين الساعة والساعة، ثم لا يستشعر من كل ذلك معنى زواله. كأن عادة الحياة أخدمت هذا الحس فيه أو خملت منه، وما هو إلا أساس التعاطف الإنسانى؟ ثم لا يكون إلا أن يمرض هذا الإنسانى يوم، فإذا هو قد تلقى الدرس على أحكم أساتذته، ورأى نفسه كان يمشى فقعد، ويستطيل فتقاصر، ويشمخ فانهد، ويسر فحزن، وإذا هو قد بدل من الصوت خفض الصوت، ومن الإعجاب مقت الإعجاب، ومن الخلاف ترك الخلاف، ومن جفوة الناس حاجته إلى رحمة الناس: ثم إذا هو قد أمسك عن كل ما كان فيه من العمل، وأقبل على الصحراء المخيفة التى بين الدنيا والآخرة، وأحسن من غمزة يد الله فى مواضع آلامه أن الإنسان مهما يكن من قوة الأسر وشدة البأس فما هو بعد إلا حبة صغيرة واهنة بين شقى هذه الرحى العظمى الدوارة التى حجرها الشمس والقمر!

سبحانك اللهم! إنما هذه الأمراض أخلاق أنت تنشئ بها الرحمة فى قلوبنا المتحجرة، وتصرفنا فيها إلى نفوسنا بعد أن نكون قد جهلنا هذه النفوس فى أعمال الحياة أو جهلتنا، وتعلمنا جميل صنعك فى تواتر حلمك علينا مع قبيح صنعنا فى ترادف عصياننا لك، وتنقلنا بها فى خطوة سريعة من خطى الأزلية لنرى الدنيا من آخرها فلا نجد نعيمها إلا معانى الهلاك، ولا ملذاتها إلا أصاباً من الندم ولا غناها إلا فنوناً من الحسرة. ثم لا ننظر فى أجسامنا إلا أشكالا قائمة من التراب ولا نعرف من أعمارنا إلا أنفاسا كانت تصعد من فم القبر، وإذا أذنت بعد فى شفائنا ومسحت بيد العافية علينا، كانت الأمراض وسيلة من وسائل تجديد العمر، وخرج المريض وكأنه مقبل على الدنيا من ناحية لم تكن فيها؛ فينسم من كل شىء رائحة الحياة، ويرى على كل جمال أثرًا كأثر الحب ولذته وحنينه،

ويستقبل نفسه الراجعة إليه فى موكب الحواس القوية فلا يكون له إلا ما قد يكون مثله فى الملك المخلوع أعادوه إلى العرش فجاءوا بالتاج وأقاموا له الزينة وحشدوا له الحفل وقالوا: سمعنا وأطعنا!

سبحانك! إنما هذه الأمراض مواعظ منك تعلمنا كيف نضع شهواتنا فى موضعها من الضرورة، ونحصرها فى حدودها من الأزدياء والمقت، فلا تعدو بطبائعتنا علينا ولا تعدو بنا على سوانا، وإنه ما يخطىء امرؤ فى الحياة إلا من إقرار شهواته فى غير أمكنتها حتى تأخذ من عقله وتنال من رأيه وتجور على حواسه، فيقلبها ذلك من أن تكون حركة فى الحياة إلى أن تصير الحياة كلها حركة من حركاتها: وحينئذ لا تكون الشهوات إلا أكثر مما هى، فتقتضى أكثر مما تستحق من الجهد والعمل الإنسانى؛ ولا تكون الحياة إلا أحقر مما هى، فلا تخرج إلا أقل ما يمكن أن تخرجه من القيمة الإنسانية.

سبحانك اللهم! إنما هذه الأمراض فى الدنيا: بعض مواد البحث الفلسفى العميق لدرس أساليب الطبيعة البشرية، فكم من "عملية جراحية" فى طب الناس هى الحقيقة "عملية حسابية" فى وزن هذه الطبيعة وتقديرها، وكم من أنة وجع فى المرض وهى نفسها كلمة عتاب بين الطبيعة والنفس: وكم من ضجعة للداء هى فى الواقع نهضة للأخلاق من ضجعتها.

سبحانك ولك الحمد إن ساعة النجاح وتحقيق الآمال وانتعاش الحظ وتبديل صورة من الحياة بحياة غيرها تكون أسمى وأكمل وساعة الغنى وإقبال الدنيا ومسالمة الأيام، وتزيين الحياة بحياة أجمل منها وأبدع، وساعة الحب وفيضان الجمال على النفس، ونسيان الحياة بالحياة التى هى أمتع منها وألذ- كل هذه الساعات لا تعد إلا دقائق وثوانى من السعادة إذا اتفقت بعد المرض ساعة الحياة ساعة رجوع الصحة!

يوم النوى

يا ظلة الموج يطفى البحر منتفضًا
تظن زلزلة فى الماء قد جلست
تقلقت، فاستطارت فانتنت، فهوت،
على غريق بحبل الماء معتصم
له بقية روح فى أصابعه
بين الحياة وبين الموت مرتكس^(١)
أذاك أعظم هؤلاء فى فجيعته
يالطف نفسى للعشاق! تحسبهم
الحب قاتلهم بالصبر إن صبروا
إن ودعوا ذاهبًا لم تلق حزنهمو
ربى، متى تهب الأحزان مخترعًا
بها، كأن جبل فى البحر يقتلع
أو لا، فزوبعة فى الماء تضطجع
فأطبقت، فارتمت كالرعب تندفع
والحبل فى لمسات الكف ينقطع
ينازع الموت فيها وهى تنتزع
يقيه البحر أطوارًا ويبتلع
أم المحبون فى أحبابهم فجعوا؟
يوم النوى نزع من قلبهم قطع
والحب قاتلهم بالهم إن جزعوا
من أنه سار، بل من أنهم رجعوا
فى هذه الأرض للنسيان يخترع؟



(١) الارتكاس: أن يرجع آخر الأمر على أوله.

الهجر

”ولما تهاجرا كتب هذه الرسالة“^(١) فيما كتب لنفسه“.

رسم الماضي من الحب صورته فى نفسى وأتى الهجر يمحوها
ويرسم غيرها، ففيما يثبتته، ألم الأيام المكروهة تأتي؛ وفيما يمحوه، ألم
الأيام المحبوبة تذهب. ومضى الزمن الذى يومه ساعة، وجاء العهد الذى
ساعته يوم وأيام. وانقضى عمر الحقيقة وبقيت من الحادثات كأنها قبر
من اللغة قد أنزل فيه تاريخ حب مات!

وكما ينزع المرض عافية لبسها الدم، نزع الهجر أيام قلبى، وتركنى
فى أيام كأنها من غير زمنى، ووضعنى منها فى حياة كأننى لا أحيها،
وانتهى بى إلى حالة كأنما وقفت الحياة عندها وقالت لى: سر وحدك
وعش فى آلامك لا فى!

هى حالة النار التى كانت مشبوبة، وتهم أن تخمد فتقول للأثر الذى
تخلفه: عيش وحدك يا رمادى...؟

أما إنى مثلك يا رماد الجمر: قطعت حياة اللهب والشعاع إلى آخرها
المنطفىء...

أية عاصفة احتملتنى من أيام الشمس وليالى القمر، وألقت بى فى
هجر منقطع كليالى القطب المضيئة بجبال قائمة من الثلج كأنها شموع

(١) انظر "رسائل الأحزان" لتستتم معانى رسالة الهجر هذه.

تبير فى ذلك الهول المحيط بها إذ لا تظهر فيه النجوم على سماءها إلا كحصى من الجليد ولا تمر الشمس هناك فى أفقها إلا وهى ترتعد من البرد؟

كان الجو العاصف كلمة غضب صغيرة، ولكن أرادها قلبى بمعنى وأرادها قلبها بمعنى غيره، فلم يبق للكلمة على ما أردت وأرادت لا معنى فى نفسها ولا معنى فى نفسينا، وبطل منها عمل اللغة فإذا هى رعات لازمام لنا من الفهم على جمحاته.

كلمة كانت من المادة النفسية المشتعلة بالعناد المنفجرة بالغضب، المصوبة بعد ذلك كالرصاصة المنطلقة! لا تراها بدأت إلا قلت انتهت، وربما قالوا رميت والمعنى قتلت، وإذا قيل فى الرصاصة المنطلقة قد ذهبت، فاعلم أنه قد مات من اللغة إلى الأبد لفظ رجعت أو ترجع!..

وعلى ظهر كلمة الغضب وضع الماضى رحاله المملوءة جمالا وفكرًا وعاطفة ولذات، وانحدر على طريق النسيان فذهب حيث لا يلحق، ورمى إلى حيث لا يعود!

ألا ما أشأم الساعة التى تعارض فيها كلمة قلب كلمة قلب آخر يحبه، وتقف لها كبرياء معشوقة بإزراء كبرياء تعشقها، وتضيف نفس على نفس تحاول كليهما أن تحبس الأخرى فى سجن كلمتها!

تلك ساعة تكون واللّه بين العدوين أخف وأرحم مما هى بين الحبيبين. ولعمري وعمرك ما التقاء العدو بعدوه فى مناجزة إلا صورة هم وروع مصغرة من صورة ابتعاد حبيب عن حبيبه فى هجر إن معركة الدم لأصغر من معركة الدمع!

كبرياؤها الآتية من أنها هى المعشوقة، وكبرياتى التى أستشعرها

من أنى أنا محبها "كلتاها كانت العزيمة الهائجة المحتدمة التي أدت شدة المبالاة" فيها إلى عدم المبالاة، وجمعت منا جهلتين غير مبصرتين، واستكبر لها الواقع المحدود، فانتهدى من غضبة إلى سورة معركة، واندفع بها التيار الذى جعل يزحزحنا واحداً عن واحد حتى فصلنا انفصال شاطئين، وفقدنا ما يسمى فى اللغة السياسة "إدراك حقيقة الحالة" فانتشرت بيننا ما تسميه تلك اللغة "بالمسائل الشائكة" وأصبحنا من حيرة وعجز وسوء بصيرة فى مثل الحالة التى يطرح فيها اللغز لعله فإذا منه لغز آخر، وكان عقدة ناعمة كملمس الحية فانتهدى إلى مس السم النافع، ثم ضلت فى ضلالنا الكلمة التى كانت تصلح للصالح، وضاق عنا الحب بأخلاقه فلم يبق منى ومنها غير "لا" قائمة فى وجه "لا".

إنه الموقف العقلى المصوب على قالب فلسفتها حين تقول إنك لن تحكمنى ولو أنك فى الواقع تحكمنى... وعلى قالب فلسفتى حين أقول إننى لن أغلب فى شىء ولو أننى فى كل شىء مغلوب!..

كلمة بيننا ليس لها ناهية ولا أمرة من العقل، فلا تنزل فى خاص معناها ولا تقر فى معنى يمسكها على وجه مفهوم، وكأنها فى موضع مسحور لا يستقيم فيه برهان ولا يحق حق ولا يبطل باطل، وفيها ملء القفر من الإصرار الجافى الموحش، فإذا تقدمت لها شفاعة الحب لم تقع من كلينا إلا بأبعد البعد: كالذى يضل فى صحراء فيظلماً ويلتأح ثم يذهب يحتفر عن بلة أو جرعة، حتى إذا أوشك أن يذبحه الظمأ بنصل من خيال الماء عثر على إناء مختوم فيفضه فإذا فيه جرعة تاريخ قديم... تبنى عن مدن وأطلال ودولة وشعب كانت هنا... هنا فى موضع قبره هو!..

وليس التعب أشد شدة ولا أثقل ثقلاً من موقف عقلى تقفه مغالب نفسك على حقيقتها، فتبغض أنت وهى عاشقة، أو تمارى وهى مقتنعة،

أو تجحد وهي تقر، أو تعزم العزيمة وهي تنقض عليك، فأنت في تزوير فكرك على نفسك، في رد نفسك على الفكر، ثم في التواء حقيقتك التي جعلتها محركا واحداً يعمل في حركتين متناقضتين، ثم تهلك بعناد باطل تزعمه ضرورياً لنفسك على يكون كفكرة فقط وأما كعمل فلا، على حين هو واقع عملا فقط وأما كفكرة فلا...

ويحك يا من يزعم لأحد الشاطئين رجلا يمشى عليها ليتخلص من مقابلته الشاطيء الآخر ومن تقييده بمضادته وممادته على مداه! أرايت ذلك يكون قبل أن يكون للبحر الذي بينهما جناحان فيطير من بين شاطئيه...؟

ويحك! فما معنى الهجر والمراغمة عليه ولم يطر من بينكما الحب؟

أتجنيتها وهي في وجودي، فأحطم بعقلي هذا الفؤاد الشعري الرقيق الذي بين جنبي واتخذ لها في نفسي من الهجر اسماً جافاً يابساً كاسم الحطب وهي باقية زهرة هذه النفس!

إن هنا وهناك وهناك ثلاث مواضع للغيط والكمد، ولكنها أيضاً ثلاث مواضع لعظمتي وسموي. إنه لا صلح لقلبين لم يصطوح فكراهما!...

فآه من ألم السمو الذي يجعلني فرق حياتي على الأشياء والمعاني لتتغير في نفسي، وأعيش أنا في مثل هذا الهجر على المعنى الذي لا يتغير كمعنى البلى، ولا يتسامح كمعنى الضغينة ولا يترخص كمعنى العقيدة!

وآه من كبر النفس على صفائر الحياة، ومن صفائر الحياة على كبر النفس! ولقد يكون الملك العظيم في حشده وجنده وحوله وطوله ثم لا

تعباً ذبابة من الذباب أن تقع على وجهه، ولو نطقت لقاتل صادقاً: وإن كان ملكاً فإنى ذبابة...

وآه من عين الحكمة التى تبصر كرة الأرض هباءة طائفة فى اللانهاية، وترى الكون العظيم ذرة مكبرة، وتضاعف الأشياء على النفس مرة والنفس على الأشياء مرة أخرى، ولا تبرح تخلق خلقها على ما تحب وتكره لأن فيها ألوهية الفكر!

آه من هجر هو سمو ولكنه من الصغائر، هو حكمة ولكنه من الألم هو هجرها لكنه هو حبه!



من قلمها

"وهذه فصول منتزعة من بعض رسائلها نشرناها مقتضبة تلمح بمعانيها لمخًا، ليكون في هذا الاقتضاب شيء من الإبهام، فتكون مع الإبهام كأنها لم تنشر... ما دامت هي لم تكتبها لتنشر كما تزعم^(١)."

فلسفة تأخير الرد:

أخرت جواب رسالتك لتجيب عنى بظنك، وستجيب بأنواع متناقضة مما يسوءك ويسرك. وتضع فى أجوبتك مائة "نعم" ومائة "لا"... ثم يأتيك بعد كلامى فينزل من نفسك منازل لا منزلة واحدة، إذ تقابله بكل ما قدرت فى نفسك من قبل، فيسرك على قدر ما أحزنت هذه النفس، ثم يعطيك من اليقين ما يسرك من ناحية ياثبات الحقيقة ومن ناحية أخرى بمحو الظن!

هذه سياسة بعض ما يحتاج إلى الشرح فى بعض علاقات النفوس يكون السكوت الطويل فيها هو أطول شرح للكلام الذى يأتى بعده... يفسره تفسيرًا غير مكتوب...!

طفولة فلسفية:

أظن هذه الفترة التى انقضت فى سكوت ظاهر كانت كلها أحاديث، أحاديث طويلة لو تعلم.

(١) قلت: أكثر هذه الفصول هو من رسائل صاحبه (حديث القمر) وقد أشرت فى بعض ما كتبت من الفصول عن حب الرافعى - إلى ما كان من أمره وأمرها.

إذا أنا سألتك مرة: أين البرهان؟ لم يعجزك أن تأتي به من بلاغتك، وقد لا تكون ثمة قضية يقوم برهانها، ولكنك تجعل البلاغة الساحرة نفسها قضية على ما ترسم، كأنك مهندس منطقي... وبذلك تطمئن دائمًا لتأثيرك قوة براهينك، أي لإقناعي أنا راضية أو غير راضية...

أما أنا فأقدم برهاني بسذاجة الأطفال الذين لا يعرفون ولا يستطيعون إلا أن يكونوا أطفالاً... وأقوى برهان الطفل أن يكون الطفل نفسه برهاناً عليه، فما عسك تقول؟ أترى الطفل هو عندك أيضًا قضية بلاغة؟

لله من الكتابة إليك! ما أشدها طربًا وأشدها صعوبة في وقت معاً! فأنا أخافك لأنك يستشف من الأحرف ما لا يتبينه سواك من الصفحات، وغريب أننى- مع شدة هذا الخوف- لا أكاد أمسك القلم حتى أسير به أو يسير بي أو نسير معاً: ليس فى أحدنا تروية ولا حذر، وكأننى أخاطب نفسى، أو هو يكتب مذكراتى، أى من قلبى لقلبى. أتعجبك هذه الطفولة فى الحديث؟

نعم هى ألفاظ كالتى فى السنة الأطفال، لا كتلك التى فى الكتب أو فى صناعة البيان، ولكن إذا لم تغض عن ظاهرها فأين إذا الحفاوة بالمكونات التى لا يراها إلا من خبئت له؟

قياس الأشياء فى الحب:

كم أراك تحتاط بطريقة ناعمة لا تصدم كبرياء النفس إلا قليلاً! ولكن أيزهد عنك أنها حين تصدمها قليلاً صدمتها وكفى...؟

ليس كل قليل هو قليلاً^(١) ولا كل كثير هو الكثير، فقياس الأشياء بين الأصدقاء لا يكون في الأشياء ذاتها، بل في صلة الإحساس التي تكون في أنفسهم؛ لأنها إنما تقدر بمقادير الشعور لا بمقادير المادة أما رأيت هذه الصلة الوثيقة أيام كنت مريضاً قد جعلتك مريضتين...

إذا كنت على ثقة من هذه القضية، فأنا الآن راضية عن هذه الابتسامة الطويلة التي أثق أنك تبتسم بها، وإن كنت لا أراها البربرية:

باركت الوخزة التي فجرت منك هذه الآيات الساحرة، وكدت أدعو لك بالآلام والأوجاع مادمت لا تكتب إلا من جرح... أتعجبك تمنيات هذه الصديقة البربرية؟

ألا فليهنأ بك هذا القلم الذي أوتيته، فإن ما كتبت به سيبقى دائماً على آفاق هذه اللغة سحابة وحي تحمل تنزيلها.

وتالله من يتذوق طعم هذه الحلاوة التي تقطر بها براعتك، ليظل من بعدها في جوع دائم إليها كجوع الأغنياء للذهب.

أراك تبتسم الآن بسمه الرضا: أفيعجبك ثناء هذه الصديقة البربرية؟
السيد:

تقول إن حبك مسرف وعداوتك مقتصدة، وإن هذا الحب كخضوع المستبد في نفسه والاستبداد في نفسه قوة، فهو إذا خضع كان واثقاً أن خضوعه قوة أيضاً وإن هان وإن ذل.

(١) هذا الضمير في مثل الموضع يسمى ضمير فصل، وهو حرف لا اسم فلا يعمل في الإفصح. ومع أن الصديقة لا تعرف من النحو إلا قليلاً، فهي لا تكاد تلحن في كتابتها ولم تمس إلا قليلاً من ألفاظها بتحوير أو تقبيح

يا صديقى السيد... نعم ثم نعم، ولكن كلمتك تجعلنى أرى فى صلتنا هذه نوعًا من تطفل الفتاة على سيادة الرجل، إذ تقتحم بها الفتاة وإذ تجرؤ على ألا تضع هذه الصلة فوق موضعها الطبيعى؟ إن هى إلا خضوع وطاعة وعبودية للسيد...

أليس كذلك أيها السيد؟!

أما والله إن الرجل مهما يغلب نفسه ويحملها على الرقة ليصلها بنعومة الأنوثة من جانبها المصقول الناعم، فلا بد أن تغلبه نفسه مرارًا حتى تظهر حقيقته الحافية الخشنة التى خلق منها ولها:

ولو أن حجرًا أحد جوانبه ماس ثمين وسائر جوانبه الأخرى حجر، ثم مسته الحياة فتمثل بشرًا سويًا، لكان رجلاً متحبيًا متطرفًا مثلك يا سيدى، وهو من جانب واحد يعتبر المحب، أى الماس ومن ثلاثة جوانب يعتبر السيد أى... أى الحجر...!

السيد أيضًا:

لا يسؤك أيها الصديق؟ فو الله ما أنا بالتى ترغب الإساءة إلى عدو، فكيف بها إلى صديق وإلى صديق عزيز؟ أيغضب السيد من وصفه بالسيد؟

ولكن ما كانت الصداقة لتحمل فى يدها ميزان العدل لكل كلمة وكل معنى وكل إشارة، بل إنها لتصفح كثيرًا عن كثير لتجعل الحق الذى لها أن تستوفيه كاملاً كأنه حق عليها تؤديه كاملاً فتكبر بتسامحها وتنمو.

كن أنت الحاكم على نفسك انتصافًا لما ظلمت به نفسًا أخرى... وإنى أهز يدك بقوة تؤكد لك أن حرارة الإخلاص هى أبدأ قوية من أنها إخلاص،

متجددة من أنها قوية، باقية، مامن أنها متجددة، وبكل هذا هي الحب
وهي الصداقة!

هو المرض ولكن:

نعم هو المرض الذى استحق منى كل هذه العناية، ولكنه المرض على
أنه فى جسمك...

أنا إنسانية أعطف على كل أحزان العالم، ولكنى لو تألمت لكل
المتألمين لما أثاروا فى نفسى إلا الجزء الأصغر مما تثيره فى آلام صديق.
لو تألمت بنفسى أو لنفسى لا حتمت، ولكن ألمى بك، وشقاءه فىك،
فهو ألم وجزع واضطراب، أتألم بثلاثة من حيث لا تتألم أنت إلا بأحدها..
نعم هو المرض الذى أثار فى كل هذا، ولكنه المرض على أنه فى
جسمك!

جو طليق وحرية:

أنا كما تقول: فى الجو الطليق وفى حريتى المعبودة؛ يحوينى الفضاء
وأحويه ولا قيد ولا حد، ولكن مع كل هذا فهناك هناك فى الجو جاذبية،
وهناك للحرية أشواق، وما يعين لنا حدود مسراتنا إلا الأمانا..

أضيفت كلمتك... إلى سجل هفواتك فى حق هذه المخلوقة التى لا
ذنب لها سوى طيبة نفسها، ومن استحق أن تكون طيبة نفسه من ذنبه
فقد استحق أن تكون من عقابه عند نفسه أتريد منى التوبة عن أن أكون
لك طيبة النفس؟

افتح للشمس:

أعجب لقلبك، يابى إلا أن يحتبس فى هذه الفكرة المظلمة التى

توهمك أنى أسأت إليك وقصدتك بالمهانة... هل القلب يعادى صاحبه أحيانًا فيعاديك قلبك ويأبى عليك إلا أن تصر وتكابر وتغلق النافذات كلها ثم تذهب تتهم الشمس؟

ما حيلة الشمس فى الحيطان والأبواب التى أنت تقيمها؟ افتح لها تدخل إليك!

طفل الحب:

كيف قلت عن الطفل الذى أشرت إليه؟ أما تعلم أنه طفل خبيث لا يستحق الرحمة الواجبة للأطفال من كل طبيعة، وأنه ذو مكر، وأنه ذو دعاية وأنه يريد كل شىء قبل أن يفكر فى إعطاء شىء؟

إنه يظن أن كل ما يعطاه وإنما يعطاه ليجعله ألعوبة ومعرض عبثه، يلهو به ويسخر منه إذا كده اللعب أغمض عينه ونام ليجد من الأحلام لذة لعب آخر... ثم لا يلبث أن يهب من نومه فزعًا خيفة أن تكون ألعوبته قد أخذت منه، ولكنه يجدها فينقلب إلى زهوه، ويكون فزعه كذلك فثًا من اللعب ألمثل هذا الطفل تفتح ذراعيك؟

ولكن، ما أكرم عاطفة الرجل الذى يكون فى ساعة من الساعات ألعوبة طفله العزيز! إنه فى الحقيقة عالم جميل من الرجولة القوية يكتشفه الطفل ساعة يلعب به... وفى هذا اللعب يكتشف الرجل كذلك فى طفله عالمًا آخر وأجمل عالمًا من عواطف قلبه.

الطفل وذئبه:

تريد أن أوافقك على ضرورة إيجاد الذئب لبعض الأطفال...؟ هذا ما لا أسلم به إلا إذا أصبح الذئب حملًا وتغير فهم اسمه ومعناه.

لست أرى من الواجب أن توجد الطبيعة إلى جانب الطفل شيئًا مما

يخيفه ومع هذا فالطفل جبان يخاف حتى من تغريد البلبل إذا سمي له البلبل بغير اسمه، وصلصلة السلاح تخيف الطفل كالسلاح، وذلك بأنه لا يقوى لا سلبًا ولا إيجابًا، لا على أن يثبت لما أمامه ولا على أن يفر مما أمامه...

أيعجبك هذا أم أنت تريد أن تنكر على هذا الحق الذي أسلبه منك لتعرف قيمته حين أردته إليك...؟

من بعيد:

أكاد والله أنسى أنني بعيد عنك هذا البعد كله، بعدًا يتقاذف بكلماتي مسافات ومسافات إلى أن تؤدي إليك شعوري ولا أعلم هل يسلبها البعد هذه الصيغة الحقيقية التي أراها لها وأنا أكتبها، وأراها لها حين تتركني ذاهبة إلى البريد؟

وأنا- على هذا البعد يوم- أقرؤك أراك وإنك لأقرب إليّ ممن هو أقرب إلى، وأشعر بالكلمات حارة متنفسة بين يدي كساعة كتابتها، كأن قلبي كان عندك وأنت تكتبها فلما جاءته جاءته على عهده بها!

هناك- مهما ابتعدت- دائر أنس لنفسى تسكن إليها وتتعلق بها، ولا تجعل محيط أفكارها إلا منها، فأنا بنفسى فى هذه الجهة البعيدة التى تفصلك عنى، ولكنى بها أيضًا فى المكان الذى أنت فيه.



وهم الجمال

"وبعد أن تكافأت مقادير نفسه واعتدلت من اضطرابها وأشرق على السلوان، كتب هذه الرسالة"^(١):

هذه رسالة أحسبها قد برئت في معناها من السلوة والحب جميعا وخرجت بموضعها عن الرضا والغيظ معا، ولم تجيء من برد على الكبد ولا من حرة في الصدر، فلا يخيل إلي فيها أنى أنسكب في تعبيرى كما كان يعتصرنى هذا القلم في غيرها حنيئا وغراما أو سخطا وموجدة.

أكتبها وقد تكافأ جانبها الحب في نفسى هونًا هونًا، واعتدلت مقاديرها شيئًا شيئًا، فلا أعتد بسبب تصغر به الحقيقة الكبيرة، أو تكبر الصغيرة، أو يجاوز بمعنى حده أو يقصر بمعنى آخر عن حقه، ولا أحجر فيها على كلام صحيح أن يتصرف بقدر أدلته وبراهينه لما أخشى من سوء موقعة في الحب، ولا أطلق فيها لكلام مزور أن يتزايد في مغالطته وكذبه لما أرجو من حسن أثره عند الحبيب.

وأكتبها وقد أصبحت أرى وجهها الذى تحمله كالصورة، يحملها الحائط^(٢)... وعدت أراها هى وأمثالها من الحبيبات كفقاقيع الرغوة فى ألوانها وجمالها وانتفاخها... وفراغها وصرت أعتقد أن الهول الهائل من

(١) انظر كتاب "السحاب الأحمر" لتستجمع تنمة هذه الآراء.

(٢) أى وجه حبيبته؛ وكان لما أمسك عما كان يمدها به من خياله وأوهام حياته انقلبت عنده كالجماد، وهذا هو الشأن فى كل من عشق وسلا.

النساء الجميلات إن هو إلا كذلك الرعب المخيف من جبال الثلج فى القطب: لا يمسك الجبل الشامخ بما حوله إلا خيوط واهنة من غزل الماء لو قطعتها نسمة لا نهار وانكفاً^(١).

وأكتبها وقد خرجت إلى دنيا الناس وكنت فى الحب وإياها كالمنقطع فى صحراء ضل فيها ضلال الفقر، واختبل من خبال الوحشية، فهو يرى اجتماع اثنين فى ذلك التيه وقيامها معاً كأنه تكوين دولة من الدول العظمى...

إن البلاغة التى كتبت بها رسائلى من قبل وما احتلت لها به وما صورت من فنونها، هى بعينها التى تنتهى فى هذه الرسالة إلى أن جمال المرأة الجميلة، ليس فى ذات نفسه إلا أسلوباً من الخداع، كالذى يكون فى تزويق الكلام وتمويه الحقيقة ببلاغة التركيب، غير أنه أسلوب حى فى لحم ودم، ثم تزيده المرأة بفنونها تزويراً وتعمية لأن جمالها فى صورة أخرى من صورته الكثيرة هو نفسه الرق والاستعباد محبباً فى حلقة جميلة ليطلب ويعشق.

استعباد حى متى بدأ استمر يقوى ولا يضعف، وينمو ولا ينقص، ومن هذا كان قيد الجمال لا يفك أبداً إذا غل به أسيره من العشاق، بل يكسر كسراً، ويصبح فيه أمر العاشق من حبيبه كالاستقلال فى الأمم المستعبدة: لا يعطى بل يؤخذ، ولا بد فيه من الجرأة والمصابرة والاقتحام وسلاح من الأسلحة أيها كان، إما حاطماً أو مفزغاً أو متهدداً أو محتالاً أو سلاح الرضا أو سلاح الثمن... وما إليها لابد من سطوة ينقلب بها الأسير

(١) تتصل جبال الثلج بعضها ببعض اتصالاً تلجياً، فكثيراً ما تهورها النسمات الخفيفة حين تفصل بينها!

المستعبد إلا أن يكون مالكا بوجه من وجوه التملك فى تلك المنطقة
الإنسانية السحرية المسماة فى لغات الناس بالحبيب...

فكأن الجمال فى حقيقته وسيلة طبيعية لخداع صورة بشرية بصورة
بشرية مثلها؛ ومتى كان كذلك فلا حقيقة له فى الوجود ولم يعد صورة
فى الطبيعة، بل عملا أدوات الصورة، ومن ثم فلن يكون الحب إلا إسرافًا لا
قصد فيه، وخيالًا لا عقل له، ولن يكون فى حقيقة بل فى وهم، ومن ذلك
ظل فلن يكون أبدًا إلا تغييرًا فى معانى الصورة الجميلة فإن الإسراف
لا يثبت على حد محدود، والخيال لا يقف عند شىء حقيقى، والوهم لا
ينحصر فى معنى صحيح.

وفكر المحب كالمسائل الذى يغلى. فما دامت ناره من تحته فهو كله
لا مقر له بين أعلاه وأسفله، ومادام يهدم على فورته^(١) فكله فى الأعلى،
وكله فى الأسفل وكله بين ذلك، ولا قرار له على وضع إلا أن ينكسر
وينفى^(٢)

وكل شىء جميل فى الطبيعة تراه يتخذ من هذا الأصل شيها عند
متأمله والناظر فيه، حتى لكأن الجمال يقول للإنسان: إذا أردت أن تسر
أيها الإنسان وتبتهج بى: فلا تفهمنى فى نفسى أنا بل فى نفسك أنت،
ولا تأخذنى على ما أنا للوجود والطبيعة بل على ما أكون لك ولأغراضك
ولا تدعنى لذاتى بل غيرنى فى وهمك وخواطرك، فإنك إن غيرتنى فقد
خلقتنى، وإن خلقتنى فقد جعلتنى لك.

وعلى ذلك الأصل فجمال المرأة المشوقة إن هو إلا خرافة رجل

(١) الهدير: صوت القدر وهى تغلى على النار وتقود.

(٢) أى تنكسر حرارته وتخف وتبرد.

من الناس، وبكونها خرافة عادات لا حقيقة لجمالها، وكأن الحب إن هو إلا زيادة شعاع في العين تنظر النفس به نظرًا نافذًا إلى موضع لذتها أو فكرها أو هواها، فإذا خطف هذا الشعاع على من يضيء في وجهه بالحب، نقل إليه النفس ببقيتها ووهمها جميعا فاختلطا على تلك الصورة فهما هناك شيء واحد: الوهم هو اليقين واليقين هو الوهم: فكل شيء من ذلك الجمال هو عقيدة ثابتة لا موضع فيها لجدل ولا مساع لنقض ولا محل لرد، وحينئذ لا يكون أكبر عمل المحبوب في سياسته وتدييره إلا أن يلق أو يوفق بين عقله هو وبين جنون عاشقه، وأن يحاول الملاءمة بين حياة الخيال الشارد في إرادة هذا المجنون وبين حياة الواقع الراهن فيه هو، وبذلك فلن ترى حبيبًا إلا هو من محبه بمنزلة الطبيب من مريضه، يطلب له أو يزيد في علته، أو يهلكه... هذا حين ينبعث ذلك الشعاع، فأما حين يخمد فمن ذا الذي تراه مطيقًا أن يصعد السماء إلى النجم الذي انطفأ ليضيئه كما كان يضيء...؟

أقول إن الحب زيادة شعاع في العين، كأنه كهربائية تتفاعل في مركز البصر من الدماغ فينقذ منها ضوء على النفس متلون نافذ لا يثبت فيه حقيقى من المرأة على حقيقته، ولا يظهر فيه شيء إلا مصبوغا مغيرًا. ولا يرده راد عن أن ينفذ إلى منتهاها، حتى لينكشف له المستور وهو فى أستاره قد توارى، وما من حبيبة تجلس إلى محبها المفتون بها الا هى تحت بصره كالعارية وأن لبست ما لبست، لأنها بالحب جسم حى من أفكاره وهو اجسه ونزعاته^(١).

(١) ما أحكم الآية الكريمة ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ ﴾ والآية الأخرى ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَّ مِنْ أَيْدِيهِنَّ ﴾ فكان المرثى لا يمكنه أن يستتر عن شهوات ناظره بشيء ما ، فمن هنا وجب أن تستتر عن الرأى، وهذه هى حكمة التعبير بـ 'يعض ويغضض' وتكرار اللفظة فى =

ولو بقيت عين المحب على عنصرها لكان الجمال فى روح الجميل
وشمائله وطباعه لا فى وجهه وجسمه وزينته، ولعل أجمل نساء الأرض
حينئذ لا تكون إلا عجوزًا من العجائز... ثم عسى أن تكون أشد النساء فتنة
أشدهن قبحًا ودمامة وأبعثهن فى معاني الشهوات على النفرة والجفوة
والاشتمزاز، وهذا إن لم يكن هو الواقع فى اعتبار العين والخيال والحب،
فهو الواقع فى اعتبار الفضيلة والحقيقة والكمال.

إنما التركيب الجميل فى الشكل الفاتن إتقان للكذب بهذا الشخص
على حواس عاشقه، وهو لن يحب ويعشق حتى تكون معانى هذا الإتقان
موزعة على تكوينه وقسماته وتقاطيعه ومعارفه ومجاهله.. كأن جسمه
بكل ما فيه عبارة مركبة يؤخذ المعنى من جملتها كلها، ولكن كل جزء
فيها يسوق إلى هذا المعنى، ولذا تظهر الصورة الجميلة الفاتنة كأنها انتباه
نفسى محتفل مستوفز يشد ويتوثب ليزيد، ويتكسر ويتقتل ليزيد أيضًا،
ويخلق حوله من الثياب والزينة والفتنة جو الأشعة والألوان والنفحات
ليزيد كذلك.

وهل رأيت قط كذبًا يصلح كذبًا أو خداعًا يكون خداعًا إلا وهو قائم
على مثل هذه الحال من التنبه فى النفس ليتغطى ولا ينكشف ويبقى ولا
يضمحل؟ ثم هل رأيت قط شبيها لمن أضل رأيه وصوابه فى وجه فاتن
يعشقه إلا ذلك الذى أضل حذره وفطنته حين أحكمت له الخديعة فى
حلاوة الظاهر وطلاقة الكذب وتبرج الحيلة وزينتها حتى غفل ووقع؟
فهذا كما ترى.

وإذا لم تجد الجمال فى فتنته ونضجه وقوته كأنه انتباه نفسى

= الآيتين، كان العين تختبئ وتستتر، فهل رأيت إعجازًا أبداع أو أدق من هذا؟

محتفل مستوفز على ما وصفنا لك، فلن تجد معه العشق الذي يسمى عشقا، ومنذا ويحك يستهام بامرأة مدبرة قد خلا من سنها واقتحمت العقبة الأخيرة^(١)، أو امرأة مريضة نهكتها العلة، أو التي نقيت روحها في جسمها ولكن مات وجهها^(٢)...؟

وعندى أنه لو شبه العاشق وجه حبيبه بالصحراء المجدبة المقفرة قد ضل فيها رشده وضرбите بكل جهاتها وضاع في معناها الأبدى معنى عمره الوقتى، لما رضيت له الحقيقة غير هذا التشبيه المنطبق المحكم ولا رأت أقرب ولا أدق ولا أبداع منه، ولكن الوجه الجميل كذب ظاهر ولا يلائمه إلا كذب مثله، ومن هنا فاض الشعر وأصبحت أوصاف الجمال كلها تمويها على الغرير وتزويراً للبشرية في غير حقيقتها وتلييسا على روحانية الإنسان، وعاد الوجه الجميل كالصالح المنافق: صالح ومنافق معا: أى منافقان فى شخص واحد!!!

والطفل يرى فى أمه البداية والنهاية جميعاً، لأن طفولته ستار بينه وبين ما وراءها، وكذلك العاشق، يرى فى حبيبته بداية ونهاية معاً، لأن حبه ستار بينه وبين ما عداه، يحصره بين أول وآخر فى امرأة واحدة، أفلا يكفى هذا دليلاً على بلاهة العاشق وغرارته، وأن الحب كالانتكاس إلى الطفولة فى جهة واحدة من جهات النفس؟

وترى الصغير إذا فارقت أمه نظر فيما حوله ليستشف ما انفصل من آثارها المحبوبة على كل الأشياء التى فيها حنين نفسه، وكذلك يفعل المحب فى كل ما مسته حبيبته، حتى كل شىء عليه لمحة منها، حتى

(١) خلا من سنها: أى كبرت وذهب أكثر عمرها، واقتحمت العقبة الأخيرة: كناية عن دخولها فى الشيخوخة.

(٢) كناية عن دمامة الوجه وذهاب جماله مع بقاء الجسم فتيا شابا.

ليرى بعض الأشياء يكاد يبتسم له وبعضها يرنو إليه، وبعضها يكاد يتيه ويتدلل ويصد..

وحول الحبيبة، تتفق لعاشقها كل عناصر الحياة المتناقضة إذا شاءت هى، ومنها هى أيضًا تختلف هذه العناصر عليه إذا شاءت، كأنها- أى الحبيبة- حياة لحياته لا مقصر له عنها، وكذلك أمر الطفل من أمه ووهمه فيها.

خلقت المرأة لتلد الإنسان، وهى تلد هذه الحقيقة فى الإنسانية، ولكن وجهها يلد فى الإنسانية الضلالة..

ولا أدل على وهم جمالها وأنه فى نفسه وفى نفسها لا أثر له- لا أدل على ذلك من أن تتراعى الجميلة فى مرآتها؛ ثم تنظر نظرتها الساحرة ترف بالقبلة من شفيتها على شفيتها فى المرأة..

أما إنها وهى القبلة التى تلقىها الشفاه الحمراء شعلة منها فى القلب أو الفكر وهى القبلة التى احتوت روح الخمر فى سيالها المعنوى، وهى القبلة- هى القبلة؛

ولكن الجميلة حينئذ ستقول: إنه لا بد من رجل مغفل ليخلق هذه المعانى للقبلة ويسمى من جنونه تلك الحركة الطبيعية للشفيتين باسم مجنون.

والمرأة ترى بعينها فى إناث الطير والبهائم من الجمال ومعانيه ما يروقها ويكثر عندها، غير أنها لا تحس ذلك من امرأة مثلها، إذ من الصدق ألا يصدق، كاذب كاذبًا^(١).. فإن لم يقنعك أيها الرجل دليل فهذا فليقنعك...!

(١) تشذ فى هذا بعض النساء المذكرات اللواتى خلقن ذكورا وانحرفن فى التركيب إلى الأنوثة، فتراهن يعشقن النساء عشق الرجل ويفرن عليهن أكثر من غيرته، وهن قليلات.

ومن ثم فما يعرفه الرجل جمالا منها إنما هو فن جسمها، أى تعبير تكوينها عن حقائقها النسوية ومجاوبته بمعانيها على ما فى نفس الرجل من معانٍ تقابلها. هذه المعانى الصامتة والصارخة معًا. والذى نسميها تسمية غير مكشوفة وغير مغطاة أيضًا. هى التى تضع لما يشعرا بها ويستهوينا منها لفظ الجمال؛ فيكون بذلك مفهوماً وغير مفهوم...

فليس الحب إلا وقوعك فى التيه الذى يكون بين الفكر وهو رأى ورغبة، وبين الفكر وهو حقيقة وحادثة، ومن هذا تجد لذة الحب الشعرية بطبيعة الحال لا تملأ إلا المسافة الكائنة بين غير الممكن^(١)... ومن تهكم السعادة على الناس أنها دائماً فى غير الموجود إلى أن يوجد.

قال الشيطان: أنا لون هذه المرأة الجميلة حين أكون منافقاً^(٢)، ولون هذه المرأة القبيحة إذا أكون صريحاً.

قلنا: فعله لذلك لا تتجمل إلا الجميلة ليتم بها نفاق الشيطان!...

(١) الأكثر أن الحب الشعرى هو الحب الخائب، ولكن فى بعض الناس أرواحاً قوية لا ترى أنها الظفر إلا فى هذه الخيبة إذ هى لا تريد المرأة بل معانيها كما نهنا إليه فى المقدمة.
(٢) يتفق لنا كثير أن نرى فى النوم كأننا نقرأ شعراً أو نقرأ أو كلمات من اللغة وتفسيرها، ويجىء بعض ذلك على أتمه من الجمال والروعة والغربة ومنه هذه الجملة بحروفها، أثبتناها كما هى ثم أكملناها بالباقي من لون المرأة القبيحة، لتتم المقابلة وفى الكتاب بعض جمل مما ألقى إلينا مناما ولكنها نثب عليها، ومنها عبارة «غرس الفجر» فى الكتابة عن الحديقة بألوانها ونسيمها وجمالها وهى كما نرى قد لا تجد مثلها فى الأدب العربى من أول عهده إلى اليوم، وما كان لنا فيها من عمل ولا فكر البتة.

وإنما أثبتنا هذا التعليق ليوقن من لم يوقن بأن من الممكن أن يأتى الوحي بأسمى البيان وأعلى الحكمة وأعجب البلاغ، متى كانت النفس مختارة مصطفاه، كالذى أوحى من الكتب المنزلة، فليس يشك فى ذلك إلا غيبى بليد الحس لا يدرى ما هو البيان وما الإلهام ولسنا نزعم أن ما رأيناه هو من هذا القبيل وإنما هو الدليل على إمكانه لاغير.

قلت: فى هذا التعليق شيء يكشف عن نفس الرافي وإيمانه وبقينه، وفى كتابنا «حياة الرافي» فصل ضاف يجد القارئ فيه تمام الحديث عن هذا الموضوع بعنوان «من شئونه الاجتماعية؟»

والسلام عليها

"وهذه كانت آخر رسائله فى حب صاحبتة تلك"^(١)

أحبيتها جميلة لأوجد بها الجمال فى معانى وذوقى؛ ورقيقة لأسيل منها بالرفقة فى عواطفى ونزعاتى، وظريقة لأزيد بها فى نفسى طبيعة مرح وابتهاج، ومتوازنة لتدخل فى طباعى الانسجام والوزن وصحة التقدير، وناعمة لتخلص بروحى من خشونة الضرورات القاسية فى الحياة، ومتفترة لألقى من تفترها على بعض أيامى فتقلب حبيبة بما تمنع وتصد ورشيقة لتهب خيالى سر التوثب والحركة، وجذابة لأجد بها المغناطيس الذى يجذبنى فى الإنسانية إلى مصدرى الأعلى.

وأحبيتها وهى بجملتها فن وجمال ووحى، لأرجع وأنا بجملتى حسن وانفعال وإدراك.

وكنت كأنما أضرب من الحياة فى قفر من المعانى الجافية لا أتوسم نضرة لا أتهدى إلى حقيقة جميلة، فأرسلتها الحقائق السامية التى تعشقها نفسى تقول فى جمالها: تعالى إلينا من هنا: إن الطريق من هاتين العينين...!

(١) قلت إن كانت هذه الرسالة هى آخر ما أنشأ الرفاعى من رسائل الحب فقد أنشأ من بعد فصولاً من وحي هذا الحب ومن ذكرياته، يطالعها القراء فى وحي القلم، ورسائل أخرى بعث بها إليها بعد ما كان بينهما من القطيعة بعشر سنين ولم تجد صورة منها فيما خلف من أوراقه أتواها تاذن بنشرها أو هى تدخرها إلى ميعاد؟ اقرأ ص ١٤١ من كتابنا «حياة الرفاعى».

لا أقول إنه قد وقف نمو الكلمة السحرية التي تزداد وتعظم بتجدد الأيام إذ كل يوم فى الحب هو دائمًا أول حب.

... ولا أقول إن ذلك الاسم الجميل قد أنزل عن عرش الفكرة التي كانت تملكه الوجود لأنها أملكته القلب.

... ولا أقول إن الذكرى قد سلط عليها النسيان فصفاها من حوادثها وأيامها.

... ولا أقول إن ما كان فى النفس جنونًا وعقلا من معانى الحب قد رجع فى النسيان كالقلم المكتوبة على ورقة حبس فى الورقة معناها إلى أن يوجد من يقرؤه فيخرجه.

... ولا أقول إنها قد بطلت القوة المتضاعفة من الجمال وكانت تجعل كل ما يؤلم من الناس يؤلم منها هى أضعافًا، وكل ما يسر من الناس يسرُّ منها هى أضعافًا، كأن الذى هو إنساني فى الخلق ليس إنسانيًا فيها.

... ولا أقول إنه اختفى من ذلك الوجه برهانه الذى كان يقوم بسحره الساحر دليل مقحمًا فى كل قضايا الحبيبة المتناقضة، فلا تتوافق وهى متناقضة إلا على نتيجة واحدة هى أنها الحبيبة، مهما تأت أو تدع فليس بشيء منها على هوان.

... ولا أقول إنه ليس بين ما تعجب به وما تزدريه إلا رجعة خطوة منقلبة وأنها هى قد خطتها فليست هى بعد.

... ولا أقول إن روضة الحب قد انتهت إلى أيامها المقشعرة التي تظهر فيها كل أشجارها من حاملة اليبس والتجرد اعلان آخر الفصل...

... ولكنى أقول..... والسلام عليها!

تم بصهر الله تعالى



المحتويات

الصفحة	الموضوع
٩	تصدير
١٥	صدر من التاريخ
٢٧	مقدمة
٣٥	وزدت أنك أنت
٣٨	رُجَاةُ العِطْرِ
٤١	ما نفع رقة روحى؟
٤٢	رسم الحبيبة
٤٦	البلاغة تنتهد
٥٠	رسالة للتمزيق...
٥٦	القمر
٦٠	قال القمر...
٦١	نظراتها
٦٥	استمداد فلسفة
٦٩	صرخة ألم
٧٣	... وألم الحب
٧٧	منى السلام



الصفحة	الموضوع
٧٨	الحبيبات والمصائب...
٨٤	رسالة الابتسامه
٩١	جواب الزهرة الذابلة
٩٤	ياللجلال...
٩٩	الأشواق
١٠٣	كتاب رضا
١٠٤	رواية القلم...
١٠٨	نار الكلمة
١١٢	المتوحشة...
١١٧	أما قبل
١٢٣	جواب غريب
١٢٩	كذب مصور
١٣٠	لماذا .. لماذا؟
١٣٦	كتاب لم تكتبه...
١٣٩	قالت وقلت
١٤٣	الغضبي
١٤٩	هدية شتم...
١٥٢	متى يا حبيب القلب



الصفحة	الموضوع
١٥٣	صلاة في المحراب الأخضر
١٦١	شجرات الشتاء
١٦٥	رسالة الطيف
١٧١	في العتاب
١٧٥	في الأحلام
١٧٦	في معاني التهنيدات
١٧٩	أليس كذلك
١٨٤	النجوى
١٩٤	هل أخطأت..؟
١٩٧	قلت وقالت
٢٠٤	يا قلبي
٢٠٥	البحر
٢٠٩	فلسفة المرض
٢١٤	يوم النوى
٢١٥	الهجر
٢٢٠	من قلمها
٢٢٧	وهم الجمال
٢٣٥	والسلام عليها

